المحطة

محمد ابراهيم العلي

المرابي

((٤))

رواية

المـرابـي

(٤)

❑ حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف ❑

❑ دار النـدى للنشر ❑

محمد إبراهيم العلي

المحطـــة

(رواية)

المرابي. الجزء الرابع

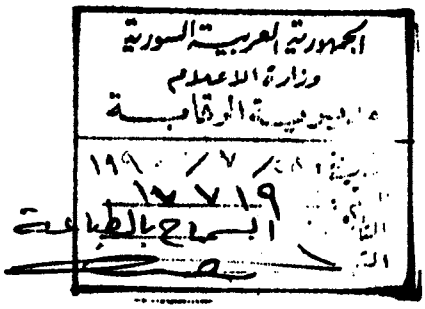

❑ **الإهـــداء :**

الإهداء

الى الذين يأملون

ان عرفة جبا لهم

المؤلف

ـ ١ ـ

أسرع المخاتير والشيوخ مغادرين الفندق متجهين إلى محطة القطار في الحجاز ، بعدما سمعوا بأنباء الانقلاب من الإذاعة . يريدون قطع الشارع بأسرع وقت كي لا يضطروا للمثول أمام الدوريات العسكرية التي تجول الشوارع وتراقب تنفيذ أوامر منع التجول العام في المدينة . وصلوا إلى المحطة ، وصعدوا الحافلة التي كانت على وشك الإنطلاق وجلسوا في عربة الدرجة الأولى المخصصة لعليّة القوم . ثم انطلقت الحافلة محدثة ضجيجاً هزّ البيوت المجاورة للمحطة .

كانت القاطرة ملأى بالركاب المنعمين المتوجهين نحو مدن الشمال . ومن بينهم عدة نساء لهن هيئات مختلفة لكنّها مريبة . فما شك أحد إلا بأنهن من فنانات الملاهي والمومسات اللواتي يتنقلن بين دمشق وحلب ، وهو الأمر المألوف في محطات القطار كلها .

توزعت الجماعة بين الركاب . وفتحت بعض النوافذ لدخول الهواء البارد وخروج الدخان . وساد صمت ، والحافلة تقطع آخر بيوت المدينة . كان الحجي الوحيد الذي بدا عليه القلق بعد سماعه أنباء الإنقلاب . وهي الحالة التي كانت تنتابه كلما حدث الإنقلاب . وما أكثرها في الفترة الأخيرة . الأسئلة نفسها تراوده كلما حدث إنقلاب : ماذا سيحل بسعادته ؟ وهل سعادته مع الإنقلاب أو ضدّه ؟ وإذا كان سعادته مع الإنقلاب هل سيعود إلى وضعه السابق رئيساً للوزراء أم سيشترك في الحكومة فقط ؟ ففي هذه الفترة من شهر آب ينشط عمل الخان في

الشراء والتصدير إلى الخارج لذا فإنه لا يريد القلاقل ، ومجرد وجود القلاقل يؤثر على العمل في القرى والمدن ويخفف من حركة الخان وبالتالي يقلل من أرباحه . لكن الكارثة الأكبر إذا كان قادة الانقلاب من الحزب العربي الاشتراكي ، وكل المقدمات تشير إلى ذلك. وربما قادة الانقلاب الجديد من حزب آخر ، وكل الأحزاب في نظر الحجي هي سواء وخطرها واحد . في السابق كان مطمئناً على نفسه لا يهتم للأحزاب والانقلابات طالما أن أعماله تسير كما ينبغي . ليعمل الجميع في السياسة ، وعليه وحده أن يكون قائد الانتاج والتجارة في المنطقة ، وفي هذه الفترة كان يجهز نفسه لاستقبال أكبر كمية من المحاصيل، لا سيما وأن المواسم جيدة والصفقات التي عقدها في بيروت مربحة ، فهل تؤثر الأحداث الجديدة على مشاريعه ؟ ، هذا ما يخيف الحجي ويثير في نفسه القلق .

فجأة أخذ الحجي يفكر بطريقة أخرى أكثر عملية . فما دام الانقلاب قد حدث ، ولن يعرف من هم وراءه إلا بعد فترة طويلة ، فلماذا لا يستغل الفوضى ويضاعف الأرباح ، والحجي يعرف أكثر من غيره أن الفوضى والشغب يفيدانه أكثر من الاستقرار في مثل هذه المواضيع ، ومع الزمن أخذ يتقن التعامل مع الأحداث ويستثمرها لصالحه ، ففي حالة الفوضى يمكنه أن يجمع أكبر كمية من محاصيل الفلاحين الخائفين وأن يضاعف فوائد ديونه عليهم بلا حسيب أو رقيب، وسرعان ما عزم على أن يعمل بالسرعة القصوى لاستغلال الظروف الجديدة ، لأن الفلاحين في مثل هذه الظروف يحتاجون إلى النقود أكثر من أي شيء آخر ، وهم لا يستطيعون تخزين المحصول أو بيعه إلا في محطات القطار . وبهذه الحالة يستطيع أن يفرض الأسعار التي يريدها في غياب الحكومة والمسؤولين .

هذا ما حدث في أثناء الحرب العالمية الثانية عندما كان سيد الموقف بين الفلاحين وحكومة الانتداب ، وقد جنى من وراء ذلك أرباحاً كثيرة .

ومع أن الحجي يملك أكبر خان في المدينة كان لا بد له من التعاون مع أصحاب الخانات الأخرى . وذلك لا يكلفه جهوداً كبيرة . فهو أكبر مستلم للانتاج وأكبر مصدر له ، لهذا يستطيع أن يفرض الأسعار التي يشاء على الفلاحين أصحاب الخانات الأخرى . وفي وقت سابق كان سعادته يساعده في ذلك ويشدد على سلطته ونفوذه بين الجميع ، ويقاسمه بعض الأرباح ، ولكن أين سعادته الآن وماذا سيحل به ؟ ! هذا الأمر بات مجهولاً بالنسبة للحجي.

يجب أن يبقى رشاد بك القبضة الفولاذية الذي يسخره لمصالحه وشؤون خانه. فرشاد بك رجلاً متلافاً متهتكاً ، ولهذا تسهل قيادته . فما مصير رشاد بك ؟ إنه ليس سياسياً بالمعنى الدقيق للكلمة . لكن من يعرف إذا استلم الحزب قيادة البلاد، وماذا سيكون مصير رشاد بك .

الشيخ صفوك الجالس جانب امرأة مسافرة تدخن بشراهة يعتقد أن الحجي نائم . فأخذ يحملق بالمرأة ويسمعها بعض الكلمات . بينما الحجي يطلق لأفكاره العنان . (خلال أسبوع يبدأ استلام الموسم في الخان . وفي مثل هذا الوقت عليه أن يستورد بعض المواد والأقمشة للفلاحين) . وشيء آخر يفكر فيه ، هو تصدير الخنازير إلى لبنان . وقد كلف لهذا الشأن تاجراً آخر كي لا يقرن اسم الحجي بالخنازير المحرمة .

كان يفكر باستغلال منطقة الغاب التي سيبدأ بتجفيفها تمهيداً لزراعتها بالذهب الأبيض وإستغلالها . إنه يعرف أن هذه المنطقة غنية وخصبة وستقوم فيها زراعة جديدة للقطن وهي المادة التي يتاجر بها حتى الآن . ولقد ساعده هدوءه على التخطيط لهذين المشروعين المستقبليين المربحين . وحتى ذلك الوقت عليه أن يشتري ما أمكن من الجواميس والخراف والخنازير والجلود لتوريدها إلى لبنان أو فرنسا .

هزه الشيخ صفوك من كتفه معتقداً أنه نائم . وقال له :

ـ اصح يا رجل . دعنا نتحدث قليلاً .

لم تعر المرأة اهتماماً للشيخ صفوك ، ولذلك فكر أن يتحدث قليلاً مع الحجي ليخرج من وحدته ، فتح الحجي عينيه . وقال له :

ـ لم أعد شاباً يا شيخ صفوك . وقد سهرت بالأمس . ومن يسهر الليالي عليه أن ينام النهار .

وسأله الشيخ صفوك هامساً :

ـ وهل أتت إليك في آخر السهرة ؟

فأجابه الحجي بابتسامة ذات مغزى ، وأغمض عينيه من جديد تاركاً الشيخ صفوك لأفكاره المختلطة حول الانقلاب الجديد بسعادة بالغة لأنه إن عاد إلى الحكم قد يصبح عضواً في البرلمان . وعندئذ سيتمكن من أن يكون شيخ القبائل كلها، وسيكون بمقدوره أن يزيح جميع الشيوخ الآخرين بقوة السلطة .

وقاده التفكير بالسلطة إلى صفقة الأسلحة التي عقدها في بيت الياس ، وكيف ستفيده بتشديد قبضته على القبائل ، التي تدر عليه الأرباح الكبيرة .

توقف الشيخ صفوك عن التفكير وهو يتملّى المرأة إلى جواره ، وعلى الرغم من تعبه ، لم يستطع النوم وأخذ يتملى المناظر الطبيعية من نافذة الحافلة .

المختار أبو حميدة أكثر أفراد الجماعة اضطراباً فقد كان متعباً ونظراته قلقة . يفكر بوضعه وبمستقبله ، فإذا ذهب الجنرال والمارشال ، فسوف يشمت به الجميع، والشماتة بالنسبة إليه أصعب من الموت . وفي لحظة نظر إلى المختار داوود وأخذ يتملاه وهو ينقل بصره بين المرأة والنافذة ، وامتلأ قلبه بالوساوس . كان هذا المختار منافسه على السلطة في المنطقة . وقد قرأ شيئاً من مشاريعه وخططه في عينيه وتصرفاته . فما شك لحظة بأنه يعد نفسه لمنصب مهم في المستقبل إذا واتته

الفرصة . فمن يدري ، قد يصبح مختار المخاتير في المنطقة أو وكيل الجنرالات في انقلابات مقبلة ، إذا زوجه ابنته حميدة هل يأمن شره ؟ ولقد كتم عنه طوال الوقت الذي رافقه فيه خوفه هذا كي لا يثيره فلعل الكلام الطيب معه والحرص على مشاعره هما الأجدى في التعامل مع رجل ينتظر الفرصة المناسبة لصعوده على سلم المسؤولية .

هكذا كان المختار أبو حميدة يحدث نفسه عندما بدأت علاقته برشاد بك وهو يحمل الكثير من الأحلام ، لكن ما تحقق منها قليلٌ ، لقد رافق رشاد بك في كل مغامراته النسائية. لكنه لم يحصل إلا على منصب مختار . أما المختار داوود ــ هكذا أخذ أبو حميدة يفكر ــ فإنه لن يقبل بهذا القليل وهو صغير السن وتنم شخصيته عن الصلابة والاقتدار.

وإذا وصل كولونيله إلى قمة السلطة في انقلاب عسكري فإنه سيرفعه معه ويسيطر على المنطقة من خلاله ويتحكم بالناس بما فيهم المخاتير .

وحتى لا يفاجأ في المستقبل ، (عليه أن يتودد إلى الشيخ صفوك ، ولو أن التودد هذا لا يرضيه) لأن الشيخ صفوك له علاقة بالكولونيل .

نظر المختار أبو حميدة إلى وجه الفتاة الجميلة التي تجلس على المقعد المقابل وتذكر غرامياته التي كان يتقاسمها مع الحجي في الخان . وتذكر الغجرية التي كانت ترقص حتى الفجر وكيف كان يذهب معها في آخر المطاف إلى إحدى غرف الخان ، في حين كان الحجي يرافق غجرية ثانية .

كل هذه الذكريات أصبحت الآن في مهب الريح ، ثلاثين عاماً عاشها كيفما اتفق في ظل رشاد بك وبرفقة الحجي ، ويأتي أخيراً المختار داوود ليعكر عليه عيشه ، فهل يصل سيده إلى قمة الانقلاب ويسيطر هو بالتالي على المنطقة؟ المختار داوود يؤكد أنه سيترك المخترة ويصبح وكيل الوكلاء. فهل يحدث هذا ؟

على المختار ابو حميدة ان يستعد لكل المفاجآت التي يخبئها له القـدر ، فتـذرع بالصبر والثبات متمنياً من جهة ثانية الاّ يتخلى الحجي الخبيث عن صداقته فيقدم له العون في الوقت المناسب .

المختار داوود يدخن بشراهة ، وينفخ الدخان في الحافلة . ويرفع رأسه عالياً ثم يعدل من وضع عقاله ، وهو يحدق إلى الفتاة التي تجلس جانب المختار أبو حميـدة . كان الذئب ينقل بصره بين الامرأتين الشابة والمسنة الـتي اعـتزلت الفـن ، وكـانت الكبيرة تبادلـه النظـرات وتغمـزه بعينهـا ، فيهـز لهـا رأسـه مبتسـماً. حدثتـه باللغـة الفرنسية فبدا عليه الارتباك فاضطرت بعد ذلك إلى الحديث بالعربية المكسرة .

قالت له :

ــ أستطيع أن أخمن بأنك شيخ من شيوخ البدو أو نائب في البرلمان مـن نـواب العشائر ، فهيئتك تدل على ذلك ، ثم أنك تركب الأتومـتريس بالدرجـة الأولى ، وتحسن من تعديل عقالك .

وابتسم المختار داوود ، وأخذ في غمرة فرحه يعـاكس الفتـاة الشـابة ، وغمـز المختار أبو حميدة ليبدل موضعه وسرعان مـا تبـادلا الأمـاكن ، الأمـر الـذي سمـح للمختار داوود بأن يلامس الفتاة كتفاً بكتف ، فأخرج علبة سكائره ولف سيكارة ناولها لجارته ويده ترتجف .

أخذت الفتاة السيكارة وقالت في ضيق :

ــ كل يوم انقلاب !! من الذي ينظم هذه الانقلابات ؟! كأن هناك أناسـاً لا يشتغلون شغلة غيرها .

ورد المختار داوود :

ــ إننا لا نستطيع ان نعرف من وراء كل انقـلاب إلا بعـد حـدوث الانقـلاب التالي . عندئذ يكشفون أنفسهم بأنفسهم .

وصدّقت الفتاة على كلامه وسألته :

ـ وهل أنت نائب في البرلمان فعلاً ؟

أجابهـا :

ـ لا . أنا مختـار .

وتابعت الفتاة :

ـ ولكنك تبدو كشيخ من شيوخ عشائر البدو .

فهز المختار داوود راسه علامة الايجاب :

قال لها : إنه يملـك أمـوالاً كثـيرة ، وقطعانـاً مـن الغنـم ، وخيـولاً . ودعـاهن للنزول في محطة القطار ليقضيا معاً ليلة عنـد مـدام المحطـة . فـالمدام في محطـة قطـار كوكب صديقته . لم يكن فيما قاله صادقاً ، فهي صديقة رشاد بـك ، لكنـه كـان يقدم لها الهدايا الكثيرة لمناسبات كهذه ، فلم تكن المدام تمانع في اقامته عندها يومـاً أو ليلة .

ورفضت الفتاة الدعوة ، وقالت في دلال :

ـ لدي أعمال كثيرة في حلـب . لكـن هـذا عنواني ، فأنـا أسـكن في منطقـة الجميلية فـإذا رغبـت في زيـارتي فأنـا أرحـب بـك ، ولا تنـسَ أن تكـون جيوبـك عامرة، فالسهرات في حلب تكلف كثيراً . ولا مانع مـن ان يحلـب معـك الخـراف والجبن وافراخ الحمام . ومن جهتي فسأطعمك الكباب الحلبي.

وانتبـه الحجـي للحديـث الدائـر بـين الفتـاة والمختـار داوود . فهمـس في أذن المختار:

ـ يا رجل لقد تركتك ثلاثة أيام بحالها في ملهى الكروان وفنـدق الأهـرام . ألم تشبع ؟!. أنظر حولك فالناس يحدقون بك ، ويستكرهون حديثك مع فتاة من هذا النوع .

وهز المختار داوود رأسه مبدياً عدم الاكتراث ثم قال للحجي :

ـ الأيام المقبلة ستكون في صالحي . قد أصبح شيخ عشائر البدو . وهأنذا أدعوها لتنزل في محطة قطار كوكب إلا أنها ترفض فلو وافقت لنزلت معها وغداً صباحاً أعود إلى القرية .

ونظر إليه المختار أبو حميدة قائلاً :

ـ اليوم انقلاب ولا ندري ماذا يحصل .

ورد عليه :

ـ وماذا يحصل ؟ مهما حصل فأنا لا أبالي .

فكر الحجي وهو مغمض عينيه قائلاً لنفسه :

ـ علي ألا أنقل هذا المختار الملعون الذي سيكون لسيده شأن في الجيش ، فسيده من ضباط الجيش ، وعلي أن أقدم له صنوف الإحترام ، ولكن يجب أن أستثمره استثماراً جيداً وجديداً ، وهذا المهم .

أما الشيخ عبد الرحمن فقد كان يدخن سيكارة لفّها له المختار داوود وينظر إلى وجه الفتاة بين حين وآخر ويقول :

ـ سبحان الذي صور ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ ﴿ لا إله إلا الله ﴾ . ثم يعود به شريط الذكريات إلى الأيام التي قضاها في فندق الإهرام فيعود ليستغفر الله . بعدئذ جلس إلى جانب الحجي يسأله :

ـ هل سيظل مفتي حماة في منصبه بعد الإنقلاب ؟ هل أحل مكانه ؟ وهل تقبل المدينة أن يكون المفتي من رجال الدين في الريف ؟

وأجابه الحجي :

ـ لا ندري ماذا يحدث الآن ؟ قد يقتلونك إذا فكرت في هذا الموضوع .

فالمفتي يجب أن يكون من رجال الدين في المدينة وليس من الريف . لأن أغلبهم من الأتراك المقربين للسلطان سابقاً . بالإضافة إلى أنك شيخ غير مثقف ، و لم تدرس في الأزهر فكيف تفكر بأن تصبح مفتياً ؟!

رد الشيخ عبد الرحمن :

ـ ولماذ لا أفكر بأن أكون مفتياً ؟ فإذا انتصر العربي الإشتراكي فسأنتسب إليه.

فأجابه الحجي :

ـ أنت قلت : أن الإشتراكية كفر وإلحاد فكيف ترضى بانتسابك إليها ؟

وقال الشيخ عبد الرحمن :

ـ الدنيا مصالح يا حجي . وأنت أدرى الناس بذلك . قد يأتي الإشتراكيون إلى الحكم . فلماذا نيبّس رؤوسنا .

فكر الحجي إذا انتسب الشيخ عبد الرحمن إلى العربي الإشتراكي فهو يساعدني في زيادة الفوائد وجمع الديون من الفلاحين وإذا أصبح مفتياً في المدينة قد يساعدني مع رجال الدولة ويحل مشاكلهم . وكان يفكر كيف يستثمر الشيخ عبد الرحمن استثماراً جيداً ، فالشيخ يرغب أن يكون مفتياً ولو عن طريق الشيطان . وعليه أن يدفع الشيخ عبد الرحمن بهذا الإتجاه حتى يستفيد منه . وفي الوقت نفسه يدفع شيخاً آخر من المدينة إلى حزب الإخوان المسلمين وآخر إلى حزب الشعب . فالجميع يجب أن يكونوا أصدقاء . أن يكون كل واحد منهم في حزب حتى إذا وصل أي حزب إلى السلطة يكون له موطىء قدم فيها . وإذا استلم سعادته السلطة فسيضطرب الفلاحون بعد أن أولوا ظهورهم له .... كانوا عندما يشتمهم الوكيل أو المختار يصرخون في وجهه قائلين سنذهب إلى العربي الإشتراكي !! لقد تبدلت الأحوال قليلاً .

والتفت الحجي نحو الشيخ وقال له :

ـ أجّل هذا الحديث إلى الخان ، فهناك كثيرون يسمعوننا ولا نريد أن نناقش ما يتعلق بالأحزاب ونحن لا نعرف هوية هذا الإنقلاب . فحتى نستطيع أن نحدد موقعنا وموقفنا منه يجب أن نعرف عنه شيئاً . وعلى كل حال يجب أن نهيء أنفسنا ونسايره حتى تسير مصالحنا في الطريق الصحيح وعليك ألا تورط نفسك بكلام فارغ حتى تتوضح الأمور . فكّر في مستقبلك وأنا معك في هذا التفكير . ولكن قل لي أين أمضيت الأيام الثلاثة الماضية ؟!

لقد خاف الحجي أن يكون أحد الركاب من رجال السلطة . فغير حديثه .

وقال الشيخ عبد الرحمن :

ـ إذا لم يصل سعادته إلى الحكم ماذا سنفعل ؟

والتفت الحجي إليه سائلاً :

ـ هل نسيت الخبز والملح هل نسيت نصيحتك ؟ ألم تقل لنا ضع إصبعاً في كل مكان حتى إذا كانت الغاية لهذا الحزب أو ذاك تكبر الإصبع وتصبح يداً . علينا أن نصبر يا شيخ عبد الرحمن !

وأراد الحجي أن يسايره في الحديث . فقال :

ـ أنظر إلى المختار داوود كيف نزع عقاله وهو جالسٌ إلى جانب الفتاة الصغيرة ؟ والثانية أجنبية تعمل في دار البغاء في حلب أنا أعرفها جيداً . لقد كبرت في السن فلم تعد تجدي نفعاً .

وأطلق الجميع ضحكة صغيرة .....

وعلق المختار أبو حميدة :

ـ « هذه المرأة تشبه الحمارة التي شاخت ورميت على مزبلة القرية » .

وأخذوا يعلقون على المرأة وعلى مساحيقها الصارخة وهي لا تفهم ما يقولون.

وصلت الحافلة إلى حمص ، ووقفت في المحطة ، ونزل المخاتير والشيوخ وسلموا على المدام . فرحبت بهم ، وطلبت من سائق الحافلة إن يرجىء موعد انطلاقها قليلاً حتى يشربوا الشاي عندها . وأخبرت المستر هانس في شركة (الأي بي سي) قائلة له كلمة واحدة ... لقد عادوا ومعهم الشيخ صفوك . وكانوا يعرفون الشيخ صفوك كثيراً لأن رعاته يرعون بجانب المحطات ، وكثيراً ما استضافه المستر هانس والمستشار الفرنسي حيث كانوا يصطادون الغزلان سوية في سياراتهم .

وصل المستر هانس فسلموا عليه . إنه يعرف اللغة العربية جيداً لأنه عاش أكثر من عشر سنوات مديراً لشركة نفط العراق (الاي بي سي) الإنكليزية وكان يتنقل باستمرار ما بين كركوك والموصل وصولاً إلى طرابلس . والمركز الرئيسي للشركة في مدينة حمص ، وهناك يقضي فترات طويلة يجري خلالها اتصالاته مع السياسيين السوريين ومع رجال المال .

قال مبتسماً :

ـ لقد عملها الجنرال الجديد . كنا نأمل أن يتأخر قليلاً حتى تصدق إتفاقية النقد لكن يبدو أن الكولونيل سيمون أخطأ في تقديره . تصور أنه يستطيع أن يقرر كل شيء . مسكين الكولونيل سيمون والسير جان فالفرنسيون حظهم بات قليلاً هنا . أنا قلت لهم أن يوقعوا إتفاقية النقد قبل التابلاين . ولا بد من أن يعاقب المارشال الذي لم يكن ينظر إلى الوراء ولا يعرف يمينه من يساره . يقول سأحرر الأرض ؟ ماذا يحرر وهو لا يملك النقود ولا البترول . لقد أصبحت إتفاقيات

المارشال مصدقة بقوة القانون الدولي عدا النقد فهي لم تصدر في الجريدة الرسمية والخاسرون هم الفرنسيون . وتابع الحديث ،

أنا أحترم الشيخ صفوك ، لو تبقى عندي هذه الليلة لنخرج إلى البادية ونأكل الخراف ؟ وأنا أطمئن الشيخ صفوك سلفاً بأنه سيكون عضواً في البرلمان الجديد !

شد الشيخ صفوك على يده مبتسماً وقال :

ـ الله يحي المستر هانس وأنا تكريماً لكم سأسمي إبني « لورانس » .

كان لهذه المقابلة اللطيفة أثرها في نفس الشيخ صفوك . وقال له الحجي :

ـ يفضل الشيخ صفوك الذي رافقنا ذهاباً وإياباً أن يعود إلى منطقته لأنه سيزودني بالخراف والألبان والأجبان ، أما عن رحلة الصيد فسوف يأتي مرة أخرى لهذا الغرض وسنجلس معكم يا مستر هانس طويلاً في المستقبل . ولكن إذا كنتم تعرفون ما يدور في أجواء السياسة فيجب أن تتذكروا الحجي لقد زرت المستر الياس في بيروت . ومن هذه الكلمة فهم المستر هانس أن الحجي أخذ يمتد بمشاريعه التجارية إلى خارج البلاد .

وبعد أن شربوا الشاي شد المستر هانس على يد الحجي وقال :

ـ إن سعادته سيكون رجل المال الأول في سورية . بدلاً من المستر جبارة لأن جبارة فضل التابلاين على غيرها . وأطمئنكم أن سعادته سيكون الرجل الأول في عالم المال وأنت يا حجي تعرف أن المال هو عصب الحياة .

وقال الشيخ عبد الرحمن :

ـ المال زينة الحياة الدنيا .

لقد طمأن المستر هانس الجميع على وضع سعادته . فهانس يعرف سعادته وقد عمل معه في السابق فترات طويلة منذ فترة الإستعمار الفرنسي الأول عام

١٩٣٩ كان من الذي ساهموا مساهمة فعالة في تصديق تنفيذ أنبوب نفط العراق عبر الأراضي السورية . وقد اطمأن الحجي على مستقبله وأطمأن أبو حميدة على وضعه ومستقبله بيد أن المختار داوود كان بعيداً عما يدور إلا أنه سلم على المستر هانس دون معرفة سابقة وقال له :

ـ أنا وكيل الكولونيل .

شد المستر هانس على يده قائلاً :

ـ كولونيل جيد له مستقبل كبير .

وقالت المدام :

ـ إشربوا الشاي الحافلة ستسير لأن الركاب بدؤوا يتذمرون .

عندما طال توقف الحافلة نزلت الصغيرة والمرأة الكبيرة من الحافلة وسألت المدام بطريقة توحي بأن لها علاقة وطيدة معها، خاطبت المدام المرأة المسنة قائلة :

ـ أنت تمرين من هذا الطريق منذ عشرات السنين وأنت توزعين المناشير عندما تأتين من بيروت لتسلميها إلى حلب ولك فضل كبير في كل ذلك فنحن لن ننساك وأنت لا تزالين شابة .

وشد المستر هانس على يدها قائلاً :

ـ لا تزال شابة لماذا تقولين قاربت الأربعين من عمرها ؟ وابتسم المستر هانس ابتسامة ساخرة ونظر في وجه مدام المحطة وغمزها بعينه إشارة إلى أن المرأة احتازت الستين من العمر في الحقيقة .

ركبوا الحافلة باتجاه مدينة حماه . وكل منهم أخذ يفكر بمنحى آخر . الآن فهموا شيئاً عن هوية الإنقلاب الجديد فالمستر هانس له باع طويل في هذا الموضوع ولذلك اطمأن الحجي على أن سعادته عائد لا محالة . وراح يفكر

بأرباحه وكيف يستطيع أن يضاعفها فليس عليه الآن رقابة من أية حكومة من الحكومات وفي الحقيقة لا توجد حكومة . وعليه أن يسرع في استغلال الموقف قبل أن يتمكن سعادته من فرض الرقابة التموينية والضرائب . وأن يُعلم سعادته عن كل شيء وبسرعة ليضعه في صورة الأمر الواقع . ومشاكل المخاتير يجب أن يستثمرها لصالحه . فعلى المختار أبو حميدة والمختار داوود أن لا يتفقا . فالحجي لا يرغب أن يكونا على وفاق وهو الذي لا يرغب في أن يكون بين الوكيل والشيخ والمختار أي اتفاق أيضاً . يجب أن يتنافروا وأن يكونوا متحابين أمام الفلاحين فقط ولكن فيما بينهم يجب أن يكونوا مختلفين حتى لا يتفقوا ضده فتتأثر أرباحه وفوائده مع الفلاحين . وحدث الحجي نفسه « إن رشاد بك وسعادته هما فوق مستوى عينيه وعليه أن لا ينظر نحوهما إلى الأعلى » . وقال : الأكل في البطون أفضل من النظر في العيون .

وكاد الحجي أن ينفجر ضاحكاً وهو يتذكر نظراته نحو بطن الغجرية نوفة وهي ترقص .؟ المستر هانس يتدخل في شؤون النواب في المناطق البدوية وخاصة فيما يتعلق بالنواب الأميين من شيوخ العشائر وهو يرغب أن يكون أعضاء البرلمان معينين تعييناً لا منتخبين انتخاباً . وهذا يفيد الشيخ صفوك بالتأكيد . وقد ألمح المستر هانس لذلك .

ولما عرف الشيخ عبد الرحمن أن سعادته قادم فكر بأن المفتي هو صديق لسعادته والبيك ليس من أصل عربي لذلك لم يستطع أن يكون عضواً سرياً في العربي الإشتراكي ويحافظ على سلوكه التقليدي خوفاً من أصحاب الخانات أو المخاتير.

كان الجميع ينظرون إلى وجه الفتاة الصغيرة التي كانت تجلس بجانب المختار

داوود . وعندما وصلوا إلى محطة حماه نزلوا من الحافلة وأعطى الحجي هدية للمدام لأنها تسهل له نقل المحصول . وللمدام أصحاب في جميع القرى فهي تحيل المحطة إلى دار بغاء صغيرة لرجال الإقطاع حيث تتصل بهم بالتلفون وتطلب من حلب بعض الفتيات ليسهرن في المحطة ويعدن في اليوم التالي .

ورغبت المدام في تقديم الطعام لضيوفها لكن الحجي قال لها :

ـ يجب أن نذهب إلى الخان فلدينا أعمال كثيرة ونشكرك على ذلك .

نظر الحجي إلى ساحة المحطة وتصور كيف ستكون هذه الساحة مزدحمة في الأيام القادمة في أثناء تحميل الحيوانات والمحاصيل . سيكون للخنازير رصيف خاص لأن رؤيته قد تُفسد حجته .

كانت المحطة خالية من الناس لأن التجول ممنوع . وقد رغبت المدام في أن ترسل المخاتير إلى الخان وتتمسك بالحجي حتى تفاوضه على بعض الهدايا ولكن الحجي فهم عليها ووعدها بالمجيء فيما بعد . وأرادت أن تستغل الشيخ صفوك فقالت له :

ـ أنت يا شيخ يجب أن تنام في المحطة وغداً تذهب .

ولكن الحجي أراد أن يسلبها كل فرصة ، حتى تظل تحت سيطرته . فسحب الشيخ من ساعده وذهبوا جميعاً وعبروا السوق الرئيسي على الرغم من منع التجول فالحجي يعرف طرقات المدينة ودروبها كلها .

وعندما وصلوا إلى خان (أبو جورج) كانت البوابة الصغيرة مفتوحة فدخلوها ، ووجدوا هناك عدداً من تجار الخنازير وتجار الجواميس وتجار الأسماك فاستقبلهم أبو جورج قائلاً :

ـ سمعت بأن هناك انقلاباً ، والتجول ممنوع فكيف وصلتم إلى هنا ؟!

وربت على كتفه الحجي قائلاً :

ـ لنجلس ، وهيء لي أركيلة ، فروحي قاربت أن تزهق.

ونهض أبو جورج إلى تحضير الأركيلة وهو يفكر بما يخبئه الحجي في جعبته .

وانفرد أبو جورج والحجي في غرفة جانبية وبدأت مفاوضات صفقة الخنازير وكيفية تصديرها إلى بيروت . ونقل الحجي (لأبو جورج) ما قاله المستر هانس . فابتهج أبو جورج لأن ثقته بمعلومات المستر هانس كبيرة .

ثم انتقلا بعد ذلك إلى تحديد أسعار الحبوب .

قال أبو جورج للحجي :

ـ ألا تعرف أن سعادته سيغضب إذا ضاعفنا أسعار الحبوب . ما رأيك بأن تقدم له جزءاً من الأرباح ، فهو أولاً وأخيراً ليس غريباً عنا فنحن نتعامل مع سعادته بالربح والخسارة ولكن في هذه المرة إذا ضاعفنا الأسعار فعلينا أن نضاعف الهدية . ما رأيك ؟!

أجاب الحجي :

ـ أنا موافق .

رد أبو جورج :

ـ إن جميع قرى سقيلبية وقلعة المضيق وكل قرى الغربية تأتي إلى هذا الخان وعلينا أن نستثمر ذلك .

وفكر الحجي بأن عليه أن يستثمر فرصته بمنع التحول وبرفع الأسعار والفوائد على الفلاحين وأن يستثمر (أبو جورج) لأن له كثيراً من القرى والفلاحين والمخاتير والوكلاء الذين يزورونه ، وبعض الغجريات اللواتي يردن إلى خانه . وأبو جورج سيد من يعرف كيف يستغل الغجر والفلاحات والبدويات في سبيل جني الأموال ، أما بالنسبة للفوائد ، فالحجي هو الذي يقررها ، فرشاد بك

وإحسان بك يتعاملان مع (أبو جورج) والحجي في وقت واحد . وتعتبر الهدايا التي تقدم في المحطات والحفلات من الحجي (وأبو جورج) هدايا لسعادته وليس لها رصيد في الواقع حيث لا يرغب سعادته تسجيلها في قيوده .

ـ ٢ ـ

المسافة بين خان الحجي وخان (أبو جورج) حوالي كيلومتر ونصف الكيلومتر ، اعتاد الحجي أن يقطعها راكباً على حماره . وهكذا جهزت الحمارة ليركبها كما جهزت حمارة أبو جورج ليركبها الشيخ عبد الرحمن . بينما أصرّ المختار داوود على العودة إلى المحطة ليتابع طريقه في القطار ليلاً إلى قريته وبقي المختار أبو حميدة والشيخ صفوك .

تسرّبت بعض الأنباء ووصل معها اسم الجنرال الذي قاد الإنقلاب ولكن ورد خطأ في إسم العائلة . وقد ترتّب على ذلك تشابه في إسم عائلة الجنرال الذي قاد الإنقلاب وبين إسم عائلة في المدينة .

وعندما سمع الشيخ عبد الرحمن إسم هذه العائلة همس في أذن الحجي :

ـ ما رأيك أن نرسل لوالديه بعض الهدايا ، خروفاً أو خروفين .

أجاب الحجي متوجساً :

ـ لننتظر قبل أن نقع في الخطأ . فأنا أشك أن يكون الجنرال من هذه العائلة ، والأمر كله قد يبدو مجرد تشابه ، وفي هذه الحالة نكون قد خسرنا الهدايا . والأفضل أن نتمهل.

وصمت الشيخ عبد الرحمن مبدياً تفهماً لتبرير الحجي .

وقاد السائس بطرس حمار الحجي وأخرجه إلى الشارع ومشى خلفه المختار أبو حميدة بينما كان الشيخ صفوك قد سبقهم بقليل سيراً على الأقدام .

وكانت الشوارع خالية إلا من بعض المارة .

قال المختار أبو حميدة للشيخ عبد الرحمن :

ـ تصور هذه الحمارة مثل الحافلة .

رد الشيخ عبد الرحمن قائلاً :

ـ لكن تنقصنا تلك الفتاة الجميلة .

وجدّ الركب في المشي خشية تعرضهم لإهانة من شرطي لا يعرفهم .

عبروا جسراً ضيقاً فوق نهر العاصي يمر عبر بوابة ضيّقة عمرها آلاف السنين ثم مروا من دروب ضيقة حتى لا يشاهدهم رجال الشرطة . وعندما مروا عبر هذه الأنفاق قال الحجي :

ـ إن هذه الأنفاق تصلح لأن تكون مخبأً لرجال العصابات. وأنا أكره أن أمر عبرها . ومنذ سنوات عدة لم أمر بهذه الدروب فهي كريهة الرائحة .

النواعير تدور على نهر العاصي محدثةً صوتاً جميلاً رتيباً ، وصريراً حزيناً . حين قال المختار أبو حميدة :

ـ عندما أسمع صوت الناعورة أتذكر شبابي .

وفي أثناء المسير قال الشيخ صفوك :

ـ أنا شممت رائحة لحم الخنزير في الغداء الذي أكلناه من عند (أبو جورج)!

ولكن الحجي نفى ذلك نفياً قاطعاً وقال :

ـ إسألوا السائس بطرس هل كان في هذا الطعام لحم خنزير ؟!

وهز الشيخ عبد الرحمن رأسه قائلاً :

ـ أنا مع الشيخ صفوك . إياك أن تصافح خورياً أم مسيحياً لأنهم دائماً يأكلون لحم الخنزير وهذا من المحرمات .

وعلق الشيخ صفوك قائلاً :

ـ أنا شممت رائحة لحم الخنزير في الطعام لأنني تذوقته في بيت الياس في بيروت وطعام أم جيسكار كان طعمه غير طعم لحم الخراف فأنا خبير في لحم الخراف .

ونفى بطرس وجود لحم الخنزير في الطعام وقال :

ـ لا أدري إن كانت الأسياخ ملوثة بدهن الخنزير من جراء الشوي وقد بقي عليها بعض آثار الدهن من لحم الخنزير.

تابعوا مسيرهم . وعلق الحجي على الناعورة :

ـ منذ آلاف السنين وهي تدور هكذا لتروي بيوت الفقراء وبساتينهم ويعيش عليها آلاف الأسر الذين يعملون في الزراعة على ضفتي النهر الصغير .

لم يشاهدوا إلا بيوتاً تتكون من طابق واحد . إلا بعض بيوت الإقطاعيين فهي مكونة من طابقين وفي مدخلها توجد مضافة . وبيوت الفقراء يمكن أن تسكنها أكثر من عائلة وجميعهم يشربون من بئر واحدة .

وعندما اجتازوا النهر قال الحجي للشيخ عبد الرحمن :

ـ إعتن بنفسك حتى لا تجفل الحمارة من صوت النواعير وترميك في النهر ، ألا ترى أن التيار سريع في هذه النقطة .

كان هناك جسر ضيق لعبور المشاة والحيوانات . عبروا الجسر ودخلوا نفقاً صغيراً وعندئذ قال الحجي :

ـ عندما كنت صغيراً كنت آتي كثيراً إلى هنا وأسبح في نهر العاصي .

وصلوا إلى ساحة مقهى جلال وتوجه الحجي إلى خانه ، والخان مقفل من البوابة الصغيرة التي يدخل إليها المشاة . وكان السائس أحمد يجلس خلف البوابة يراقب ساحة المدينة ويشاهد بعض دوريات الجنود وهي تتجول في السوق الروماني القديم .

وفوجيء السائس أحمد بالحجي راكباً على حماره . فهو يعرف السائس بطرس عندما كان ينقل رسائل الحجي إلى خان (أبـو جـورج) . والسـائس لا يقـرأ ولا يكتب فالحجي مطمئن لسريّة الرسائل هذه ، وفي تلك الأثناء وصلت جماعة بدو ، ففتح لها الباب وتشاحنت الحمـير ذكـوراً وإناثـاً فهدأهـا السـائس أحمـد بمسـاعدة بطرس حيث ركب بطرس الحمارة وعاد بها على الطريق نفسها . ولحقه السـائس أحمد بعد قليل لكي يوصل الحمارة الثانية إلى خان (أبو جورج) . ووصل الشـيخ صفوك وقال لهم :

ـ شدوا الخيول !

وقال الحجي :

ـ إنتظر يا رجل ساعة نعطيك تفصيلات عن الإنقلاب !

ورد الشيخ صفوك :

ـ أرسل لي هذه التفصيلات فيما بعد . أمـا الآن فعلـي أن أعـود إلى مضـارب عشيرتي ، لقد أصبح الوقت عصراً وعلينا أن نقطع مسافة طويلة على خيولنا حتـى نصل قبل الغروب إلى مضاربنا التي تبعد أكثر من خمسين كيلومتراً . وجـاء مرافقـا الشيخ صفوك وهما إثنان من فرسانه يحملان البنادق .

وغادر الشيخ صفوك المدينة برفقة حراسه وهو يفكر بالبرلمان وأنه ربمـا يصبـح نائباً . والكل يعـرف الحجـي ومـدى حبـه للمـال . لذلـك أغـراه بالمـال وبصفقـة الأسلحة . وعندما اقـتربوا مـن مضـاربهم أخـذت الشـمس تميـل للغـروب تاركـة وشاحاً يتلاشى في الأفق البعيد .

عندما وصل الحجي إلى الخان أمر بتجهيز النارجيلة والشاي ، وأخـذ يمـج مـن دخان النارجيلة بشراهة بينما الشيخ عبد الرحمن يدخن سيكارة . وفي الغرفة الثانية كانت زعيمة الغجر (الحجة نوفة) ومعها بعض الغجر يتحلقن حولها .

وعاد السائس أحمد وأحضر معه قليلاً من البطيخ الأحمر والتين . كانت أكواماً أمام الخان معدة للبيع ولكن بسبب منع التحول لم يبع منها الكثير . وكان بائع البطيخ يقول :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، اليوم لم نبع شيئاً لماذا جاء هذا الإنقلاب .

وعندما يشاهد الجنود يمرون من أمامه ، يلوذ بالصمت .

وأخبر السائس أحمد الجماعة قائلاً :

ـ لقد خرج المعلم عادل من السجن .

والتفت الحجي وسأله :

ـ المعلم عادل خرج من السجن ؟! وهل لحق رجال الإنقلاب ليفعلوا ذلك؟!.

رد السائس أحمد :

ـ لقد أفرجوا عن المعتقلين من جميع الأحزاب سواء من الإشتراكيين أو القوميين أو الإخوان المسلمين . أطلقوا سراحهم بعد أن حلقوا شعورهم .

فكر الحجي :

ـ إذاً ، المعلم عادل سوف يضع على رأسه قبعة .

وضحك الشيخ عبد الرحمن وقال :

ـ في هذه المدينة لا أحد يقبل لبس القبعات .

ورد عليه المختار أبو حميدة :

ـ مرّة رأيت معلماً جاء إلى ثانوية ابن رشد وعلم فيها شهوراً عدة ، وقيل : إنه هو الذي أسس البعث العربي والعربي الإشتراكي والذي صاغ أفكار القومية

العربية ، كان اسمه .. وتوقف لحظة ليتذكر اسم المعلم : الأستاذ زكي الأرسوزي وهو من لواء الإسكندرون كان يأتي إلى مقهى «جلال» كثيراً ويضع على رأسه « قبعة » وكان الأولاد يتجمعون حوله ظانين أنه أجنبي ويتجمع حوله الفلاحون ويتحدثون معه باحترام .

وقال السائس للحجي :

ـ أتى بعض التلاميذ إلى المقهى خلسة يحملون المناشير التي رموها بالخان وهربوا بسرعة ثم جاءت دوريات الجيش بحثاً عنهم وأعتقد أنهم هربوا عبر الأزقة الخلفية .

إقتربت نوفة الغجرية وشيخ الغجر وسلما على الشيخ عبد الرحمن وعلى المختار أبو حميدة وشاركاهم في الجلسة . قالت نوفة :

ـ لا نعرف بعد ماذا عمل رجال الإنقلاب حتى يقتلوا بهذه السرعة ؟ لماذا قتل المارشال وقد عمل الكثير ؟ إنهم يتهمونه بالخيانة ، لقد كبّر المارشال الجيش وأعطى المرأة حريتها .

وضحك الجميع عندما تحدثت الغجرية عن حرية المرأة . وعندئذ قالت :

ـ نحن أحرار الأن ويمكن للمرأة أن تتحكم بالرجل .

وهمس الشيخ عبد الرحمن للحجي :

ـ تصور أن تتحرر نوفة وتتحكم بنا .

وسألها : وبمن تتحكمين ؟

فأردفت :

ـ لأتحكم بشيخ الغجر أو بالحجي وما رأيك أن أتحكم بك .

قال الحجي ضاحكاً :

ـ غداً تخرج النساء من المدينة مكشوفات الرأس وستنشب المعارك بين الرجال والنساء .

وعلق الشيخ عبد الرحمن :

ـ الغطاء عادة تركية جاءت من عصور الإنحطاط حتى تميز المرأة الحرة من الجارية ، في الريف تعمل المرأة في الحقل وتعمل في البيدر ، أما في المدن فهن يجلسن من أجل رجالهن وصنع الطعام لهن .

وتابعت نوفة :

ـ ومن يدري قد يعملن في القضايا العامة وهذا كان رأي المارشال . أنتم لا تعرفون المرأة إلا في الليل .

وأردفت :

ـ ألا تعتقدون أن رئيس وزراء المارشال من عائلة قوية في هذه المدينة وقد لا تسكت على قتله .

وقال شيخ الغجر :

ـ يقولون أن البدوي يأخذ بثأره ولو بعد أربعين سنة . ومن يدري ماذا يعمل أقرباء الدكتور محسن فعائلته قوية في هذه المدينة وقد لا تسكت على قتله وقد أشيع بأن المارشال قتل مع رئيس وزرائه .

وسمعنا أن الجنرال الجديد هو أصلاً من سكان هذه المدينة.

ونظر الشيخ عبد الرحمن في وجه الحجي قائلاً :

ـ ألم أقل لك أنه من هذه المدينة وعليك أن ترسل لأهله بعض الهدايا .

ورد المختار أبو حميدة :

لقد صنعنا في هذه السنة كثيراً من الفريكة ولدينا الخراف وسيرسل لك الشيخ صفوك كثيراً منها وترسلها هدية لوالديه.

وقال الحجي :

ـ علي ألاّ أتعجّل الأمور حتى أعرف من هي عائلته ، وأنا ما زلت أشك أنه من هذه المدينة . فهذه العائلة التي سمعنا أن الجنرال الجديد ينحدر منها إنما توجد في أربعة أماكن مختلفة .

وقال شيخ الغجر :

ـ ومن يدريك ربما قالوا أنهم أهله وهم ليسوا كذلك .

وأشاحت نوفة بيدها وقالت بلا مبالاة .

ـ لا تتعجلوا قد يحدث إنقلاب آخر قبل أن تعرفوا الحقيقة .

ـ كان راديو الحجي معطلاً في ذلك اليوم بينما كان راديو جلال يسمّع الجميع . في حين وضعت مكبرات الصوت في مآذن الجوامع ليسمع الناس البلاغات العسكرية الصادرة عن الإنقلاب .

وقال السائس أحمد :

ـ إذيع بيان يقول فيه أنهم سيعيدون الحريات العامة إلى مجراها الطبيعي وأنهم ألقوا بكل القرارات التي صدرت في عهد المارشال إلى المزبلة .

ونظر الشيخ عبد الرحمن في وجه نوفة قائلاً :

ـ حرية المرأة أكلت هواء . إذا ؟!.

والتفتت نوفة قائلة :

ـ المرأة لا تأكل هواء فكلكم تعرفون دور المرأة وتعرفونني فأنا نوفة شيخة هذه المنطقة .

والمرأة الآن أو غداً سوف تذهب للمدارس وتتعلم . ومن يدري قد تتعلمون أنتم القراءة والكتابة وقد تسبقكم في ذلك. فحتى المختار أبو حميدة لا يعرف القراءة ، والشيخ عبد الرحمن لا يستطيع أن يفك الحرف إلا بصعوبة .

ورد الشيخ عبد الرحمن :

ـ أعوذ با لله من لسانك أسكتي يا إمرأة . لقد حفظت القرآن عن ظهر قلب وأعرف التجويد وأعرف الخط الفارسي والكوفي .

وحسم الحجي الموضوع قائلاً :

ـ دعونا الآن من هذه المناقشات التي لا تفيد شيئاً ، ولنفكر في الأيام القادمة.. إننا نسمع البلاغات التي تصدر ويبدو أن الإنقلاب لم يكن فيه عنف . سمح بالتجول لعدة ساعات حتى يقضي الناس حاجاتهم . وبدا أن الأمور قد استتبت للإنقلابيين .

وصاح المختار :

ـ فرجت ، فرجت يا ناس . يبدو أن هذا الإنقلاب ليس فيه دماء ولا إطلاق نار فمثله مثل الإنقلاب الأول سوف نسمع بعد قليل أخباراً سارة .

كانت الشمس قد مالت للغروب وبدأت الظلمة تزحف. والحراس النشيطون يذهبون إلى الفوانيس ليملؤها بالكاز ويشعلونها . بينما كانت دوريات الجيش تجوب الشوارع التي لفها صمت مطبق إلا من أصوات أحذية الجنود . وراح الحجي يفكر كيف يسعّر الإنتاج وكيف عليه أن يطلق الإشاعات قبل أن يحدد السعر .

وراح الشيخ عبد الرحمن يصلي صلاة المغرب .

وصل البيطار خالد إلى الخان الذي كانت عواطفه مع العربي الإشتراكي . ألقى السلام ورحّب به الحجي كثيراً ثم جلس إلى جانبه ينقل له أخبار المدينة ، ماذا حصل منذ الصباح حتى الآن ؟

لمن ينقل أخبار العربي الإشتراكي بعد أن أطلق سراح المعلم عادل وبقية المعتقلين من كل الأحزاب .

رغم منع التجول قام العربي الإشتراكي بتوزيع المناشير بهمة عالية في الريف منذ الصباح حتى الآن .

وقال البيطار للحجي :

ـ نحن أبناء جيل واحد وأصدقاء وأنا أعمل بيطاراً لدواب الفلاحين في هذا الخان ويجب أن تعرف جيداً أن العربي الإشتراكي وراء هذا الإنقلاب وقد قام بنضال واسع ضد المارشال الذي أعطى الحرية للمرأة ونشر الفساد في المجتمع . وقد أساء إلى استقلال الوطن وقضية فلسطين . هكذا كان رأي البيطار في الجنرال، وقد قتل هو ورئيس وزرائه . صحيح الدكتور محسن من عائلة قوية في هذه المدينة سوف لا تنام على قتله لكنه سيكون حادثاً فردياً لا أكثر ولا أقل .

ونقل للحجي أخبار الفلاحين الذين أتوا إلى المدينة ليبيعوا إنتاجهم من الألبان وقال : إننا أشعرناهم بأن وراء هذا الإنقلاب الحزب العربي الإشتراكي . ولكن يبدو أن الفلاحين هذه المرة غير واثقين بكل ما يحدث .

وعلق أحد الفلاحين قائلاً :

ـ كلما أتت أمة لعنت أختها .

كان الحجي ينفخ في نارجيلة ، وقد خلع طربوشه ووضعه جانباً ، ولف رجلاً على رجل وهو يشرب الشاي ، وكان يستمع إلى البيطار باهتمام .

عواطف البيطار مع العربي الإشتراكي بسبب وجود ابن أخيه الأستاذ عادل في هذا الحزب . وخطرت على بال الحجي فكرة « لم لا يستغل البيطار في الدعاية له » .

وفي هذه الأثناء دخل عليهم النجار الذي كان يجهز أدوات الدراس وقد أنهى القسم الأكبر منها . والحجي يهمه الأن النجار أكثر من البيطار . كان النجار رجلاً متديناً ترك لحيته على طريقة حزب الإخوان المسلمين . جلس بجانب الحجي

بينما دخل البيطار الخان ليتفقد بعض الخيول التي لا تزال موجودة فيه . وتحدث النجار مع الحجي عن الإنقلاب ، وأن حزب الإخوان المسلمين يقوم بعون الله تعالى بنشاط واسع ويوزع المناشير في الجوامع ، وقد اتصلوا برجال الدين والمؤذنين، وأمروهم بأن يدعوا لرجال الإنقلاب ، وإن كان حزب العربي الإشتراكي يدعي أنه خلف هذا الإنقلاب فلا تصدق يا حجي ما يقولونه فإن الله وحده هو علاّم الغيوب وحزب الإخوان المسلمين يقوم بنشاط ظاهر .

وصرخ الحجي بالسائس :

ـ جهز الشاي .

كان الراديو يزعق في مقهى جلال . والأنوار خافتة في الشوارع .

قال الشيخ عبد الرحمن :

ـ علي أن أرتاح قليلاً في الغرفة الثانية .

وصل الحلاق لكي يحلق للمختار أبو حميدة شعره ويشّذب لحية الشيخ عبد الرحمن وذقن الحجي .

جلس بجانب الحجي وراح يتحدث بإسهاب عن حزب الشعب . لأنه كان يحلق لبعض أعضائه فيعطونه أجوراً مضاعفة .

وكان الحجي يتنهد ويقول لنفسه : هؤلاء القوم لا يعرفون شيئاً .

فالحجي يعرف أنه لا يستطيع أن يرفع صوته فوق صوت البيطار أو النجار أو الحلاق لأنه يعرف حدوده فهو غير إقطاعي وإن كان يملك مالاً كثيراً فهو ليس من طبقة البيكوات وليس من طبقة الشيوخ . ولذلك هو أقرب إلى هؤلاء . وسأل الحجي النجار عن الإنتاج في القرى ، قرية قرية . هل انتهى الرجاد في قرية معان ، ومتى يحين موعد الدراس في قرية مريود ، وكيف حالة الأمن في شمال شرق

السلمية ؟ هل الفلاحون مرتاحون للمواسم ؟ وهل الخراف جيدة والماء متوفرة ؟

وتحدث الحلاق عن قرية صوران لأنه كان فيها البارحة . وعن الموسم قائلاً :

ـ لقد زرت المختار هارون وكان هناك إجماع على أن الموسم في هذه السنة جيد، وأن الأمن مستتب ورجال الدرك نشيطون . ويقولون إن بعض رجال الشرطة العسكرية يلبسون اللباس المدني ويذهبون سراً ويجمعون الأخبار وينقلونها « للمرشال » مما سبب خوفاً بين الفلاحين . لأنهم لم يعرفوا اتجاهاتهم السياسية هل هم مع الإشتراكية أم مع الإخوان المسلمين أم مع سعادته ؟

وقال الحجي : كيف إنتاج القمح في قرية كوكب ؟ سعادته زار هذه القرية . ورشاد بك يزور كوكب بين حين وآخر ، ويقول أن العتالة بدؤوا يتجمعون في المحطة . هل بدأ نقل الإنتاج إلى المحطة ؟.

وأجاب أحدهم :

ـ إن وكيلك يقيم في محطة كوكب وطلائع الإنتاج بدأت ترد إلى المحطة ولكن بمعدلات ليست عالية . فرد الحجي :

ـ نحن ما لنا والسياسة والأحزاب ؟ نحن نعمل بالإنتاج فمن واجبنا تقديم التموين للشعب ، وأن نشتري من الفلاحين إنتاجهم ونساعدهم على تأمين حاجيات حياتهم . فنحن واجبنا الوحيد أن نساعد الناس على استمرار الحياة . وحدق إلى وجه البيطار قائلاً :

ـ إن الإشتراكية على حق ، ولقد تحدث الإسلام عن الإشتراكية ونحن مع هذه الإشتراكية وإن دين الله لا يأمر بالظلم إطلاقاً .

ونظر إلى وجه الحلاق الذي ذهب إلى مكتب حزب الشعب وإلى وجه الأخير الذي يزور مكتب الإخوان المسلمين وقال :

ـ علينا أن نقدم كل ما نستطيع لخدمة هذا الشعب والوطن . والسياسة ليس

لها دين في هذا الزمن . فمن يأتي إلى النظام من واجبنا أن نقدم له الضرائب ، ثم توقف قليلاً وبدا كمن يجمع أفكاره وقال :

ـ « نحن لا نعرف ماذا يعنون بالإشتراكية هل لها علاقة بالأراضي والريف فقط، أم أن الإشتراكية تمتد إلى العقارات في المدن ، أم الإشتراكية في السياسة فقط. إذا كانت الإشتراكية في السياسة فنحن إشتراكيون » .

إذا لم تمس مصلحة الإنسان فنحن موافقون على اتجاه الحكومة . والحكومة عليها أن تؤمن مصالح الناس جميعاً ، وإذا كانت مصالحهم مؤمنة فنحن معها على ألا تقيدنا . وفي هذه الأيام ازداد الغلاء . ولا نستطيع أن نشتري من الفلاحين كل إنتاجهم إلا إذا خفضنا الأسعار . ما رأي البيطار في هذا الكلام ؟.

ورد البيطار :

ـ أنت يا حجي تعرف مصلحتك في السوق أكثر منا جميعاً . أنك رجل السوق الآن .

وساد الصمت على الجميع وكانت مفاجأتهم كبيرة بهذه الأسئلة لأن الحجي لم يناقشهم بمثل هذه المواضيع من قبل .

قال شيخ الغجر :

ـ الله يكون بعون الفلاحين .

ونظر الحجي في وجوههم جميعاً وقال :

ـ التجارة ربح وخسارة ولا ندري متى نربح ومتى نخسر ولكني أشعر بأننا سنخسر في هذه السنة الكثير لأنه يوجد كساد في السوق . فإذا أردت أن أشتري من الفلاحين محصولهم فستكون هذه مغامرة لأنني سوف أخزن كل ما أشتريه لوقت آخر وأشحنه إلى بيروت وهناك يجري التخزين وعلينا أن نحدد الأسعار لكي لا تكون الخسائر كبيرة ؟.

وبدأ النقاش حول تحديد الأسعار .

واتفق الحجي ليلاً مع أبي جورج على تخفيض أسعار القمح إلى الثلث تقريباً والشعير إلى النصف أما العدس فلا يوجد له سوق فأوروبا يوجد فيها عدس كثير، وبقي كلامهم سراً حتى يتصرف الحجي وأيده أبو جورج .

لم يذكر الحجي يوماً أنه دين بالفائدة وكان يقول : « لقد اشترى الفلاحون فترتبت عليهم ديون كثيرة ، هل يستطيع الفلاحون أن يسددوا ديونهم أولاً ؟ في الماضي رفع أجور الحصاد واشترط على كل مبلغ خمسمائة ليرة أن يشتري الفلاح شوالاً من القمح بخمسمائة ليرة ثانية وبذلك قد وضع على الفلاح ديناً نقداً كما يقول هو قرضة الله حسنة . فأصبح المبلغ ألف ليرة سورية » وهذا شرط المتعاقدين .

ويقول الحجي : أنا لا أبيع الجمل إلا ومعه « حداجته » ، فالحداجة بسعر الجمل والذي يريد أن يشتري ليشتر الجمل وحداجته معاً . وهذا شرط المتعاقدين لا يعتبر ذلك أمام الله ربا ، بل هو شكل من أشكال الدين . والمفتي لم يتدخل في هذه الأعمال طالما أنها تتم عن تراض بين البائع والمشتري .

كان الحجي يمهد لما يريده من رفع الأسعار لأنه يعلم أن المختار أبو حميدة والشيخ عبد الرحمن وحتى الغجر سينقلون ما يسمعون وسيتحدثون عن السوق وعن الأسعار . وعندما يسألونهم من أين هذه الأخبار ؟ يقولون نحن سمعناها من فلان ... لأنه لا يريد أن يعرف أحد بأنهم سمعوا ذلك من الحجي شخصياً . وكل واحد منهم يجب أن يقول : هكذا سمعنا في المدينة .

واستدعى الحجي صاحب مقهى جلال ، وهو المكان الذي يتجمع فيه الفلاحون وغيرهم وحدثه عن الأسعار وكساد السوق . كان يعرف عواطف جلال أنها مع العربي الإشتراكي فهمس في أذنه :

ـ إن جماعتكم في الحزب استلموها اليوم . وفرح جلال بهذا القول لقد أثنى الحجي على قيادة العربي الإشتراكي وأكد أنهم وراء هذا الإنقلاب . فنقل جلال حديث الحجي حول الأسعار وكساد السوق والأمور العامة التي تدور بين الفلاحين . و لم يعلق على الإنقلاب .

كان سرور جلال كبيراً عندما أخبره الحجي بأنه سيأتي بالقهوة والشاي من مقهاه !... فمقهى جلال يعتبر في هذه المنطقة فندقاً للفلاحين ومطعماً لهم . وهو مكان سمر يسمعون فيه الإسطوانات والأغاني لنجاح سلام أو لصباح أو لأم كلثوم وأحياناً يعلق أحد البدو الجالسين :

ـ أبدلوا هذه الأغنية ، ولنسمع أغنية غجرية .

ويبتسم صاحب المقهى قائلاً .

ـ سوف نعمل على ذلك . إنتظر قليلاً . عليك أن تسمع الآن ما تقدمه لنا الإذاعة .

لا توجد بلاغات كثيرة وسمح بالتحول لعدة ساعات ويبدو أن الحياة كما قال الراديو وكما قال الجيش هادئة لا يوجد ما يعكّر الأمن والناس هادئون . وحذر من التجمعات في الشوارع والساحات العامة لأكثر من خمسة أشخاص ، فليست هناك أية مشكلة ، ولكن الناس حزنوا على مقتل الدكتور محسن الذي قتل مع المارشال . وارتأى الحجي أن يذهبا وجلال إلى بيت الدكتور محسن لتعزية عائلته .

وقال الحجي :

ـ أنت تعرف يا جلال أن علينا أن نستوضح الأمور أكثر. وسنقوم بعملنا سراً لأن رجال الشرطة يحاصرون منزل عائلة الدكتور محسن .

أذن الشيخ لصلاة العشاء . فنهض الشيخ عبد الرحمن إلى الصلاة وصلى خلفه

المختار بينما تذرع الحجي بأنه لم يتوضأ، وظل يدخن نرجيلته . وبعد الصلاة نام المختار أبو حميدة والشيخ عبد الرحمن وشيخ الغجر والغجرية في الخان ، وذهب بقية الرجال إلى المقهى ، بينما مضى الحجي إلى بيته القريب من الخان .

وصل الحجي إلى بيته ، فاستقبلته زوجته وقالت له معاتبة:

ـ لماذا لا تأتي فوراً إلى البيت يا رجل ؟ ألم تتعب من كثرة أعمالك ؟.

ورد الحجي :

ـ لو تعرفي يا إمرأة ماذا يحدث .

خلع طربوشه وسترته وحذاءه وجرابه وقام يتوضأ . فقالت له زوجته :

ـ الحمام ساخن إذا أردت أن تستحم فقد جهزت الحمام لك .

ودخل ليستحم ودخلت وراءه زوجته لتفرك له ظهره وسألته :

ـ إنك متسخ . ألا يوجد حمام هناك في العاصمة ؟

ورد عليها :

ـ لعنة الله على تلك الخانات . هناك خانات في الميدان لا توجد فيها حمامات.

ولاح الحجي برأسه وقال :

ـ لا تسرفي كثيراً من المياه ، تسخنين المياه على الكاز وأنت تعرفين أنه يمكنني أن أستحم في مياه باردة فالجو حار في شهر آب . كذلك فإنك تغسلين ثياب الأولاد أكثر مما يجب وهذا يجعل الثياب تهترىء بسرعة . إننا قادمون على أيام صعبة يا إمرأة . فعليك بالتقنين والتدبير .

وبعد خروجه من الحمام أخذ يسأل أولاده محتجاً :

ـ لماذا تأكلون كثيراً لقد أصبحتم بدينين كالقطط .

وجلس ابنه الكبير وقال له :

ـ لقد ذهبت إلى العربي الإشتراكي كما أمرتني ، ورحبوا بي وسوف نوزع المناشير .

وأيد الحجي فكرته . والتفت إلى ابنه الثاني وقال :

ـ إلى أين ذهبت اليوم في النهار .

ورد عليه ابنه :

ـ لقد ذهبت إلى حزب الإخوان المسلمين واستمعت إلى نصائح دينية وإرشادات . وأعطونا بعض المناشير وقالوا لنا إنهم هم الذين قاموا بهذا الإنقلاب وإن الله ساعدهم في ذلك.

لقد وزع الحجي أولاده على جميع الأحزاب التي تنشط في الساحة السياسية .

من عادة الحجي ألا يناقش زوجته إلا في مشاكل البيت والطبخ . خيفة أن تعرف شيئاً وتخلق له بعض المتاعب . وحتى مصاريف البيت كان يقررها يومياً فيحدد لها مصروفها اليومي ونوع الطعام الذي يجب أن تصنعه . حتىلباس الأولاد كان يقرره بنفسه من ثياب وأحذية وألبسة داخلية . فمصاريف البيت دقيقة بالنسبة للحجي على مدى كل أيام السنة وكان يقول لزوجته : (إن الله لا يحب المسرفين وإن الله لا يحب المبذرين) .

لا يملك الحجي سيارة وليس لديه خيول ليركبها . فقط لديه بغلة في الخان وفرس يركبها أحياناً عند خروجه من المدينة أو لاستقبال رشاد بك أو أحد الاقطاعيين . ويقول يجب أن نبيعها تكفي البغال والحمير لسهولة ركوبها . وكم من مرة تذمرت امرأته من الحياة التي تحياها ومن أسلوبه في التدقيق بكل صغيرة وكبيرة ومن بخله الشديد عليها وعلى أولادها .

كانت خياطة ماهرة وعندها آلة خياطة تخيط بها قمصان وبيجامات

وجلابيات أولادها . وأحذيتهم غالباً ما يضعون لها نصف نعل أو يرقعونها عند الإسكافي . هكذا يجب أن يتعلموا جميعاً أن القرش لا يأتي إلا بعرق الجبين . وعليهم أن يقدروا قيمة كل قرش يصرفونه ، وكيف يأتي هذا القرش ، وكيف ينفق ، ولماذا يذهب من جيوبهم ، كان هذا درس يومي وأسبوعي يلقيه الحجي على جميع أفراد عائلته .

عاد الحجي بذاكرته بتجارته في بيروت والصفقات التي عقدها مع الياس واجتماعه مع سيادته في البيت وماذا قال له سعادته بأنه قد يكون وراء الإنقلاب وربما يعود إلى مكانته السابقة نفسها ، وتذكر بلاغات الإنقلاب ، كل همه منصباً على تحديد الأسعار في الصباح الباكر . وغفا وهو يحلم بانخفاض الأسعار ويستثمر هذه الفوضى قبل أن تهدأ الأمور ويضع الناس في المدينة أسعاره أمام الواقع ، لذلك يتوجب عليه أن يذهب إلى الجامع باكراً ليلتقي أصحاب الخانات ، حيث يتداولون في الأسعار والتوريد إلى الخارج .

شغلته أفكاره عن كل شيء حتى عن زوجته التي بجانبه فلم يعرها انتباهاً وغرق في نوم عميق وهو يحسب ويزيد وينقص من الأسعار ويضربها ويخرجها ويجمعها .

واستيقظ على صوت آذان الفجر . نهض مسرعاً توضأ ، ولبس جلبابه ، وأسرع إلى الجامع بعد أن وضع سترته على كتفيه وطربوشه على رأسه . دخل الجامع وخلع حذاءه ، ووضعه عند بابه وهو يتمتم (لا إله إلا الله . الله أكبر) وألقى السلام على المجتمعين ، وسلم على بعض أصحاب الخانات الذين وصلوا قبله . وبعد أن صلوا وراء إمام الجامع ، جلسوا يقرؤون الفاتحة . اجتمعوا في صالون الجامع في غرفة الإمام وتحلق حوله أصحاب الخانات وبدؤوا يتناقشون في

أمور التجارة ، فالجامع ليس مكاناً لصلاة أصحاب الخانات وحسب وإنما أيضاً لمناقشة الأمور العامة ، وكانوا يتناقشون في قضية الإنقلاب وإنه سمح بالتحول من الساعة السادسة صباحاً حتى الثانية عشرة وانتظروا الوقت لتصبح الساعة السادسة، ليذهبوا مرة ثانية ويفتحوا خاناتهم باكراً . فقد بدأ نقاشهم حول من هم هؤلاء الذين قاموا بالإنقلاب ؟ ومن هو الجنرال الجديد ومن هي عائلته ، يوجد في مدينة حماه اسم عائلة باسم عائلة الجنرال فهل هو من هذه العائلة ؟ إذا كان من هذه العائلة عليهم أن يغيروا نظرتهم إليها وعليهم أن يرسلوا إليها بعض الهدايا تكريماً لرجل الإنقلاب ولكن لأنهم يكنون تقديراً واحتراماً للدكتور محسن وعائلته الذي كان رئيس مجلس الوزراء في السابق فقد نصح الحجي بأن يقدموا الهدايا بسرية تامة وفي طي الكتمان إذا كان هذا الجنرال من هذه العائلة حقاً . أما إذا لم يكن فتوضع هذه العائلة موضع الإحترام إلى حين التعرف على مدى قرابتهم منه .

وقال الحجي :

ـ لقد مررت في لبنان واتصلت بالياس مدير بنك سورية ولبنان . والجميع يعرفون الياس .

الكساد في الأسواق يطال جميع المواد والتجار هناك لا يرغبون في شراء الحبوب . وأوربا كذلك لا ترغب في شراء الحبوب وعلينا أن نشتريها من الفلاحين ونسترد الديون التي أقرضناها إليهم . وسوف نكدسها في عربات القطار أو في عنابر الخانات بشكل سائب دون أن نضعها في أكياس حتى الشتاء القادم ليجري تصديرها أو لترتفع أسعارها وبعدها يمكن أن نصدرها .

الحجي خبير في الأمور المتعلقة بتخزين الحبوب وكثيراً ما كان يخزن القمح في

الريف تحت الأرض في (الآبار) . يسقطها في البئر ويرمي فوقها قليلاً من التبن حتى تكون حواف البئر من التبن ويكون القمح بمعزل عن الرطوبة وعندما يخرجه يعاد تنظيفه ثانية ويعزل عنه التبن وتعبأ الحبوب بعد ذلك في الشوالات ويتم نقلها إلى محطة القطار .

لقد خاف أصحاب الخانات من كلام الحجي بأن أوربا لا ترغب في شراء القمح وأن هناك كساداً ولذلك عليهم أن يتخذوا احتياطاتهم .

قال أحدهم :

ـ ما رأيك أن نخفض الأسعار لأن أكثرنا ليس لديه عنابر وما ذنبنا أن نشتري مئات الأطنان من القمح وتكسد

ورد الحجي :

ـ ولكن لماذا أشتري أنا مئة ألف طن من القمح أو خمسين ألف طن من القمح والشعير والحبوب وأخسر بها ويخرب بيتي ؟

ووافق جميع أصحاب الخانات على آراء الحجي فحدد سعر القمح وسعر الشعير وسعر العدس وسعر الجلبان وحتى تبن العدس والجلبان الذي يحتاجون إليه في الأسواق علفاً للمواشي والحيوانات . كما حددوا سعر الجلود وسعر اللحوم وسعر الأجبان الآتية من منطقة الغاب . وحرّض الحجي أصحاب الخانات ألا يشتروا من (أبي جريش) الخنازير إطلاقاً . لأنه كان يريد أن يحصر هذه التجارة فيه . وأيد أصحاب الخانات في هذه الفكرة . كانت غالبية أصحاب الخانات لا يملكون مخازن لتخزين الحبوب وعندما يقومون بشراء الحبوب سيضطرون لتخزينها في مخازن الحجي .

وعلق أحدهم :

ـ الحجي يريد أن يشركنا معه وأمرنا لله فهو صديقنا . وعلى كل حال يا

حجي أنت أكبر منا سناً والذي أكبر منا بيوم يكون أعرف منا بسنة ولك علاقات في بيروت وزرت باريس مع رشاد بك وتعرف أمور التجارة وأنت لم تغشنا أبداً... فقاطعهم الحجي : أعوذ با لله . أنا أسعى لمصلحتكم ومصلحة الفلاحين . وقانا ا لله شر الغش . ولكن عليكم بتخفيض الأسعار لأن الدولة بحالة انقلاب ورجال الإنقلاب لم يفصحوا عن هويتهم بعد . لا ندري قد يتحدثون عن الإشتراكية ولا يطبقونها والناس تخاف عندما يتحدثون عن الإشتراكية . هذه الإشتراكية تقلق أصحاب الخانات وشيوخ الدين والإقطاعيين ؟.

وعلق أحدهم قائلاً :

ـ سمعنا أن ابنك ذهب إلى العربي الإشتراكي .

ورد الحجي :

ـ هو حر . وعليكم أنتم أن تعطوا أبناءكم الحرية . فإذا ذهب ابني إلى العربي الإشتراكي فعلينا أن نستفيد من وجوده هناك لكي تصبح الإشتراكية لصالحنا وبعونه تكون لصالحنا نحن أصحاب الخانات .

وعلق آخر :

ـ لم يمض على الإنقلاب السابق سوى بضعة أشهر حتى يحصل إنقلاب جديد. والإنقلاب الماضي لم يحقق شيئاً سوى أنه حرض النساء على الرجال . وضحكوا جميعاً آه ـ حرية المرأة حرية أم صطيف ـ تصور زوجتك تأخذ حريتها وهي خارجة من الباب مكشوفة الرأس ؟ آخر زمن . وضحكوا !

قال أحدهم ضاحكاً :

ـ قال المارشال أنه يريد أن يحرر فلسطين . ووضع قانون الخدمة الإلزامية على كل الشباب وهذا مفيد للوطن ليتعلم الناس الرجولة . المارشال وضع أشياء جيدة

ولكن سلبياته كثيرة والإتفاقيات التي وقعها لا يدري غير الله ما هي خلفيتها . ونحن نريد من هذا العهد أن يحسن أحوالنا المالية .

ورد الحجي :

ـ المشكلة الآن هي مشكلة الإنتاج ، الموسم على البيادر وعلينا أن نحدد كل شيء خلال ٢٤ ساعة قبل أن تحدد الحكومة الأسعار .

كان النقاش يدور بحضور إمام الجامع الكبير فتدخل بالحديث قائلاً :

ـ علينا أن نكافح الإشتراكية وأن نكافح الإشتركيين في هذه المدينة . ونحن عبر التاريخ مع العائلات الفقيرة نقدم لها الزكاة ونبني لها الجوامع ، ولقد أتى هؤلاء وهم جماعة من الرعاة والفلاحين . فمتى كان الفلاحون يقررون مصير الجوامع ومصير الإسلام ومصير الدولة . الفلاحون أغلبهم أميون لا يعرفون شيئاً .

وعلق الحجي قائلاً :

ـ صحيح كلام الشيخ . ولكن الدنيا مصالح أيضاً . وعلينا أن نقف وراء مصالحنا وألا نغمض أعيننا حتى لا نقع في مطبات . نحن لا تهمنا الأحزاب كثيراً ولكن تهمنا أن تسير تجارتنا بشكل صحيح . ثم استدرك كمن يتذكر شيئاً ، آه لقد كنت البارحة في العاصمة وأحضرت عباءة هدية للإمام. ثم انسل من باب الجامع وعاد بعد قليل ليقدم العباءة للإمام . فشكره الإمام وقرأ الفاتحة ودعا بأن يوفقهم الله ويساعدهم ويحسن من أوضاعهم ويزيد من ثرواتهم .

تسربت أنباء الأسعار بين الناس بسرعة كبيرة من أصحاب الخانات الذين كانوا مجتمعين فقد نقلها هؤلاء في أحاديثهم مع الفلاحين القادمين إلى المدينة لقضاء بعض الحاجيات . وانتشرت أخبار الأسعار في اليوم نفسه في محافظة حماة ووصلت إلى ريف سورية بكامله . الدولة باتت عاجزة أمام هذه الظاهرة ، فهي

توافق على الأسعار القائمة ولا تتدخل في شؤون الفلاحين وشؤون أصحاب الخانات .

ذهب الحجي إلى خانه وقام السائس أحمد يتجهيز النارجيلة والقهوة الصباحية للحجي . وكان قد تحلق حول منقل القهوة المرة المختار أبو حميدة والشيخ عبد الرحمن والحاجة نوفة وشيخ الغجر .

ألقى الحجي السلام عليهم ... ، كان الطقس حاراً وقد أصبحت حركة الناس في السوق مسرعة ومرتبكة بعد أن سمح بالتجول لعدة ساعات لقضاء الحاجات الهامة. وكان راديو مقهى جلال يصرخ بصوت عال ويردد بلاغات القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة حول الإنقلاب الجديد ، المليئة بالوعود الجديدة . ويتحدث عن مساوىء العهد البائد وغراميات المارشال وفضائحه ولعبه بالقمار في بيت جيهان وشهناز ودور البغاء . كانوا يذيعونها علناً في الراديو ويتحدثون عن الإتفاقيات وكيف ألغوا كل ما وقعه المارشال ووعدوا بإعطاء الشعب الحرية والديمقراطية ، الراديو يصرخ طوال هذا الوقت وينذر الذين يعبثون بالأمن أو الذين يحملون أسلحة بأقصى العقوبة كما منعت التجمعات لأكثر من خمسة أشخاص .

أحضر السائس الفطور بسرعة من مقهى جلال . فقال الحجي للمختار أبو حميدة والشيخ عبد الرحمن :

ـ لماذا لم تأتوا إلى الصلاة في الجامع ، والجامع بجانب الخان ؟!

ورد الشيخ عبد الرحمن :

ـ المياه كانت مقطوعة في الخان و لم أجد ماء . وقد تأخرنا فصليت هنا في الخان أنا والمختار أبو حميدة وشيخ الغجر .

وقال لهم الحجي :

ـ كان هناك لقاء بين المصلين وتحدثنا خلاله عن طبيعة هذا الإنقلاب وقد أخبرتهم أن سعادته قادم لا محالة ولكن يمكن لبقية الأحزاب أن تشارك في الحكم . وقد قررت مع أصحاب الخانات الأسعار أو الأصح أنهم قرروا الأسعار وأنا وافقت عليها .

وأخذ الحجي يعيد سرد أسعار المواد كما تقررت .

وفوجىء المختار أبو حميدة بهذه الأسعار فقال :

ـ يا حجي هذه الأسعار غير معقولة ماذا يقول لنا الفلاحون عنها ؟ إن هذه الأسعار لا تتفق مع جهود الفلاحين ، فالفلاح الذي يعمل اثني عشر شهراً في السنة وفي آخر الموسم يسلم كل إنتاجه لك ، حتى التبن ، ولا يستطيع أن يوفيك دينك ، سيكون في مأزق كبير .!.!

ورد الحجي :

ما شأني أنا بذلك هم حددوا الأسعار والحكومة ستكون موافقة عليها .

وقال الشيخ عبد الرحمن :

ـ الله لا يقبل بهذا الشيء . هذا حرام . الفلاح يتعب ١٢ شهراً ولا يستطيع في النهاية أن يؤمن قوته وقوت عياله لفصل الشتاء وحده .

ورد الحجي :

ـ وما ذنبي أنا ؟ والله عملت كل جهدي حتى أرفع الأسعار . ولكن أصحاب الخانات والتجار عرفوا أن هناك كساداً في السوق ولا أحد يريد أن يشتري ، وقالوا : إنهم يحاولون أن يساعدوا الفلاحين . وسوف يخزنون هذه الحبوب حتى تتحسن الأسعار فلا يخسرون أموالهم . ومن يدري قد نخسر في هذه السنة وهل تريد أن يخرب بيتي يا شيخ عبد الرحمن وأنت صديقي ؟ الحكومة

نفسها موافقة على الأسعار المحددة ، فهل أنتم أرأف من الحكومة على الناس وهم شعبها؟

رد شيخ الغجر بغضب وعفوية :

ـ وأي حكومة هذه ؟

أجاب الحجي ناظراً في وجه شيخ الغجر :

ـ أنت تعرف في دق الدربكة ونقر العود ، وهز الخصر ، أنت لا تعرف في الأسعار وغير الأسعار كل شخص يشتغل في مهنته أكثر من غيره . أنا لا أعرف دق الدربكة ولكني أستمع إليها ولا أعرف نقر العود أو غناء العتابا . ولكن أنت تدق العود والدربكة ونحن نسمع ونتفرج دون أن نتدخل في فنك فلا تتدخل في تجارتنا . ولو اشتغل كل منا في شغلته لارتاح وأراح غيره ...

ولكن شيخ الغجر لاذ بالصمت فما شأنه هو في رفع الأسعار ؟ فشيخ الغجر لا يتدخل عادة في شؤون الحجي ولا الإقطاعيين أو حتى الفلاحين . لكن هذه الأسعار المنخفضة مجحفة حقاً .

أخذ الحجي نفساً من نرجيلته وصمت وتركهم يتناقشون حول الأسعار لأن أحاديثهم ونقاشاتهم لا تهمه بشيء فهو يعرف بالمحصلة أن حديثهم لا يتعدى أن يكون فقاعة صابون أو زبداً في بحر . كل همه ما أطلقه في الجامع وسوف ينشر هذا الخبر بين الفلاحين وعند الظهر ستكون أسعاره حقيقة قائمة ، في السوق وأمام الدولة فالدولة تؤيد هذه الأسعار كأمر واقع ، وهي لا تتدخل في شؤون تحديد الأسعار سواء تخفيضها أو رفعها ، فهذا من شأن التجار وحدهم ولا علاقة للحكومة بذلك . ولقد حاول المارشال أن يقلص من استغلال التجار ولكنه قتل الآن وذهب .

وقال الشيخ عبد الرحمن للحجي :

ـ اليوم سنخرج إلى القرى ، وسأذهب إلى قرية صوران وهناك الشيخ سعدو. ماذا نقول له عندما يأتي إلى قرية صوران سوف يهز برأسه ويسألني أكنت في فندق الأهرام ؟ وهل زرت ملهى الكروان ؟ هذه عادته كأنه يريد أن يشعرني بأنه عرف أنني ذهبت للملهى والفندق .

وكان الحجي يدخن ويسمع للشيخ عبد الرحمن . فالتفت إليه من زاوية عينه قائلاً :

ـ قل للشيخ سعدو أن يصمت أو أعيده إلى القرية التي أتى منها . وسوف يعود فلاحاً . وأنت تعرف الشيخ سعدو عنده أولاد ويريد تأمين أكلهم وكسوتهم. ومن واجبه أن يجمع الزكاة في القرية فقط .

ورد الشيخ عبد الرحمن :

ـ ماذا نقول للشيخ سعدو أيضاً عندما يسمع الأخبار ؟ سوف يقول للفلاحين عندما يجتمعون لصلاة يوم الجمعة وفي سهرات القرية أن الدنيا انقلبت واقتربت الساعة . هذه الأسعار هي من صنع أصحاب الخانات .

فرد الحجي قائلاً :

ـ خذ له هدية من عندي وقل له أرسلها لك الحجي فادع له بين الفلاحين .

وبدأ الشيخ عبد الرحمن يتكلم بصوت منخفض حتى لا يسمع المختار أبو حميدة :

ـ ربما سعادته لا يوافق على الأسعار فقد يحصل تذمر بين الفلاحين .

فنظر الحجي بوجه الشيخ عبد الرحمن وقال :

ـ وهل يهتم سعادته برفع الأسعار ؟ اليوم وقع انقلاب جديد وقد يكون هو خلف هذا الإنقلاب . وقد سألته عن ذلك فقال لي : تصرف أنت ، تصرف

بحكمتك ؟ ومن الذي قال لك أنه لا يوافق على الأسعار ؟ أنت تتكهن بأن الفلاحين سوف يتذمرون ولكن ليعرفوا جيداً أن أي فلاح يتذمر يعتبر ضد الإنقلاب ويعاقب عقوبة شديدة .

فقال الشيخ عبد الرحمن :

ـ قد يحرض العربي الإشتراكي الفلاحين على الإحتجاج وتخفيض الأسعار وسوف يخلقون لك متاعب كثيرة في الإستيراد والتصدير .

ورد الحجي :

ـ العربي الإشتراكي !!! أنتم تريدون أن تقلقوا رأسي بالعربي الإشتراكي . سوف يأتي يوم وأصبح فيه عضواً في قيادته ؟ . لقد نصحتني أن أرسل الولد إلى العربي الإشتراكي فأرسلناه .

وماذا يريد منا العربي الإشتراكي أكثر من ذلك ؟ . في النهاية عندما نرى مصلحتنا ومصلحة الناس مع العربي الإشتراكي سنذهب إليه جميعاً . وهل يستطيع الذين ذهبوا إلى العربي الإشتراكي أن يضحكوا على لحية الحجي ..؟! فلحية الحجي يا شيخ عبد الرحمن لا يستطيع أحد أن يضحك عليها إذ عندما أجد الوقت المناسب والمصلحة المناسبة والحزب المسيطر الذي يحدد كل شيء ستجد الحجي معه يحدد الأسعار والإنتاج وكل شيء حتى علاقات الرجال بالنساء . وسوف تجد هذا الخان الكبير وإحدى هذه الغرف مقراً لنشاط العربي الإشتراكي نفسه ، وستجد الفلاحين يأتون جماعات جماعات ليستمعوا إلى الأستاذ عادل عندي . إذا، ما شأني أنا في تحديد الأسعار إذا كان أصحاب المصالح والخانات هم الذين حددوا الأسعار في الجامع واكتفوا بأن طلبوا رأيي ، واكتفيت بأن هززت لهم رأسي موافقاً .

وأردف الشيخ عبد الرحمن :

ـ لنتوكل على الله في هذا الصباح .

بدأ الفلاحون يفدون إلى الخان بإنتاجهم ومواردهم .

عندما بدأت تدب الحركة في الشوارع . كان أحد التلاميذ يوزع مناشير العربي الإشتراكي . وظن البعض بأنه من تلاميذ الإخوان المسلمين .

علق الحجي قائلاً :

ـ لو وفروا ثمن المناشير لكان خيراً لهم . ثمن كل نشرة يشتري فطوراً لشخص من الأشخاص .

وراح المجنون في ساحة المدينة يحمل عصاه وينادي باعوها... باعوها . وقد وصلت هذه الكلمات إلى مسامع المختار إبو حميدة وظن أنه يوجه الكلام له عندما خطّب ابنته إلى المختار سحيم وأشاع الفلاحون أنه باع ابنته .

وأما الحجي فقد ظن كلمة باعوها أنهم باعوا السلطة فكل يوم حكومة جديدة .

وأما الشيخ عبد الرحمن فقد تذكر كلام الشيخ سعدو وهو يقول : لقد باعوا فلسطين وقضية فلسطين هي التي تقلقهم جميعاً ، وتضرب بين حين وآخر على دماغهم . كلمات المجنون هذه كانت تضرب في أذن كل عابر وهو يركض ويقول: باعوها .... باعوها ..

جاء المفتي على عربة تجرها الخيول التي توقفت أمام باب الخان ونزل منها . رحب الحجي بقدوم المفتي وقال للسائس :

ـ هات النرجيلة والشاي العراقي لشيخنا المفتي .

كان الحجي يهتم كثيراً بالمفتي :

خلع المفتي لفّته البيضاء عن رأسه وانسحب شيخ الغجر والغجرية نوفة وهي تقول للمفتي :

ـ أدع لنا أن يوفقنا الله في عملنا وأن يثبت عقولنا وتكون صحتنا جيدة .

خرجت من باب الخان راكبة على حمارها .

أمال المفتي رأسه إلى الحجي هامساً في أذنه :

ـ هل سمعت ماذا أذاع « الراديو » ؟

فسأله الحجي كمن يستفسر عن أمر مريب .

ـ وماذا أذاع ؟

فقال المفتي :

ـ أن الجيش شكّل حكومة جديدة .

نظر الحجي بوجه المفتي مستفسراً باستغراب ؟

ـ لكل ساعة يا سيدي حساب أرجو ألا تتعجل الأمور .

وتابع المفتي :

ـ حتى زعيم البعثيين أخذ وزارة المعارف ليربي التلاميذ على طريقته . وأتوا بحزب الشعب والإخوان المسلمين وأتى الجيش بكل الأحزاب ودفعهم إلى هذه الحكومة .

وقال الحجي :

ـ حكومة مثل كشكول الغجر يضعون كل ما يشحذونه في هذا الكشكول . وهذه الوزارة مثل خان أبو جريج . الجواميس مع الأبقار مع الخنازير مع البغال ، مع الأغنام .

وضحك المفتي مداعباً الحجي :

ـ الحجي يفهم كل شيء على الطاير ؟

كان الحجي يرد بصوت منخفض عندما كان المفتي يحدثه عن الوزارة الجديدة

لكنه عندما أخذ يحدثه عن الأسعار ودور وزير الزراعة فيها ، إذ قد يتدخل في شؤون الفلاحين ، رفع صوته قائلاً :

ـ يا شيخنا قلت لك : إن لكل ساعة حساباً وما يدريك ماذا يحل بهذه الأحزاب بعد حين ؟

أنت تقول : إن العربي الإشتراكي سوف يقف مع الفلاحين وسوف يتذمر الفلاحون من هذه الأسعار ؟ إنني أرجوك يا شيخي في هذه الفترة لا تتحمس كثيراً لأي شيء ، أن الظروف متغيرة ومتبدلة فاليوم العربي الإشتراكي وغداً الإخوان المسلمون وبعد غد حزب الشعب ثم تعود الدولة ثانية لا ندري من هو الذي صمد في رأس هذه الرابية لأن العاصفة قوية ونحن نجلس في الأسفل والحياة تجري إلينا وكل الخيرات تبقى عندنا في هذا الخان فمن يريد أن يبقى ، عليه أن يصمد لمقاومة الريح .

أما الأمطار والجداول وخيراتها فهي تأتي إلينا . ألم تسمع الأرض الواطئة تشرب ماءها وماء غيرها ونحن دائماً نجلس في الأرض الوطئة ولا نريد الصعود إلى قمم الجبال ولذلك كل الخيرات سوف تأتي إلى هذا الخان ، إطمئن يا شيخي ولا تقلق . واشرب الشاي . ما رأيك بفطور يعجبك ؟

فرد المفتي :

ـ لقد أقلقتني هذه الوزارة لا أتمنى أن أرى العربي الإشتراكي في وزارة الزراعة ولا البعث العربي في وزارة المعارف لأن تربية التلاميذ على أيديهم خطيرة . علينا أن نكافح هؤلاء لأنهم يحرضون الناس .

أمسك الحجي المفتي من يده وقال له :

ـ إطمئن ما دمنا نحن في هذا الخان فلن يوجد من يؤثر على الجامع إطلاقاً .

المطران يطرق الأحراس في القسم الغربي ونحن نؤذن في القسم الشرقي . ونحن متفقون على كل شيء لا توجد خلافات حول الأسعار . أنت تعرف أنني لست المسؤول عن تحديدها . يحددها أصحاب الخانات وتوجد آلاف الخانات في سورية. أنا لا أتحمل مسؤولية رفع الأسعار وحدي . وأكون هدفاً في هذه المدينة التي تتصارع فيها كل الأحزاب . كل منهم يريد أن يكسب أكبر عدد من الناس وكل الناس من فقراء وعمال وفلاحين . ومن واجبي أن أمولهم ولكن هل أضيع مالي هدراً دون أن تعود علي بفائدة ؟. هذه تجارة يا شيخنا . وهذه الأحزاب التي تتصارع لكسب الفقراء لا جدوى منها . هل يتصارعون على الحجي هل أتى أحدهم يقنعني بحزبه ؟ لم يأت أحد إلي لأنه لدي قناعة بأنهم جميعاً خير وبركة ، أنا لست معترضاً على أي اتجاه من اتجاهاتهم ، شريطة أن أكون سيد خاني وأعمالي .

نادى الحجي السائس . وقال للمفتي :

ـ هناك يا شيخنا صندوق من التين الإدلبي وسحارة عنب وأربع بطيخات سأرسلهما إلى بيتكم .

وشكر المفتي الحجي على هذه الهدية . وأخذا يدخنان من النرجيلتين ويتبادلان النظرات الصامتة .

دخلت غجرية وصرخت بالسائس أحمد :

ـ أين الحجة نوفة ألم أقل لك البارحة أن تقول لها أن تنتظرني ؟ لماذا لم تقل لها يا قليل الأدب ، أنت سائس أنت ؟ في هذا الخان لا يوجد إلا الحيوانات .

ونهض السائس إليها وقال :

ـ أخفضي صوتك لأن المفتي والشيخ عبد الرحمن والمخاتير موجودون عند الحجي .

قالت :

ـ ولماذا يجتمعون ؟ لكي أرقص لهم ويعطوني المال ؟! لن أرقص في هذا الخان طالما أنه لا يوجد فيه سوى الحيوانات . ولو أنك لست كذلك لكنت قلت للحجة نوفة أن تنتظرني حتى لا أذهب بمفردي أنا ومجموعة قليلة من الغجر بدلاً من أن نكون قافلة كبيرة .

وصاح الحجي :

ـ من هذه المرأة التي تصرخ ؟

ورد عليه السائس :

ـ الحجة سميرة .

وغمز الحجي المختار أبو حميدة فخرج هذا وسلم على سميرة ورحب بها . وقال لها :

ـ خير إن شاء الله ! الحجي لا يريدك أن تنزعجي في خانه . الحجة نوفة ذهبت إلى الشمال الشرقي من قرى سعادته وسوف تعمل هناك وقالت لنا : إذا جاءت الحجة سميرة قولوا لها أن تلحق بي .

قالت سميرة :

ـ على الحجي أن يبدل هذا السائس الحيوان .

وضحك المفتي قائلاً :

ـ وحتى الغجر أصبحوا يصرخون في الخانات دون إذن من أحد ويشتمون الخان ومن فيه لماذا يا حجي لم تترك السايس يطردها من الخان ؟.

ورد الحجي :

ـ هؤلاء بشر ومن واجبنا أن نستثمر كل إنسان في مكانه وفي زمانه . آخر

البيدر وفي أثناء تصفية الحسابات مع الفلاحين تأتي للمحطة حيث ترفه عن العتالة وعن العمال وهكذا فإن لها دوراً في تنشيط العمل هناك .

وقال المفتي :

ـ عليكم أن تسموها الغجرية وليس الحجة . ولماذا يطلقون عليها هذا الإسم الذي يرتبط بقدسية الحج ؟

فقال الحجي :

ـ يبدو أنها عادة متعارف عليها بين الفلاحين .

وأراد أن يهدىء من انزعاج المفتي والآخرين بعد ما قالت الحجة : لا يوجد في هذا الخان إلا الحيوانات .

لكن المختار أبو حميدة قاطعه قائلاً :

ـ يا شيخنا إنها الحجية وليست الحجة والحجية بمعنى الراقصة التي تقوم بالرقص في الريف وترفه عن الفلاحين وتحيي الأعراس وحفلات طهور الأولاد .

وهز المفتي برأسه :

ـ أين نحن وأين هم ؟

و لم يعلق الحجي على هذا كثيراً إلا أنه طلب من المفتي أن يعرفه بأسماء الوزراء الجدد لأن المفتي على معرفة تامة بهم .

وعندما توقف المفتي عند سعادته مسؤولاً للمالية . ارتاح الحجي وقال :

ـ لقد عاد سعادته إلى السلطة قوياً ولكن علينا أن نعرف ماذا حل بالمستر حبارة وزير المالية السابق وأجاب المفتي :

ـ وزير المالية السابق أصبح مديراً للبنك ومعاوناً لوزير المالية حالياً .

وأردف الحجي :

ـ هذا ما علمناه من المستر هانس الذي قال : إن سعادته يسير إلى الأعلى .

وعلق على المستر جبارة بأنه سيبقى في السلطة مهما تبدلت الظروف لأنه خبير في شؤون المال .

وفي أثناء ذلك صرخ السائس :

ـ حجي ، حجي . المطران وصل إلى باب الخان وهو يركب عربة الخيول .

فأسرع الحجي ووقف الشيخ حيث وضع لفته على رأسه، وأصلح من جلسته الشيخ عبد الرحمن ووقفوا جميعاً عندما دخل المطران .

قال الحجي :

ـ هذا اليوم الذي وصل فيه سيدنا يعتبر يوماً مباركاً . (وضغط على يد الشيخ عبد الرحمن) وقال :

ـ إن زيارة سيدنا سوف تفيدنا كثيراً في كل شيء .

وقد تحدث الحجي للمطران عن القسم الغربي وخاصة القرى التي يوجد فيها الكنائس والخوارنة قائلاً :

ـ إن أبانا يتحدث دائماً أحاديث وطنية كبيرة ويتحدث عن قضايا فلسطين وعن قضايا الساعة . وهذا يهمنا يا سيدنا ونحن فخورون بأحاديثكم .

وعلق المطران :

ـ ولكننا سمعنا الآن من أبي جورج عن أسعار القمح المخفضة .

ورد الحجي :

ـ الأسعارمنخفضة ، ولكن الحقيقة يا سيدنا السوق في العالم كله في حالة كساد لا أحد يشترى ولا أحد يبيع الآن ، ولذلك من واجبنا نحن أن نساعد الفلاحين ونعمل على شراء إنتاجهم ونخزنه حتى يفرجها الله علينا وعليهم وحتى لا نخسر. وأنت تعرف أن لكل منا عيالاً وأولاداً فهو بحاجة أيضاً إلى أن يجمع

قرشاً من اليوم الأبيض لليوم الأسود كما يقول المثل . لا ندري في الأيام المقبلة ما يحل بنا وعلينا أن نعمل جاهدين لأن نساعد الناس وأنت أدرى بنا يا سيدنا .

وقال المطران :

ـ نحن نعرفك يا حجي تعمل مع أبي جريج وتساعد القرى الغربية حتى أنك تساعد على شراء الخنازير من الفلاحين وتساعده على شراء الجواميس .

وأردف الحجي :

ـ طبعاً أساعده على شراء الجواميس واما الخنازير فأتركها له ولا اتدخل في شؤون تجارتها .

وتقدم الحجي نحو المطران قائلاً :

ـ لقد أحضرت لك هدية من لبنان أهداني إياها الخوري في ضهور الشوير في لبنان من الكنيسة وقال هذا جلباب أسود وصليب للمطران عندكم هدية مني .

حسب الحجي لكل شيء حسابه حتى لا يفاجأ بشيء فكر أنه قد يستفيد من المطران في مناطق شمال غرب حماه وهي فوائد كبيرة لأن الفلاحين في تلك المناطق أحوالهم المالية حسنة فهم يصنعون الخمور هناك ويربحون من ذلك .

صاح السائس :

ـ سيدنا يشرب النرجيلة ؟

فقال :

ـ نحن رجال الكنيسة لاندخن .

وأردف المختار :

ـ ولكن تشربون قليلاً من الخمر .

وقال الشيخ عبد الرحمن :

ـ نعم يا سيدنا « المسيح قال : قليل منه يفرح القلب » .

وأردف المطران :

ـ نحن جميعاً قاومنا فرنسا وناضلنا معاً مسلمون ومسيحيون . الدين لله والوطن للجميع وعلينا أن نناضل جميعاً من أجل قضية فلسطين فهي قضية مقدسة لكل الأديان.

وقال المفتي :

ـ القدس إحدى القبلتين . ولا تقبل حجة واحدة في الإسلام . على المسلم بعد أن يحج إلى مكة أن يحج إلى القدس حتى تكتمل حجته .

وعلق المطران :

ـ ويزور كنيسة القيامة حتى يكتمل دينه قديماً وحديثاً . فالإسلام هو امتداد للمسيحية والمسيحية امتداد لكل الأديان السماوية الأخرى .

وقال الحجي في سره :

ـ دعهم يزاودون على بعضهم البعض ولكن عليهم في نهاية الكلام أن يوافقوا على الأسعار ويباركوا لكل ما نقوم به من أعمال في أي مكان . سوف يتصل الشيخ بكل الجوامع في المدينة وفي الأرياف ليعطي توجيهاته بأن هذه تجارة ولا علاقة لها بالأمور الدينية .

وفكر الحجي ، وهو يصغي للمطران ، بالسيارات الشاحنة مملوءة بالجواميس والخنازير والخمور . وقدم السائس للمطران الضيافة المكونة من التين الإدلبي والعنب من محردة ، وبعض البطيخ . وملأ سلة أخرى وقال :

ـ وهذه تذهب إلى بيت سيدنا هدية من خان الحجي .

شكرنا المطران على هذه الهدية وقال :

ـ التين ثقيل على المعدة ولكن البطيخ مفيد في هذا الطقس الحار .

وتابع المطران قائلاً :

ـ لقد سمعنا بالحكومة وحمدنا الله وشكرناه بعد أن هدى الجنرال الجديد وسلم إدارة البلاد إلى السلطات المدنية وجمع كل هذه الأحزاب فيها .

وقال الحجي :

ـ كانوا موفقين عندما جمعوهم بحبل واحدكما تربط الأغنام .

كان الراديو يزعق في مقهى جلال ويذبع تفصيلات عن الحكومة حين أتى رجل من المقهى وقال :

ـ الحكومة ألغت كل قرارات المارشال التي أصدرها سابقاً وكأنه لم تكن هناك دولة خلال أربعة أشهر .

وقال المفتي :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

ورد المطران :

ـ نأمل أن يساعدنا الرب في الظروف الصعبة وعلينا أن نساعد هذه الحكومة بعد أن اشتركت الأحزاب كلها فيها . فعلينا أن نقدم المساعدة لتقوم بمهماتها الوطنية .

وعلق المفتي :

ـ ما رأي سيدنا المطران بالأسعار ؟

ورد المطران :

ـ أنا لا أعرف في هذه المسألة قد يحتج الفلاحون عليها وقد يلجأون للعربي الإشتراكي وعندئذ قد يعدل العربي الإشتراكي الأسعار فكما عرفنا الآن فإن زعيم العربي الإشتراكي أصبح وزيراً للزراعة .

ما رأي شيخنا الجليل في هذه المقولة .

وقال المفتي :

ـ أنا قلت هذا لأصحاب الخانات . وهكذا نقول للحجي في هذا الخان هذه الأمور قد تفيد الإشتراكيين . الذين تولوا وزارة الزراعة ، علينا أن نكون حذرين حتى لا ينشطوا أكثر .

ورد الحجي :

ـ لا تقلقوا أنفسكم بهذه المواضيع لا العربي الإشتراكي ولا البعث العربي ولا حتى الشيوعي يستطيع أن يغير مجرى الأمور التي تتعلق بالإقتصاد والتجارة .

وشرد الحجي ونظر في وجه المطران وهو يتحدث عن التاريخ القديم وعن الهكسوس الذي حكموا المنطقة ، وانتقلوا إلى مصر وشكلوا سلالات الفراعنة وتصوركم جمعوا من الذهب في خزائنهم . لو كان يومها معهم لجمع مالاً كثيراً من وراء هؤلاء الفراعنة الذين احتلوا مصر .

لم يفهم الحجي من حديث المطران أنهم ذهبوا وأسسوا الدولة ونادوا بالإله الواحد لم يهمه ذلك . ولكنه فكر بكلام ابنه عن تاريخ فراعنه مصر كيف قبروا زعمائهم بتوابيت من الذهب فتخيل التابوت الذهبي لو أتى إليه وصهره وحوله إلى سبائك كم يكون وزنه الآن ؟

وعاد الحجي للمشاركة في الحديث قائلاً :

ـ هل يستطيع وزير الإشتراكيين أو غير الإشتراكيين تغيير شيء من هذا الواقع. ولماذا أنتم تتذمرون من الإشتراكية إتركوها للزمن فالزمن كفيل بحل كل الأمور . ما دام سعادته وزيراً للمالية فاطمأنوا .

والتفت إلى الشيخ قائلاً :

ـ ألم تسمع عندما يحج الناس ويمسكون الحجر الأسود فإنهم يصيحون المال المال يا رسول الله فهناك كثير من الناس في هذه المدينة يحجون على أمل غفران الذنوب ويقولون الحج عبادة وتجارة وكفارة .

فلماذا عندما يمسك هؤلاء الحجر الأسود يصرخون قائلين: يـا رسـول الله مـا لنا حلال لنا ، علينا أن نزيده في تجارتنا .

كانوا يتحدثون ، وقد اشتد اللغط في الخان ، في حين كان راديو المقهى يذيع البيانات الجديدة . وكانت المدينـة بأسـرها تعمـل جـاهدة كـي تدخـل في المرحلـة القادمة القلقة المليئة بالتوجس والمخاوف والطموحات .

ـ ٣ ـ

كانت درجة الحرارة مرتفعة في ذلك اليوم من آب ، وكان الرجاد في آخره . بدأ الهواء ينشط ليتحول إلى رياح شديدة ، فاضطر الفلاحون أن يوقفوا الرجاد حتى لا يطير القش من العربات وعطلوا يومهم وعادوا إلى القرية . وعصر ذلك اليوم كانوا جالسين عند جدار المضافة يتحدثون عن الرجاد وأوضاع الدراس ومشاكلهم اليومية ، عندما ظهر من بعيد فارسان تبين بعد أن اقتربا أنهما من رجال الدرك .

قالت سعاد :

ـ لايأتون إلا بالأخبار السيئة . فهم لا يأتون إلا لأخذ رجل ارتكب مخالفة أو لينبؤوا بأخبار سيئة وما ندري لماذا أتوا الآن ؟ وعندما يأتون لا بد من أن تخسر القرية شيئاً . فإذا كانت الحالة هادئة ، والمختار موجوداً تخسر القرية خروفاً . وإذا كان غائباً لا بد من أن تخسر الفراريج والبيض واللبن .

جاء العسس وجلس مع الفلاحين المجتمعين جانب جدار المضافة وظن الدرك أنهم يعلمون ماذ يحدث في هذا الصباح . وقد أسرع العسس ورجل آخر حيث ترجل الدركيان عن فرسيهما . وبعد إلقاء السلام قال رئيس الدورية :

ـ ألم تسمعوا ؟

وصمتوا جميعاً ينظرون إلى وجهه مستغربين . وهم متحلقون نصف قوس حول رئيس الدورية .

قال إبراهيم :

ـ ماذا هناك حتى تسألونا ألم تسمعوا ؟

وقال أحد الدرك وهو يلف سيجارة من علبة أخذها من أحد الفلاحين :

ـ ألم تسمعوا ؟ إيه .. م ... م ... ألم تسمعوا . آه .

وقال أبو عمر :

ماذا هناك حتى نسمع ؟ لم نسمع كنا طوال النهار نعمل بالبيادر والدراس هل هناك من جديد يا حضرة العريف ؟ قالها وأردف بتنهيدة من التعب الملّم به .

لم يجب العريف وأخذ نجة من سيجارته والتفت إلى عبد الله قائلاً :

ـ أنا أعرف عبد الله ، لا ينام حتى يعرف أخبار العربي الإشتراكي . ولا شك أنه يعرف الأخبار .

وقال سلوم :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله يا حضرة العريف .

كان الجميع متحلقين وهم يصغون والعسس لا يزال يدق القهوة الصباحية في مهباجه . وبعد أن أخذ نجة من سيجارته قال :

ـ حدث إنقلاب وقتل المشير وقتل رئيس وزرائه وتسلم معاونه قائداً عاماً للجيش .

استلم الجيش السلطة ومنع التجول في كل انحاء البلاد .

ورد الجميع بحركة لا شعورية .

ـ إنقلاب ... إن ... قلا .. الخ .

والتفت عبد الله قائلاً :

ـ البارحة حدث الإنقلاب و لم يمض عليه نصف سنة حتى وقع إنقلاب آخر .

وهز سلوم رأسه قائلاً :

ـ لا حول ولا قوة إلا با لله ، وماذا حل بالمشير ؟

كانت العيون جاحظة ، والأفواه مفتوحة ـ على كلمة إنقلاب . ورد العريف:

ـ أخبرونا في برقية من القيادة ، أنه قتل .

قال سلوم :

ـ قتل المشير ، له له له ؟ ...

وحدثت همهمة بين الرجال . قتل... قتـ ..ل ـ قتـ ..الخ والتفت يوسف إلى العريف قائلاً :

ـ متى وقع هذا الإنقلاب ؟

فقال :

ـ أذاعوا البلاغات منذ الصباح وكنت أعتقد أن أحداً قد أتاكم من المدينة وبلغكم . هناك الكثيرون من المشاركين بالأحزاب .

والتفت إبراهيم قائلاً بتعجب :

ـ لم يأت أحد من المدينة اليوم يا حضرة العريف . قالها وهو يهز برأسه علامة الإستنكار المشوب بالخوف .

والتفت الشيخ سعدو الذي كان يجلس بين الفلاحين قائلاً:

ـ لا حول ولا قوة إلا با لله ، يا رجل عندما وقع الإنقلاب الأول كنت في فندق الأهرام مع الجماعة وهربنا إلى محطة القطار وأتينا بالأوتومتريس ، المختار أبو حميدة موجود الآن في العاصمة وسمعت أن الشيخ عبد الرحمن ذهب معه وأعتقد أنهم في فندق الأهرام محاصرون . وربما سيعودون اليوم هاربين من العاصمة إلى مدينة حماه وقد يأتي أبو حميدة في الليل ويخبرنا التفصيلات عن الإنقلاب .

وقال أحدهم :

ـ لماذا يخبرنا أبو حميدة هل عنده أسرار الإنقلاب .

جاء الوكيل حاسم وسلّم على الدرك وقال :

ـ أهلاً بكم المختار غائب ، وسعادته تعرفون أنه لا يـأتي ونحـن نديـر شـؤون القرية والأمور تسير كما ترضون والله يطول عمر المشير . منذ شهرين أتيتم بصور المشير وأمرت الفلاحين بتعليقها على جدران بيوتهم وكان على كـل شـخص أن يعلم زوجته وأولاده أن هذا هو رئيس الجمهورية . ليحفظه الله على رؤوسنا .

ونظر إلى الشيخ سعدو لعله يسعفه ببعض الكلمات لكـن الشـيخ سـعدو كـان صامتاً يعبث بعود في التراب . وتوجهت أنظار الجميع نحو الوكيل حاسم الذي بدا واضحاً أنه لم يسمع بأنباء الإنقلاب الجديد ومقتل المشير .

لكن سلوماً أراد أن ينقذ الموقف فقال :

ـ من يعرف ماذا عمل المشير كي يقتل ، يمكن سرق الخزينة ؟

وعلق فلاح آخر :

ـ معقول !! سرق الخزينة ! وأين يضع كل النقود التي سرقها ...

ورد فلاح :

ـ لا تتهموا النـاس يـا جماعـة لا أحـد يعـرف مـاذ عمـل وهـذه الدنيـا مـلأى بالخطايا والخبايا ..

وقال عبد الله :

ـ معروف ماذا عمل ، منشور الحزب أتيناه به وقرأناه . وقع إتفاقيـة التـابلاين ورودس والأنكلوايريان ثلاث إتفاقيات . يقول الحزب أن المشير باع البلاد وعلينـا أن نناضل ضده . هذا ما يقوله المنشور . وكلكم سمعتم بذلك حتى الـدرك قـرؤوا المنشور ...

وأردف أبو عمر :

ـ لا حول ولا قوة إلا با لله العظيم . لا تظلم النـاس . لا تدخلـوا في مواضيـع هي أكبر من حجمنا . الدرك يعرفون أكثر منا . استمعوا إلى ما سيقوله العريف .

وقال الشيخ سعدو :

ـ لا حول ولا قوة إلا با لله العظيم .

أنا لست خائفاً لا من الجنرال ولا من المارشال ولا أخاف إلا من رب العـالمين ولو أن الذي يقول الحق هذه الأيام يأكل حجراً على وجهه وكالقابض على جمرة.

كان العريف يشـرب القهـوة ، ويدخـن وينظـر إلى وجـوه الفلاحـين ، وسـاد صمت قطعه سلوم قائلاً :

ـ إن أوامر الدرك مثل القرآن تنفذ حرفياً لا أحد يعترض عليها أو يناقش فيها.

ورد العريف :

ـ لقد وقع الإنقلاب وقتل المشير ورئيس وزرائه وحل محله القائد العام للجيش والقوات المسلحة .

صمت الوكيل حاسم وبلع ريقه قائلاً :

ـ إذاً إنزعوا صورة المشير فوراً . أنا قلت هذه العين العوراء لا يمكن أن تكـون صحيحة . واحد يكون بعين واحدة ويصبح رئيس دولة ؟ الحق أنني كنت متشائماً من عورته .

وأخذ الفلاحون يعلقون على ذلك كل بأسلوبه وطريقة تفكيره .

ولكن عريف الدرك قال :

ـ إسمعوا التعليمات : يمنع التحول في كل أنحاء البلاد حتى إشعار آخر .

ولاح سلوم برأسه ضاحكاً :

ـ ما رأيكم أن نمنع التحول في القرية ؟

ونظر إبراهيم مستهزئاً :

ـ كيف نمنع التحول في القرية ؟ منع التحول في المدن فقط . عندنا مواشي وخيول والفلاحون عندهم أعمال في حقولها . ونحن نعرف منع التحول في المدينة حتى لا يذهب أحد إليها ويقيم الإجتماعات .

ونصح العريف أن لا يذهب أحد إلى المدينة في هذه الظروف حيث التحول ممنوع ، ومن يخالف يطلق عليه الجيش الرصاص . ورد عبد الله :

ـ كيف نعرف أخبار العربي الإشتراكي إذاً ؟

ونظر الوكيل ، ورئيس الدورية باستهزاء دون تعليق ...

وقال العريف :

ـ قد تكون الأحزاب ممنوعة وأفرادها ملاحقين . وتابع وهو ينظر إلى وجه عبد الله ...

ـ وقد يكون العربي الإشتراكي هو وراء هذا الإنقلاب . لا أحد يعلم ؟

ذهب أحد الفلاحين إلى بيته وأخبر زوجته بوقوع الإنقلاب وقال لها : اسمعي، اسمعي ، إنقلاب .

ـ إخلعي صورة المشير .

وقالت له زوجته : له .. له يا رجل . معقول هذا !!

ـ صورة المشير تزين الجدار . أنظر لم نكد نعلقها .

فقال لها : الله ـ الله يا إمرأة . إنزعيها هذه أوامر الدرك، وتوكلي على الله .

فنظرت إليه وهي تلوح بيدها :

ـ حدث إنقلاب جديد إذن ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ، إن شاء الله يكون الرئيس الجديد سميناً لأن كل الذين استلموا الحكم كانوا سماناً من أكل الخراف .

كان الدرك يتحلقون حول المائدة لتناول الفطور ومعهم الوكيل جاسم والشيخ سعدو والعسس وإبراهيم وأبو عمر وسلوم وعبد الله .

قال رئيس الدورية لعبد الله :

ـ أنت هربت منذ شهرين ونحن نطالبك أن تحضر إلى المخفر ولكن اليوم إنقلاب لا ندري هل يتابعونك أم يتركونك ، الله أعلم .

ورد عبد الله :

ـ أنا هربت من وجه سلطة المشير ومن الدرك لأني كنت أوزع مناشير العربي الإشتراكي . ومن يدري قد يكون زعيم العربي الإشتراكي هو وراء الإنقلاب ويعفو عن كل الملاحقين.

وقال الدركي الآخر :

ـ إن المساجين السياسيين الذين اعتقلهم الماريشال أطلق سراحهم ، يا جماعة هذا خبر أكيد .

فأجاب عبد الله :

ـ إذا أطلق سراح المعلم عادل . وإذا أطلق سراحه لا بد أن أشاهده في هذه الليلة .

ـ والتفت إليه العريف وقال :

ـ ولكن التجول ممنوع يا رجلْ ، قد يطلق عليك الرصاص.

وأردف عبد الله :

ـ أسكت يا رجل التجول ممنوع في الساحات العامة والشوارع العامة ولكن في زواريب المدينة غير ممنوع . وانا أعرف كيف أصل إلى المكان الذي أذهب إليه.

قالت إحدى الفلاحات بصوت عال في ساحة القرية :

ـ يمكن أن نأخذ حميدة لمحمود بن سلوم إذا كان الإنقلاب للعربي الإشتراكي.

وردت أخرى بصوت أعلى :

ـ وما هي علاقة حميدة بالإنقلاب يا سعاد ، آخر الزمن نحشر مشاكل بناتنا بالإنقلاب والعساكر .

وتشاحنت المرأتان وقالت إحداهن لسعاد : إسمعي ـ إسمعي . وهي تشير بيدها واثقة من كلامها :

ـ على محمود أن يأخذ حميدة فهي له وليست لأحد غيره.

وردت ثانية تسمع الحديث وهي مرهقة من الرحاد :

ـ لقد أعطى الماريشال حقوقاً للمرأة وماذا أعطاها إذا كانت المرأة لا تستطيع أن تختار شريك حياتها ، كله كلام بكلام . (وكلام بدون أفعال) .

وردت أخرى : ألم تسمعي :

ـ أعطاها حق الإنتخاب فقط لكي تنتخب الماريشال .

ركب السّقا بَغْلَه باتجاه البئر من أجل نشل المياه . وذهبت النسوة وراءه وهن يتهامسن عن الإنقلاب وقتل المشير وعن زوجته وأولاده .

قالت إحداهن :

ـ لا حول ولا قوة إلا با لله العلي العظيم ـ رحمة ا لله على أرواح الذين ماتوا .

ـ معقولة ألم يخبىء نقوداً لأولاده ؟

وردت أخرى :

ـ لا تخافي هؤلاء الناس لا يخشى عليهم .

تجمعت بعض النسوة في ظل جدار إحدى البيوت وأتت إحداهن وقالت :

ـ ألم تدروا ماذا حدث يا جماعة ؟

سألت أم عمر مستغربة وكأنها تستفسر بتعابير عينيها ووجهها ؟

ـ ماذا حدث ؟

قالت إمرأة :

ـ يقول الدرك أن جنرالاً جديداً هو الذي قام بالإنقلاب ضد المشير ، وقد قتله ليتخلص منه .

فردت أم عمر :

ـ (له.. له.. الله يرحمو) لا يجوز على الميت غير الرحمة. لم يمض على صورته في بيتنا أكثر من شهرين .

وعلقت فلاحة أخرى :

ـ المشير قتل ، لقد عملوا له دعاية أنه قوي ويحب الخير ويحب الفلاحين وأعطى المرأة حقوقها وحررها .

وردت أخرى ضاحكة مستهزئة :

ـ حررها ؟ هل يوجد عندنا أجانب حتى يحرر المرأة منهم.

فأردفت سعاد :

ـ نحن نعيش في القرية ، كل واحد يريد « فروته بدون نتف لا أحد ينتف فروتنا » . وتأملن خيراً بالعربي الإشتراكي.

وردت إحداهن : لا تتعجلن الأخبار ، ستأتي بدون ثمن . المختار أبو حميدة في العاصمة منذ أربعة أيام يمكن أن يكون مشتركاً بالإنقلاب ويأتي بالأخبار الصحيحة .

كان الدركيان الجالسان على الأرض يلتهمان الدجاج المشوي والخبز واللبن .

سأل العريف :

ألا يوجد هنا بندورة ؟

وقال العسس الذي كان واقفاً ينتظر أوامر العريف ليصب الماء بعد أن يفرغ من الطعام .

ـ (نعم يا حضرة العريف نعم) .

ـ في هذا اليوم لم يذهب أحد إلى المدينة ونحن لا نزرع البندورة أو الخيار في هذه القرية .

وشمّت بعض الكلاب رائحة الدجاج . فتجمعت بالقرب من المضافة منتظرة أن ترمى العظام لها لتتسابق وتتصارع عليها وهي تلوح بأذنابها أمام باب المضافة .

وقال إبراهيم :

ـ من يدري قد يتصارعون في العاصمة على من يبقى ومن يذهب مثل الكلاب التي تتصارع « على الجيفة » .

وقال العريف : هل تشبّه الناس بالكلاب يا رجل ؟ لعنة الله على الشيطان الرجيم .

وعلق الشيخ سعدو قائلاً :

ـ إننا نعرف الخير والشر الذي وصل إلينا من الجنرال وغيره ؟ سوى قرارات تصدر ، وكما يقولون في القرية فإنها حبر على ورق مثل سرايا حماه .

وتحدث فلاح في الزاوية (طارت القرارات مثل هبة ريح).

وقال العريف :

ـ ألا تعجبك سرايا حماه يا شيخ سعدو ؟ انتم هنا تتسكعون في ظل جدار المضافة . وتنتظرون الخبر وتقوّمون الأحداث ، وكأنكم عالمون ببواطن الأمور .

ورد إبراهيم قائلاً :

ـ صحيح نحن فلاحون فقراء ولكننا نجمع المحصول في هذه الفترة وعلى كل فلاح أن يجمع محصوله لأن عليهم للحجي ديوناً كثيرة فقد يوفونها أولاً ، فالفلاحون متعبون وهم لا يتابعون أمور السياسة ولا يتدخلون في شؤونها ولكن أنتم تعلمون أن الأحزاب تنشط في الريف الآن وكل الفلاحين يطالبون بحقوقهم

ولذلك فصورة الماريشال ضرورية حتى يعرفوا أنه هو الذي يوجه الحكومة والدولة وينظرون في وجهه كل يوم وإن كان بعين واحدة (المونيكل) .

بعد أن أنهوا طعامهم صاح الشيخ سعدو للعسس بأن يحضر الصابون وإبريق الماء ويصب على أيديهم .

ورد العسس ألم تشاهد يا شيخي كل شيء جاهز : فغسلوا وركبوا الخيول ورحلوا .

كان يوسف وعبد الله وسلوم الذين شدوا على خيولهم وقرروا الذهاب إلى المدينة .

قال عبد الله :

ـ ماذا يقول لنا إبراهيم ؟

لكن يوسف أصر قائلاً :

ـ دائماً علينا أن نشاور من هو أكبر منا علّه يفيدنا بنصيحة . ما رأيك يا إبراهيم ؟!

وعلّق .. عساه خيراً .. إذهبوا وعودوا في الليل ..

الفلاحون المجتمعون كانوا بين مصدق ومكذب لأخبار الدراك عن الإنقلاب ومنع التحول . وعندما أخذوا ينزعون صورة المشير كانوا يبكتون على الصورة وهكذا صاح سلوم قائلاً :

ـ أنا لا أحب الرجال السمان لأنهم كالثيران ، صوت قوي وفم فارغ ويبدو أن الماريشال أكثر سمنة من طبل الغجر.

وضحك فلاح في الزاوية وهو يلف سيجارته ودون أن ينظر إلى الآخرين قال:

ـ لقد استغل مخفر الدرك الجنرال طيلة أربعة أشهر ونصف وأمروا بأن تعلق

صورة بجانب صورة فاطمة المغربية وبجانب صورة السلطان عبد الحميد وعنتر بن شداد . واليوم يقولون بدلوا الصورة وعلقوا صورة جديدة ، لا دائم سوى الحي القيوم . ايه ل زمان دولة ورجال .

وعلق آخر :

ـ ماذا يهمنا من الذي رحل ومن الذي جاء ، سوى أن يعطينا حقوقنا في الأرض ولعلنا لو وزعنا الأراضي فيما بيننا لوضعنا الحكومة الجديدة أمام الأمر الواقع ولاعترف الماريشال نفسه بهذه الحقيقة .

فقال سلوم :

ـ هذا رأي منذ الإنقلاب الأول أن توزع الأراضي .

ولكن الوكيل جاسم قال : توزيع الأراضي ممنوع حتى نعرف ماهي الحكومة الجديدة . قائد الإنقلاب الجديد لا نعرفه قد يرجع فرنسا ومن يدري ؟ .. وقد يوقع إتفاقيات أكثر من الماريشال ، وقد يلغي الإتفاقيات السابقة وكل القرارات بخيرها وشرها . لا تزال الأمور غامضة الآن حتى تتشكل الحكومة الجديدة والله أعلم .

قال آخر :

ـ قد يأتي العربي الإشتراكي ويستلم وزارة الزراعة . وصاحوا جميعاً (يا ريت الله يجيبها ويستلم وزارة الزراعة) .

وعلق أبو عمر :

ـ من الأفضل أن نذهب ونتابع الرجاد حتى ننقل المحصول إلى البيادر خوفاً من الحريق لأن درجة الحرارة عالية ويخشى من سيجارة أو شرارة وقد هدأت الرياح الآن .

وقال آخر :

ـ هذا صحيح حتى نوفي ديوننا للحجي . يا الله يا جماعة إلى البيادر .

وعلق آخر وكان يدخن وقد أرهقه التعب :

ـ الحجي كالمنشار لقد أرسل مندوباً لمن يريد أن يبيع الخراف أو الجلود ليرسلها إلى الخان من أجل تصديرها إلى الخارج .

وقال شخص آخر جالس في الزاوية :

ـ هذا الإنقلاب قد يكون فيه خير للجميع ولعل المختار أبو حميدة يجلب إلينا غداً الأخبار السارة فقد يكون سعادته قد عاد إلى الحكم وعندئذ يفرح المختار والوكيل جاسم والحجي. لا ندري الآن لنتوكل على الله ونتابع العمل .. هيا، ولا ندري إذا عاد سعادته ، ماذا يعمل لسلوم . من يدري .. ؟

سوف يجلد سلوماً مرة ثانية لأنه عندما يسمع سعادته ، أن سلوماً سحب الحبل وأراد أن يوزع الأراضي سيجلده مرة ثانية ولن يفيده العربي الإشتراكي ولا الإخوان المسلمين حتى ولا كل الأحزاب ..

وهب سلوم محتداً وقال بصوت عال :

ـ سأوزع هذه الأراضي قبل أن أموت ولو بعد عشرين سنة لا بد من توزيعها يا رجل .

وقال آخر :

ـ هدىء من روعك يا سلوم واسكت يا رجل ، والله لو سمعوك لأعدموك أنت بعد عشرين سنة قد يعدمونك بعد عشر سنوات من أجل ألا تتنفس بكلمة واحدة بعد الآن .

وضحك الوكيل جاسم قائلاً :

ـ لو كان سلوم غجرياً لكان أفضل من هذه الفلاحة ففي يوم واحد قد يجني

النقود من الفلاحين ومن سعادته بقدر أموال سنة زراعية كاملة . دخل غجرية واحدة يساوي قرية بكاملها . المختار في العاصمة وسيأتي بمعلومات علينا أن ننفذها والذي يخالف تعلمون ماذا يحصل بجلده والذي لا يعجبه السكن في هذه القرية فهذا هو الطريق ليرحل فوراً .

ورد فلاح :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله قسماً برب العباد المشير الذي قتل كان جيداً وعندي قناعة به ، كنا إذا اشتكينا للدرك كانوا يأتون إلى القرية خوفاً منه . بينما كانوا في السابق لا يتحركون ولو أبيدت القرية بكاملها .

وعلق آخر :

ـ من يدري فالجنرال الجديد قد يزيد من القرارات لصالحنا أيضاً .

بعد أن بدأت الشمس بالغروب واصفر الأفق وازرق ، نهض الشيخ سعدو وأقام الآذان في ساحة القرية فقاموا إلى الصلاة جماعة . ودعا الشيخ سعدو دعاءً مطولاً لم يدع مثله في وقت مضى قال فيه .

ـ اللهم ارحمنا لأن الظلم أكبر من طاقتنا ونحن اعتدنا أن نصبر وكما قال الله تعالى ﴿ اصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ لقد صبرنا مئات السنين وعسى الله أن يأتي بالفرج كل يوم نسمع عن إنقلاب جديد . فامنحنا من فضلك انقلاباً يكون لصالحنا يا رب العالمين ؟ وصاح المصلون آمين .

كان الفلاحون يدرسون في النهار لأن الرحاد في يومه الأخير وكان صوت مزمار محمود يدق في أذن حميدة عنيفاً عندما قالت لها سعاد :

ـ أرى أن أذنك مرهفة السمع إلى مزمار محمود الشاعر الذي يهز المشاعر .

وعلقت حميدة :

ـ أنا أعلم جيداً أني في النهاية سوف آخذ الذي أهواه مهما كانت الظروف .

وأرادت سعاد أن تغير الموضوع حتى لا تلفت انتباه النسوة المتحلقات حولها ، فقالت :

ـ ما رأيكم أن ندق على الطبل حزناً على المشير ، وإذا سألونا لماذا تدقون الطبل نقول لهم فرحاً بالعهد الجديد القادم. أنا حزنت على المشير وكنت كلما نظرت إلى صورته أتمنى من الله أن يرزقني ولداً بجماله .

بينما خيَّم الوجوم على وجوه بعضهن . قالت امرأة لزميلتها :

ـ سعاد لا تشبع من الرجال لا يكفي البيك والمختار والوكيل حاسم الذين يسهرون عندها بالليالي .

غداً يأتي البيك والمختار إلى بيتها وتخلع صورة المشير وتقول لهم أعطوني صورة هذا الجنرال الجديد لنعلقها حتى تبرز لهم أنها فرحة بالنظام الجديد .

وتنهدت عجوز وقالت :

ـ ومتى كانوا يطلبون موافقة الفلاحين بالمدن والعاصمة « لا رأي لمن لا يطاع » كما قال المثل (ألم نجد من يكيل بعلبتنا) .

وأردفت أم عمر :

ـ وما دخل النساء في الأحاديث بالسياسة وحتى الرجال في هذه القرية ليس لهم علاقة بالسياسة . الفلاح فلاح والبيك بيك والوكيل وكيل . وكل واحد يأخذ موقعه ودوره لا أحد يتنازل لأحد عن مكانه . هذا في القرية . وفي العاصمة يمكن أن يكون الأمر مشابهاً لذلك وأشد ويذبحون بعضهم على الكراسي .

وقالت امرأة :

ـ عندما أتى التلميذ محمد إلى هنا وقرأ منشوراً عن العربي الإشتراكي قال سيأتي زمن يكون فيه الفلاح سيد أرضه وقال « الأرض لمن يعمل بها » , وعندما ناقشوه بأن هذا مخالف للدين قال : هذا قول الخليفة « علي بن أبي طالب » رضي الله عنه قبل ألف وثلاثمائة سنة ولذلك فالدين يوافق النص والدين مع الإشتراكية . وعندئذ وقف الشيخ سعدو و لم يرد على ذلك التلميذ وقال لا نريد أن نتدخل بشيء لا نفهمه كثيراً .

قالت امرأة تجلس في الزاوية وقد عفر تراب الرجاد وجهها و لم تجد الوقت لتغسله :

ـ أعتقد انني أشم رائحة شواء لبن محروق ، من هي التي تطبخ لبناً وتتركه على النار حتى يحترق قد شاط لبنها لأن رائحته تزكم أنوفنا .

وصرخت امرأة :

ـ أنا التي أطبخ اللبن ولا بد أنه شاط ورائحته تتصاعد لأنني نسيته على النار مأخوذة بأحاديثكم وذهب الجميع وبقيت حميدة وأمها وسعاد. وقد جددت سعاد الشاي مرة ثانية ووصل الوكيل إليها قائلاً :

ـ تشربون الشاي ولا تدعونني ؟!

حلَّ الليل وهدأ الناس وساد صمت عدا صوت ذئب كان يشق صمت الليل ، وكلاب الرعاة ترد عليه بنباحها . تشعره أنها له بالمرصاد إذا اقترب . في هذا الوقت سكن الهواء واجتمع عبد الله وإبراهيم ويوسف وسلوم عند البيادر بينما ابراهيم كان يفكر بالإنقلاب الجديد فقال في نفسه : يبدو أن الأمور من البداية متناقضة . فقد جاء الماريشال بالإقطاعيين ووضعهم محافظين ووزراء . إنه لم يغير في تركيبة النظام شيئاً . من يدري إذا كان سعادته سيدخل في ظل هذا الجنرال ويعود ثانية إلى السلطة وعندئذ ستكون أمامنا مشكلة جديدة .

كان ابراهيم يفكر بعائلته التي شردها الإقطاعيون منذ أكثر من سنة و لم تقبله أية قرية هو وأخوه . لكن البدو كانوا يكنون احتراماً كبيراً لابراهيم وأخيه لأنهما من الأساس عاشا بين البدو ويعرفان عاداتهم وتقاليدهم ولأن أغلب الفلاخين من أقربائهما في هذه المنطقة يعاونانهم في وقت الرحاد وشغل البيادر .

أما عبد الله كان يحث أخاه للذهاب إلى المدينة والعودة عند الصباح . كان ابراهيم يريد أن يتريث قليلاً قال :

ـ يا رجل أنت تذهب إلى مدينة يمنع التجول فيها وتريد من عادل أن يعطيك أخباراً قد لا يعرفها وقد لا تأتي صادقة من العاصمة . من يدري ماذا حدث في العاصمة ؟! المشير قتل ورئيس وزرائه قتل هكذا قال الدرك وأنت تذهب الآن ، ماذا عند عادل كي تسمعه ، أرى أن لا تتعجل الأمر .

فقال عبد الله :

ـ سنذهب رغم كل الظروف لا بد أن عندهم أخباراً جديدة . لا أستطيع الإنتظار ، أريد معرفة حقيقة ما حدث .

كان عبد الله كمن يجلس على الجمر قلقاً مضطرباً يريد أن يعرف الأخبار لحظة بلحظة .

وقال يوسف :

ـ وإذا لم يكن عندهم أخبار جديدة ؟ ماذا نعمل يا رجل.

وأردف قد لا نستطيع أن نتحول . فرد سلوم :

ـ المسافة تزيد عن العشرين كيلومتراً تقريباً ونحن لا نزال في أول الليل . قد نقطعها قبل منتصف الليل ونعود في الصباح. هيا يا جماعة لا تضيعوا الوقت بين أخذ ورد .

أما عبد الله كان على يقين بأن العربي الإشتراكي هو الذي خطط ونفذ الإنقلاب . هذا ما يتوقعه .

لكن سلوم كان ضعيف الثقة بذلك ولكنه ظل يصر على أنهم لو وزعوا الأراضي لوضع الجميع بمن فيهم الإقطاعيون أمام مشكلة حرجة قد لا يعرفون كيف يتصرفون أمامها .

وأردف إبراهيم :

ـ في الماضي جهزت الحبل فتذكر ماذا عمل بك الوكيل والمختار وماذا حل بك وبأخيك والآن ترتكب الحماقة نفسها.

لا يقولون سلوم هو الذي وزع الأرض ، يقولون نحن حرضناه كي نصطدم مع سعادته من جديد ، علينا أن نتريث يا سلوم ، بأفكارك هذه التي تسبب لنا مشاكل قد لا نستطيع تحملها ولا نعرف كيف نخرج منها .

وتابع يوسف :

ـ في كل الحالات لا بد أن يكون للحزب رأي في هذا الموضوع

وقال ابراهيم :

ـ إذهبوا وعودوا قبل الشروق وأنا أتمنى ألا تذهبوا هكذا أمام الفلاحين لأنهم قد يخبرون الدرك بأنكم ذهبتم إلى المدينة والتحول ممنوع فيها وستعاقبون وليكن الذهاب خلسة حتى لا يكشفكم العسس والوكيل حاسم فقد يخبران الدرك .

ركبوا على خيولهم ويمموا شطر المدينة وكل منهم يفكر بطريقة مختلفة . سلوم يفكر إن كان هذا الإنقلاب لصالح الفلاحين فلا بد أن توزع الأراضي ولا بد أن يأخذ حميدة إلى إبنه محمود . أما عبد الله يفكر على نحو مختلف : إذا كان العربي الإشتراكي وراء هذا الإنقلاب سأعود مرة ثانية إلى المنطقة وقد نستفيد من

الأراضي وعلينا أن ننشط جاهدين حتى يكون للعربي الإشتراكي دور بين الفلاحين وخاصة كما قال الدرك قد تعاد الديمقراطية والإنتخابات . وفكر ببغله المسروق وهو لا يزال يبحث عنه . ولقد ظن بأن أحد أعوان الإقطاعيين من الوكلاء سرق البغل لإهانته لأنه يعمل مع العربي الإشتراكي . لكن عبد الله الذي لا ينام على ضيم لا بد من أن يتابع سرقة هذا البغل ويجده وإذا لم يجده فسوف يجعل من سرقته فضيحة للإقطاعيين .

حصر عبد الله ذهنه في موضوع سرقة بغله لأن عربته توقفت ، وهي مصدر رزقه والعربة مؤجرة لبعض الفلاحين من أجل نقل المحصول إلى البيادر ، وقد سرق البغل من البيدر، فتوقفت العربة عن العمل وبذلك شل مورد رزقه . وظل ذهن عبد الله مشتتاً بين البغل وسعادته ، حائراً فيمن يكون قد فعل هذه الفعلة . وكانت ثقته ضعيفة بأن العربي الإشتراكي سينصر الفلاحين في هذه الفترة القصيرة، أو سيفعل شيئاً مفيداً في زحمة الأحداث .

يوسف يفكر على نحو مختلف أيضاً . كان يفكر بأنه سيتصل بالبيطار لأن البيطار لديه معلومات عن العربي الإشتراكي وهو الذي كان يتصل أيام الإستعمار الفرنسي وقبل الإستقلال . فالبيطار رجل وطني نشيط وخبرته قديمة ، لكن المعلم عادلاً صغير قد يؤمن بما يقوله له الحزب أما البيطار لا يقبل الأفكار قبل أن يحلل الأوضاع للمستقبل حتى لا يقع في مطبات . وخطرت على بال يوسف فكرة ، عندما نصل إلى المدينة لا بد أت نزور البيطار قبل المعلم عادل والمعلم عادل ابن أخ البيطار وقد يكونان في بيت واحد نلتقي معهما سوية ولا بد أن نذهب إلى خان الحجي لربط خيولنا ومن الممكن الإلتقاء بالمختار أبي حميدة والشيخ عبد الرحمن والحجي فقد عادوا من العاصمة ونسلم عليهم وإذا لم نمر في الخان ونشاهد المختار

أبي حميدة والآخرين فسيكون هناك مشكلة جديدة . إذ أن غيابهم طوال هذه المدة سيكون له معنى .

كان تفكير يوسف منطقياً وهو أقرب بالتفكير إلى عبد الله من سلوم ، لأن تجارب السنين الطويلة علمته دروساً كثيرة ودائماً يتردد عليه المعلمون في القرية عندما كانوا يريدون توزيع بعض المناشير وسعادته يعرف بأن بيت يوسف هو أحد المراكز التي يمر فيها العربي الإشتراكي وينوي أن يتخلص من يوسف في أقرب فرصة ممكنة ، وكذلك المختار أبي حميدة لكن الأحداث المتلاحقة لم تقرب فرصة بعد .

أما في القرية فقد اجتمع أبو عمر وإبراهيم وجلسا مع الوكيل والشيخ سعدو وحميدة وأم حميدة وبدأت سعاد تجهز الشاي لكل الحاضرين .

كان أبو عمر غارقاً في الصمت ، يفكر في الرحاد ، عليهم أن يرحلوا في الليل وينهوا هذه المشكلة مع حلول عيد الصليب .

أما الوكيل حاسم فقد أصبح أكثر الناس تفكيراً بأحداث اليوم . ماذا قال الدرك وكيف مدح المشير أمامهم . حتى أن أحد الفلاحين قال : لو رأيتم الوكيل كيف مدح المشير وكيف أشارعلينا بأن تكون صورة المشير فوق صورة السلطان عبد الحميد وفوق صورة فاطمة المغربية ، لكنتم الآن تغرقون في الضحك .

وصاحت امرأة من بعيد حيث لدغ العقرب ابنها :

ـ يا أم عمر دخيلك لدغ العقرب ابني .

نهضت أم عمر قائلة :

ـ سنعلق كاسات الهوى بخرقة .

وهرعت أم عمر مسرعة بينما تابع الرجل الحديث قائلاً :

ـ يريد الوكيل حاسم أن نعلق صورة المشير فوق كل صورة الزير . ليتق الله يا رجل ؟ فوق صورة الزير لا أعلق أي صورة لقد رسمناه رسماً بالحوارة . وليس لنا متعة سوى سيرة الزير في كل مساء .

بينما ابراهيم يفكر في عودة عبد الله ورفيقيه اللذين ذهبوا إلى المدينة ليعرفوا الأخبار الحقيقية .

وبدأت ديكة الفجر بالصياح ، ونهض الشيخ سعدو يؤذن آذان الفجر ، ويتلوا آيات من قصار السور « والفجر وليال عشر .. والشفع والوتر ... » ويتابع يا رحمن يا رحيم ارحم عبادك الصالحين وساعد فقراءك وكن شفيعاً لهم بسيّد المرسلين ويبدأ آذان الفجر وينهض الناس إلى أعمالهم وتدب الحركة في القرية رجالاً ونساء وكلاباً وماشية .

ـ ٤ ـ

امتدت أحاديث أهل القرية حول الإنقلاب إلى المساء . كان الطقس جميلاً والرجال يتابعون الرجاد ليلاً بعد سكون الهواء . وجلست إحدى الغجريات المتحولات عند سعاد وهمست لها بأن تقدم لها بعض العشاء لها ولأولادها ولكن سعاد لم ترغب بالنهوض وقالت لها :

ـ ألم تسمعي بالإنقلاب ؟

والتفتت الغجرية وقالت :

ـ يوه .. إنقلاب . يا سعاد ، قالتها بتعجب .

ـ عربة ؟ أو حائط ؟ المهم ألا يكون هناك خسائر في الأرواح . خيامنا دائماً يقلبها الهواء . ولكن بعض الفلاحين يرجدون في أثناء شدة الرياح فتقلب عرباتهن. والساتر على الساتر .

وفسرت سعاد للغجرية ماذا تعني بكلامها وأفاضت في الشرح عن الجنرال المقتول والمارشال الجديد . كانت تحدثها وكأنها معجبة بالإنقلاب الجديد .

وقالت الغجرية :

ـ نحن عندما يموت عندنا واحد نترحم عليه ، والجديد نفرح به ونزغرد له .

وزغردت صائحة :

ـ شابوش للجنرال الجديد كائناً من يكون وهزت صدرها وغمزت بعينيها .

وأسرع الشباب والصبايا إلى بيت سعاد ليعرفوا لماذا هذه الزغـاريد هـل هنـاك خطبة ؟ أم فرح ؟ أو مولود جديد ؟ واجتمع أمـام منزل سـعاد أكـثر مـن نصـف أهالي القرية وأخذ محمود اليحوز (الزمر) آلة العزف وعقـدوا حلقـة مـن الدبكـة بعد تحريض الغجرية وهي تقول : إذا كان الجنرال خـير فسـوف نسـتفيد منـه وإذا بدر منه شر فسوف يقتل مثله مثل غيره والدرك بعد فترة سيورزعون صـوره لكـي نعلقها في الخيام، با لله الدنيا مقلوبة والقـادم فيـه خـير والحـي أفضـل مـن الميـت . وأردفت :

– زوجي يصنع بعض السكاكين عندمـا وزعـوا الصـور القديمـة وعندمـا رأى الصورة قال : لو سألنا المشير كنا عدلنا له النظر في عينيه أو ركبنـا لعينيـه بلورتـين بدلاً من واحدة . وأردفتها بغمزة من عينيها للشباب وضحك الجميع .

حتى الغجر أخذوا ينكتون على المشير وعلى القرارات والمراسيم التي أصدرهـا خلال أربعة أشهر وأقلق كل الناس بها حتى االغجر . الفلاحـون لا يوجـد لديهـم صحف ولا إذاعات وأخبارهم تـأتي مـن الـدرك والمختـار حيـث يجمـع الفلاحـين ويعلمهم بما يصدر من قرارات أو مراسيم .

وعلقت امرأة على قرار حرية المرأة في الإنتخاب ساخرة وكانت تجلس ببعـدة عن سعاد ، وهي تخيط بعض الرقع لجلباب زوجها :

– وا لله لازم تصير الغجرية نوفة زعيمة النساء في هذه المنطقة .

وغضبت الغجرية وقالت :

– إن نوفة زعيمة النسوان منذ أن خلقت ورفعت يدها عالياً وبصـوت يسـمعه كل المجتمعين .

البيك نفسه يسـتقبل نوفـة في قصـره فنوفـة زعيمـة ونحـن الغجـر زعمـاء شـتتم أم أبيتم . إيه ... الغجر .. قال الغجر ..

تفرقوا مساءً ثم عادوا واجتمعوا وعقدت حلقة الدبكة وبدأت الغجرية ترقص تحت ضوء القمر وأخذت كل فتاة تمسك بيد شاب للرقص . إلا حميدة التي شعرت بأن أعين الناس تراقبها فأخذت تبتعد عن محمود لترقص وحدها . الشباب يقتربون من الشابات ليلمسوا أجسادهم دون أن يشعر أحد بذلك . وأحياناً كان الشباب يرفعون أيديهم إلى صدور الفتيات وهن يلتصقن بهم بحجة الرقص .

أخذ سلوم يعزف بكل قوته على الناي والشباب يضربون الأرض بكل حماسة. صرخت سعاد ابتعدوا إلى الساحة نريد أن نشرب الشاي لقد أصابها الغبار . لا حول ولا قوة إلا با لله العظيم .

أنهى الوكيل جاسم حفلة الدبكة قائلاً :

ـ لعنة ا لله عليكم الدنيا مقلوبة أين أنتم أين ؟ .. الناس يموتون في الشام في الإنقلاب والدرك طوال النهار يصرخون فينا ونحن ما لنا خبر مثل الطرشان بالزفة. وأنتم تدبكون ؟ لمن هذه الدبكة على روح المشير أو لصالح الذي استلم السلطة من جديد ؟ لا حول ولا قوة إلا با لله العظيم .

وتوقفت الحفلة فجأة كما بدأت ، وعلق الشيخ سعدو : يا لله جاسم اخز الشيطان وامسح وجهك بالرحمن .

أسرع الفلاحون إلى البيادر حيث شدوا البغال إلى العربات من أجل نقل بقية المحصول إلى البيادر .

كانت تسمع أصوات صرير الدواليب التي لم تعرف التشحيم منذ أن صنعت . ورغم كل ذلك ظل محمود وهو راكب في العربة خلف أبو عمر يعزف على الشبابة .

أعطى الوكيل جاسم تعليماته للغجر أن ينصبوا خيامهم في الشمال الشرقي من

القرية لأن البيادر في الجنوب الغربي من القرية حتى إذا أشعلوا النار لا يأتي الشرر إلى البيادر فالهواء يهب من الغرب والجنوب الغربي بشكل دائم في فترة الصيف .

كان الشيخ سعدو صامتاً فرحاً إلى حد ما لأن صوت المزمار وابتهاج الناس يعكس على الجميع شعور الفرح . حيث يقلب الأمر الذي سمعه من كل وجوهه لماذا ؟ .. وكيف ؟... ولمن هذا الإنقلاب .

كلب من بعيد ينبح نبحاً مقلوباً ينبه إلى أن هناك ذئباً أو ضبعاً قريباً من القرية وعندما اشتمت الكلاب رائحة الذئب أو الضبع أصبحت أصواتها مقلوبة على غير المألوف حتى تنبه السكان إلى أن هناك وحشاً ما في القرب .

ورغم كل هذه الأصوات لم يعلق الشيخ سعدو بشيء ولكن العسس الذي جاء من المضافة وجلس بجانب الشيخ سعدو تحسس بندقيته والطلقات الموضوعة فيها ، كان متوتر الأعصاب وقال :

ـ يبدو أن هناك وحشاً قريباً من البيادر ، ونهض مستعداً لكل طارىء وذهب ليتفقد دور الفلاحين إذا أحدهم نسي أن يقفل بابه . وذهب يراقب إن كان أحد من اللصوص في البيادر لأنه في مثل هذا الوقت تكون القرية معرضة للسرقة . والفلاحون الذين يتحركون ومواشيهم على البيادر يقيدونها من أقدامها حتى لا تستطيع السير ويسمع صوت الحديد إن أراد سرقتها . وعلى العسس حمايتها ومراقبتها . والوكيل جاسم لا يذهب إلى الحقل . عليه بين حين وآخر أن يذهب للبيادر ويجلس أمام قصر سعادته أو على مصطبة عند دكنجي القرية وبدأ العسس يطلق عيارات نارية في الهواء حتى يطرد الحيوانات المفترسة من ذئب أو ضبع مفترس .

قطع سؤال الشيخ سعدو هذا الهدوء ، بصوت عال بعد أن لمح خيال حميدة تمر متجهة إلى دارها :

ـ إيه .. يا حميدة هل أنت مصممة على أن تأخذي محموداً ؟ يجب أن نحسم الأمر ولن يحسمه إلا المختار أبوك ويبدو أنك تضمرين الشر بعد خطبتك للمختار سحيم وموته هكذا يقول الناس ، علينا أن ننهي هذا الموضوع يجب أن تأخذي شاباً حتى لا يموت بسرعة وتصبحي رمزاً للشر في أذهان الناس وفي اعتقادي كل هذا من إرادة الله . والزواج يابنتي قسمة ونصيب وتوكلي على الحي القيوم .

وردت حميدة بصوت عال غير خائفة :

ـ أنت يا شيخ سعدو تعرف أكثر من الناس أنني أحب هذا الشاب وقد طلبت منك أن تكتب لي حجاباً يغيّر رأي أهلي فيه وخاصة عندما بشرنا بموت المختار أتيت لك بخروف وليرة ذهبية . وقدمتها زكاة ليوفقني الله وأتزوج محموداً وعلقت سعاد ضاحكة وأردفت :

ـ كل يوم قصة وكل يوم إشاعة إحسموا هذا الموضوع فحميدة لمحمود ومحمود لحميدة . لا جدك أحسن من جده ولا أبوك أحسن من أبيه وعلى أمك الحديث مع أبيك لنحل هذه المشكلة .

وردت حميدة :

ـ أي مشكلة يا خالتي ؟

ـ لا أريد أن أتحدث في مشاكل عائلية لها أول ما لها آخر وأخوتي يرغبون أن تسير الأمور وفق رغبة الشيخ سعدو لأنه يحبني ويقدرني إذا وقعنا في مأزق فهو يقف إلى جانبنا .

كان الشيخ سعدو يهز رأسه ويرشف الشاي ، وقد فرح بجواب حميدة وقال :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله كل شيء قسمة ونصيب يا بنية . توكلي على الله. سوف أتحدث مع والدك حين يعود ولكن يجب أن ننتظر نهاية البيدر . وعند

نهاية البيدر يكون الحساب ويكون سلوم قد جمع المال وأنت ابنة مختار يجب أن يكون مهرك مميزاً عن مهر بقية البنات .

وعلقت سعاد التي التفتت إلى الشيخ سعدو قائلة :

ـ ولماذا مهرها مميز ؟ مهرها مثل مهر أمها . وهل على رأسها ريشة يا شيخ .

كانت عواطف سعاد تبدو من جهة حميدة ومحمودة بريئة وصريحة لأنها هي التي كانت تؤمن لهما اللقاءات عندها أحياناً وأحياناً في بعض البيوت البعيدة عن الأنظار أو في الغرف التي تربى فيها الحيوانات .

في هذا الوقت كان صاحب الدكان ساهراً وعنده بعض الناس الذين لا يذهبون إلى الحقول . صرخت إحدى النسوة بأن لصاً دخل عليها ليسرق بعض الخراف وصرخت عليه وقفز فوق الجدار . وتنبه العسس وأخذ يصيح : حرامي .. حرامي .. لم يكن لصاً كان شاباً استطاع في أثناء الدبكة أن يضرب موعداً مع فتاة وعندما شعرت أمها به صرخت أخذ اللحاف وهرب ليظن الناس أنه لص . ولكن الشاب رمى اللحاف عند الجدار وفر هارباً ودخل بين خيام الغجر وبدأ الناس يتحدثون عن اللص هل اتجه نحو سكة الحديد أو باتجاه الغرب أو باتجاه الكرم أو البيادر ، والعسس يطلق النار ويركض واستيقظ أهل القرية ووقفوا على مصاطبهم يلقون الشتائم على اللص .

رغم ما حدث في القرية لا زالت سعاد جالسة تشرب الشاي مع الشيخ سعدو وبعد ذلك ذهب الشيخ وساد الصمت في كل مكان وعادت حميدة إلى بيتها . وبقيت سعاد وحدها جالسة تفكر على نحو مختلف من كل الناس إنها تعرف البيك جيداً ، ولها علاقة معه وزوجها رجل فقير يعمل ليلاً ونهاراً وهي تتسلل أحياناً إلى قصر البيك ، وعندما وقع الإنقلاب كان البيك في حالة لا يحسد

عليها ولكن ما ذنبها هي ؟ لا تستطيع أن تشاهده وهي لا تقرأ ولا تكتب لكي تراسله وتبعث له عن كل الأخبار رغم أن السكان يعرفون هذه العلاقة لكن لا أحد يجرؤ على الكلام ومن يغامر بالتحدث في هذا الموضوع يكون قد قرر الرحيل من هذه القرية ولكنهم يعرفون هذه العلاقة ويشهرونها لكي يعرفوا منها ما هي نيات البيك بالنسبة للفلاحين أهي خير أم شر ؟ كانت تعتبر من الجميلات في القرية على الرغم من سنها الأربعين . وتعلم سعاد بأن البيك ينظر إلى نساء القرية الجميلات بنيات سيئة وأنه حاول مرة التقرب من فلاحة جميلة و لم يستطع النيل منها فبعث رجاله ليخطفوها من دارها وهي نائمة ولكنهم خطفوا بدلاً عنها حماتها النائمة في فراشها . وبعد ذلك قتلوا هذه المرأة وطرد الفلاح وعائلته من تلك القرية ليبعد المشاكل عنه لأنه لا يساوي شيئاً بالنسبة للبيك فقرر البيك أيضاً طرد الفلاح ورحل الأخير بسرعة خائفاً على شرفه وعلى زوجته وعلى البيك .

كانت سعاد تعرف كل أسرار البيك والإقطاعيين الذين يأتون بالغجريات وبنات الهوى إلى القصر ومدام المحطة تقدم للبيك كل طلباته من البنات سراً . والوحيد الذي يعرف أسرار البيك هو المختار أما الشيخ سعدو فإنه لا يعرف إلا القليل حيث لا يذهب إلى القصر إلا إذا كان البيك بمفرده .

وفي غمرة إطلاق النار الذي يطلقه العسس تحسست الخيول والمواشي وتنبهت الكلاب . كل كلب يقف أمام دار صاحبه مثل حارس يقظ .

بعض أهالي القرية قالوا إن هذا اللص قد يكون من الغجر، لكن العسس نفى هذا الكلام لأن الغجر لا يسرقون ليلاً وإنما يسرقون في النهار ، يسرقون كؤوس الزجاج أو ملعقة او صحن وما أشبه بذلك ، هذا ما قاله العسس .

جلس الشيخ سعدو يتحدث مع الوكيل في هذا الهدوء الذي ساد القرية عدا أصوات الكلاب التي تنبح من بعيد أو صوت العربات التي تنقل المحصول إلى البيادر. والشيخ سعدو رجل يحفظ القرآن والتحويد وهو رجل فقير يأخذ من زكاة الفلاحين لينفقه على أولاده ، وفي ثوبه توجد بعض الرقع فهو لا يقدر على شراء ثوب جديد بينما يقدم الحجي للشيخ عبد الرحمن ثياباً جديدة ولا يقدم له أي شيء من هذا لأن الحجي لا ينسى أنه عندما أخذ الشيخ سعدو معه للعاصمة فضحه في القرية .

كان يتذكر كلمات الخوري التي لم يسمعها من قبل فقد استمع إلى أشياء جديدة ويقول في نفسه لماذا يوصينا سعادته أن نبتعد عن الخوارنة والمطارنة ويؤكد علينا ألا نلتقي معهم في القرى وخاصة في المناطق الغربية والقرى المسيحية التي يوجد فيها الخوري ويشدد سعادته بأن لا يلتقي المؤذنون مع الخوارنة المسيحيين لأن الخوري رجل مثقف ويعرف التاريخ أكثر ويعرف اللغات المتعددة . كان الشيخ سعدو يجهل التاريخ ولا يتصور أن هناك عالماً آخر يفهم أكثر من سعادته ولكن عندما اجتمع مع الخوري في قرية السقيلبية توضح له أن الخوري يفهم كثيراً ويتكلم الكثير من اللغات الأجنبية حيث أنه درس أكثر من لغة وهو يعرف قضايا نحن نجهلها .

تذكر الخوري وهو يحدثهم عن تاريخ سورية وعن الشعوب القديمة في سورية وعن المعارك التي مرت على هذه الأرض وعن قضية فلسطين وعن سليمان الحكيم وعن قضية موسى وعن التوراة والإنجيل والمزامير وكان حديثاً شيقاً وشائكاً . كان يرغب بالوصول إلى الحقيقة وهي أن الحجي وأصدقاؤه يذهبون للعاصمة لمعاشرة المومسات في الملاهي ولكن ما ذنبه هو عندما ذهب في المرة الماضية إلى هذه

الأمكنة؟.. وكيف يكفّر عن أخطائه التي شاهدها وتذوقها وبخاصة العرق الذي شربه عندما ظن أن العرق كأساً من الماء فهو لا يعرف كل هذه الأمور .

يقول : إن أجمل بنات الناس هن الغجريات اللواتي لا يرى منهن إلا أيديهن ووجوههن ولكن هناك في ملهى الكروان وفندق الأهرام فقد شاهد أشياء لم تخطر على باله .

أما الوكيل يفكر بدوره بينه وبين نفسه كيف تصرف مع الدرك ؟ آه (ويلك يا حاسم ورطة بهدلة لا تخطر على بال ، بهدلة اليوم ما كنت أنتظر لأعرف لماذا أتى الدرك حتى أضحكوا الفلاحين علي) .

يجب على الفلاحين أن يقفوا مثل النابض ويعرفوا معنى كرباج الوكيل حاسم، أما الآن فقد ضحكوا علي أمام الدرك ، حتى سلوم الملعون الذي لا تزال آثار الكرباج على ظهره ضحك علي هو الآخر . وتذكر : الدرك أيضاً كانوا ينظرون إليه بنظرة السخرية وبخاصة أولئك الذين لا يخافون منه أمثال عبد الله ويوسف وابراهيم وأبو عمر .

آه إنها ساعة النحس ألا لعنة الله على كل الإنقلابات، على الإنقلاب القديم والجديد والقادم . إن سعادته في السجن لمدة أيام فقد فرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله ، قد يعود سعادته وتعود لنا سطوتنا وقبضتنا على الفلاحين ، هكذا كان الوكيل يمني نفسه . سعادته سيعود وعندها سيطلق كل ما يملك من ذخيرة في الهواء تعبيراً عن الفرح ، وعليه أن يرتب حفلة لترقص الغجريات ويقرع الطبل ويعزف الناي . هكذا يفكر وبندقيته في يده ، كانت الحرارة عالية في شهر آب . وفي هذا الجو الهادىء لا يسمع إلا صرير العربات المتجهة إلى البيادر حاملة محصولة الحصاد ، أو صوت أحد الفلاحين المغنين أو ناي أحد الرعاة عبر الحقول مع صوت ثعلب أو صوت ذئب .

قبل آذان الفجر لف العسس نفسه بعباءة صيفية ووضع حذاءه تحت رأسه وأغفى وكلبه قابع بجانبه . بينما جلس الوكيل جاسم على مصطبة أمام قصر البيك وكانت إحدى الخيول مربوطة بجانب جدار القصر وفي رقبتها العليق . كان جالساً صامتاً في ضوء القمر الفضي ليشرف على الفلاحين والبيادر من باب القصر . وبعض الفجر مستيقظين فهناك نار ودخان يتصاعدان من خيامهم . أما الوكيل جاسم يحدث نفسه ويقول الدنيا قامت قيامتها . لعنه الله على هذه الساعة قد يأتي سعادته في يوم ولكن سيغيرنا إذا علم بوضع صور المشير في بيوت الفلاحين وأننا كنا نريد تقسيم الأراضي على أنفسنا قلت لسلوم إذا قسمنا الأراضي سآخذ حصتي وأصبح فلاحاً . إيه ماذا سيعمل به سعادته ؟ ويخلص إلى القول : لكل ساعة ملائكة . وقد فكر العسس في أمر اللصوص الذين سرقوا اللحاف وقد أعيد اللحاف فالعسس مسؤول عن أمن القرية . وأن اللص ليس حقيقياً وإنه لص عاشق وضحك وقال : عندما كنت شاباً كنت لصاً نشيطاً في مثل هذه الأمور . وفكر العسس ، إن المختار تأخر كثيراً ويجب أن يعود ليخبرنا ولكنه حتى الآن لم يعد هل بقي المختار في العاصمة أو في حماه .

دار في ذهنه أيضاً قصة خطبة بنت المختار وكيف مات خطيبها وعلاقتها مع الشاب سلوم هل يقف بجانب المختار أم بجانب سلوم رغم أن عاطفته كانت مع سلوم سراً . كيف يرسل أولاده لعند الشيخ سعدو ليعلمهم قراءة القرآن ؟ كان يفكر بكل هذا الزمان وحذاؤه تحت رأسه وبندقيته بين يديه وكلبه يجلس بقربه . وعندما يرفع رأسه من على حذائه كان كلبه ينهض بسرعة ويلتفت يميناً ويساراً باتجاه التفاتة العسس.

ما زال الوكيل جالساً في مكانه وينظر ويراقب البيادر ، وهنا في ساحة القرية

التدخين مسموح لأنه بعيد عن البيادر . العسس والوكيل يدخنان السجاير في المشارب يسمونها المخفية لكي لا يراهم أحد وكانا يحرصان في وقت الصيف الإبتعاد إلى أماكن لا تصل إليها النار لأن أي حريق يسبب الكوارث .

هكذا كان العسس والوكيل يجلسان على العتبة المرتفعة في باب القصر والفرس المربوطة تلوح ذيلها والبقر يخور في دور أصحابه ، والشيخ سعدو يتنزه خارجاً في ساحة القرية قبل الفجر .

اقترب الفجر وقال أحدهم :

ـ يا شيخ سعدو هذه نجمة « الغرار » وليست نجمة الصبح لا تؤذن الآن .

وكان الشيخ سعدو يضبط الآذان على نجمة الغرار حين يجدها مرتفعة عالياً وإن نجمة الصبح ستأتي فيما بعد . وهذا النجم يغر الفلاحين فيعتقدون أنها نجمة الصبح التي يستيقظون عليها .

فقد صاح الوكيل بالشيخ سعدو الذي صعد إلى مكانٍ مرتفع ليؤذن قال له :

ـ هذا نجم الغرار يا رجل انتظر قليلاً .

التفت إليه الشيخ سعدو وصبّح عليه قائلاً :

ـ صباح الخير وعسى أن نرى الخير في هذا اليوم .

كان نجم سهيل ساطعاً والثريا تتلألأ في السماء والقمر مال إلى المغيب يسير كأنه زورق في بحر كبير ويحيط به النجوم كما تحيط الصبايا بفتى جميل في وقت هادىء . أخذوا يتحدثون عن الغرار وبدأ الوكيل حاسم يتحدث أنه في أحد الأيام استيقظ مستعجلاً فشاهد النجم وخرج مسرعاً وقال على الفلاحين أن يستيقظوا ، فأيقظهم وركب فرسه وقال له رشاد بك يومئذٍ عليه أن يذهب للمدينة عند شروق نجمة الصبح . وبعد أن جهزّ فرسه وحمل بندقيته قال اعترضتني بعض

الدئاب فقلت ويلك يا حاسم حتى الآن لم تطلع الشمس والشمس تطلع بعد نجمة الصبح وقد غرني هذا النحم. وأنت يا شيخ سعدو إياك أن يغرك هذا النحم وتؤذن انتظر قليلاً .

وضحك العسس الذي يسمع وهو مضطجع قائلاً :

ـ يا شيخ سعدو صدق أو لا تصدق هذا كلام الوكيل حاسم .

ولكن الوكيل حاسم صاح غاضباً :

ـ أسكت يا رجل لا تعرف قيمة الرجال في الشدائد أنت لا تعرف الوكيل حاسم أنا أقاتل قبيلة بكاملها .

فرد العسس :

ـ أنت تقاتل بكرابيحك ، ولكن بمفردك لا تقاتل صوص دجاج .

واغتاظ الوكيل حاسم وصاح بصوت مرتفع :

ـ إنهض وحمّص لنا بعض القهوة لنشربها . حيوان يتحدث بالسياسة .

فقال الشيخ سعدو :

ـ بسيطة يا جماعة بسيطة . لننتظر نجمة الصبح لنصلي وبعدها نذهب للمضافة.

ومن هناك صاحت سعاد التي كانت تنتظر زوجها بعد أن مرَّ وأخذ قربة الماء:

ـ بعد أن تؤذن يا شيخ الشاي جاهزة عند الباب أنت والوكيل حاسم والعسس .

وأفاق الدكنجي الذي كان نائماً فوق سطح داره وقال :

ـ لماذا هذا الصوت يا امرأة لقد أيقظتينا من نومنا ألم تنامي طوال الليل ؟ الوكيل حاسم يشرب الشاي والشيخ سعدو يشرب الشاي ألم يملّوا من شرب الشاي ؟

وردت سعاد :

ـ إذا كنت متضايقاً من شرب الشاي عندي فاسقهم العرق عنـدك وإذا كـان لا يوجد عندك عرق فأطعمهم التمر واسقهم الماء .

واقترب الوكيل حاسم من الدكنجي وقال له : إسمع يارجل .

ـ هذه المرأة كريمة ونحن نستحق كرمها فلماذا أنت متضايق ؟ إذا أردت تعـال واشرب الشاي معنا ؟

وأذن الشيخ سعدو واستيقظ الفلاحون من نومهم وبقي الوكيـل حاسـم أمـام بيت سعاد وقال لها :

ـ وجهك مثل ضوء القمر .

وقالت سعاد مقهقة :

ـ الوكيل حاسم أصبح شاعراً يا شيخ سعدو . أنت تعرف الوجوه مـن ضـوء القمر يا رجل ؟

ـ ورد قائلاً :

ـ ألست رجلاً مثل الرجال ؟ ألا تعرف المرأة الجميلة من المرأة القبيحة ؟

وأردفت قائلة بغناج :

ـ هناك الشاعر شتيان هو الذي يعرف جمال المرأة فيصفها بالغزال أو القمر أو النجوم . وأنت الوكيل حاسم تصف هذه الأوصـاف نقـلاً عنـه ؟ وقـد لا تعـرف فتصفها بالبقرة أو الناقة .

ورد العسس بسخرية :

ـ الوكيل حاسم حيوان .

والتفتت إليه قائلة :

ـ إنـه إنسـان ولكـن عندمـا يحمـل كرباجـه ويضـرب الفلاحـين يصبـح مثـل الحيوان.

ورد عليها الوكيل : لا حول ولا قوة إلا با لله العلي العظيم :

ـ نستخدم الكرابيج ليكون هنـاك نظـام ومـن أجـل أن يجتهـد النـاس بـالعمل ولكي لا يسرق اللصوص البيادر وهذه تعاليم سـعادته . ولكـن صدقيـني يـا سـعاد عمري ما ضربت فلاحاً إلا وحزنت عليه وعلى نفسي ، وا لله عندما ضربت سلوم بقيت يومين مغتاظاً من نفسي ما ذنبه المسكين ، ولكن المحاتير دفعوني لضربه يوم قسمة الأراضي أرسلني رشاد بك لذلك وإذا لم أضربه سوف يضربونني .

وأردف الشيخ سعدو قائلاً :

ـ إن ا لله غفور رحيم . أستغفر ا لله وأتوب إليه .

أحضرت سعاد لهم الشاي المغلي بالريحان المزروع في بيتها. وعند بزوغ الفجر بدأ ضجيج القرية ، من اصـوات الرعـاة وخـوار البقـر وأصـوات الفحـر وصـوت صريرعربـات الفلاحـين. وهنـاك مـن بعيـد عـلا صـوت مزمـار علـى كـل هـذه الأصوات، بزغت نجمة الصبح معلنة بداية يوم آخر من معاناة الناس في هذا العـا لم. يذهب انتاج الفلاحين وجهدهم إلى جيـب الحجـي في الخـان وإلى بنـك اليـاس في بيروت وبنك روتشلد في بـاريس وكـل تعبهـم وجهدهـم ونومهـم علـى عربـات العمل ملتحفين بالسماء . لا يجدون إلا الخبز والبصل والبرغل لقوتهم . منذ مئـات السنين من حكم العثمانيين والفرنسيين والقهر والإستبداد يحل بهؤلاء البشر ليصبح جزءاً من هذه الطبيعة من يرفع رأسه يقطع ومن يقول كلمة حق يقص لسانه وهـم منتظرون عون ا لله مستسلمون لإرادته علّها تنقذهم من هذه المأساة التي هـم فيها . والإقطاعيون هـم أسياد منذ مئات السنين .

سكان الأرياف هم المادة الرئيسية للعمل وكل ما يعملون به يذهب لجيوب المرابين والإقطاعيين ، يسهرون ويسكرون ويخمرون في بيوت باريس ، أماالصهيونية التي تسللت عبر هذا الزمن بهدوء وبدون ضجيج أصبحت كابوساً على رؤوس الفلاحين . استيقظوا علىشعار واحد هو أمة واحدة . استيقظوا فوجدوا فوق رؤوسهم مطرقة الصهيونية العالمية فانحنوا قليلاً في هذا الزخم ، ونجمة الصبح تشهد يومياً هذه الجوقة الموسيقية الدرامية الخليطة من هذه الأصوات المتناثرة والمتناحرة .

في الصباح كانت حميدة ، وأم عمر تجلسان على المصطبة تتحدثان عن نجمة الصبح . عادت أم حميدة بذاكرتها إلى المختار سحيم كيف فرض على زوجها أن يخطب ابنتها رغم أنه بعمر أبيها .

وأتى المخاتير معه كلٌ منه يريد مصلحته وكل منهم يبذل جهداً ليحافظ على موقعه . ففي نظر الفلاحين المختار هو السلطة الأولى بعد الإقطاعي . وعلى المختار أن يقوم بأعمال حقيرة ويقدم تنازلات كثيرة ولو كانت على حساب كرامته ليحافظ على مركزه أمام سعادته .

كانت حميدة بجانبها تفكر كيف نجاها الله من هذا الرجل. وبكلمة واحدة عبرت حميدة عن كل ما بداخلها . (الله خلصني من هذا الرجل النحس) .

وعلقت أمها :

ـ يا ابنتي أنت ما زلت في عز شبابك .

وردت الفتاة :

ـ ولكن أنت تعرفين كلَ أسراري . أنا لا زلت عاشقة لمحمود بن سلوم وأنا أعشق هذا الشاب وعليك مساعدتي . ألا تريدين لي الخير ؟ هل تقفين أمام أبي

صامتة ليقدم لي مختاراً آخر ويأتي رجل عنده المواشي والأغنام يقدمها هدية لأبي ليعطيني إياه ؟ فأنا لا أريد إلا هذا الشاب . انت قلت تزوجي المختار سحيم واعشقي من تريدين فأنا لست مثل الغجر أو البنات السيئات ولو أخذت رجلاً كبيراً في السن فسوف لا أخونه حتى أحافظ على كرامة والدي وعلى سمعتي أيضاً.

جرى كل هذا الحديث على مسمع أم عمر التي ردت عليها قائلة :

ـ لا ندري قد يعود سعادته إلى هنا وعندما يأتي المختار سوف يخبرنا وعسى أن تكون الأمور خيراً إن شاء الله وأتمنى أن نبقى جيراناً ولا ترحلوا كما رحلت فاطمة قبل سنين ، وزوجها يعمل الآن في هذه القرية بمراقبة البدو ، وكما تمنينا ألا يرحل في هذه السنة ، ولكن رشاد بك وأعوانه أصروا على رحيله ، و لم يحب الصدام هو وأخوه عبد الله ، والآن نذكر فاطمة لا ندري ما تعمل في سهل الغاب يقولون إنها تسكن في كوخ قش فهناك البيوت سقوفها كلها من القش ويسمونها « الدام » وأن ابنها مع العربي الإشتراكي يوزع المناشير في هذه المنطقة وكثيراً ما يأتي للقرية لعند خاله ليلاً ومرة جاء لعندي وأعطاني منشوراً . إن هذا الولد نشيط لو كان عمره بعمر حميدة لتمنيت أن يكون صهرك ولكنت أعطيه ابنتي لو طلبها !

وردت حميدة قائلة :

ـ إنه أصغر مني بعدة سنين ومحمود أكبر مني بعدة سنين وأنا أحبه ولا أتزوج غيره . وكل ما خطر على بالك أحد تريدين أن تزوجيني إياه هل أنا معرض لكل طارق وأنت تعلمين بأن هذا الولد يوزع المناشير على القرية وإذا شهده الدرك سوف يطلقون النار عليه .

وردت أم عمر :

ـ أنا نبهت هذا الولد بأن لا يوزع المناشير إلا سراً لكي لا يقتله الدرك إن رأوه ، كثيراً ما قتلوا الرجال لأسباب أتفه من هذا السبب .

وتابعت أم عمر حديثها عن فاطمة بأنها كانت تفهم في تطبيب الأنف والحلق وقطرة العيون وهي تعرف كل هذا وتعالج كل من في القرية صغاراً وكباراً نساءً وأطفالاً .

ـ ٥ ـ

التقى الشيخ سعدو والوكيل جاسم والعسس أمام بيت سعاد فأُحضر لهم الشاي وجلسوا صامتين وقد لف العسس نفسه بعباءته رغم أن الطقس لطيفاً ، وكلبه قد ضوى إلى جانبه .

قبل شروق الشمس كان الرعاة قد خرجوا إلى ساحة القرية منتظرين المواشي. بعد أن هربت الظلمة وعند بداية شروق الشمس وصل كل من يوسف وسلوم عائدين من حماة حيث ذهبا لمعرفة شيء عن طبيعة الإنقلاب وهل للحزب دور فيه وما هو مصير سعادته .. ؟

عندما سمع صوت سلوم على البيادر قال الوكيل قاطعاً الصمت :

ـ لقد عاد سلوم ومعه يوسف ولا بد أن في جعبتيهما أخباراً عن الإنقلاب .

اتجه سلوم ويوسف إلى ساحة القرية . بينما كان الرجال منهمكين بجمع المحصول قبل أن تشتد الشمس لأن الحرارة المرتفعة تصيب حاسر الرأس بضربة شمس مميتة كما حدث مع بعض البدو قبل عدة إيام ، والأفاعي تتحرك في مثل هذا الحر الشديد ولذلك وجب عليهم أن يسرعوا بنقل المحصول من الأرض للبيدر .

كانت أصوات الرجال ترتفع على زوجاتهم يحثونهن للإسراع في سقي المواشي أو جلب بعض الخبز .

وكل فرد يعمل في هذه القرية على قدم وساق حتى الأطفال يساعدون الكبار. الجميع يعمل لنقل المحصول من الأرض إلى البيدر .

قال سلوم إنهما لم يلتقيا بالأستاذ عادل ، ذهبا إلى بيته و لم يجداه لكنهما وجدا عمه البيطار . وعمه البيطار له عين واحدة ، ويوسف يتشائم منه ومن المشير لأنه يضع نظارة واحدة ولذلك كان يتصور أن المشير لا يرى بعينه ، و لم ينتبه إلى أنه كان يضعها عظمة وأبهة ، لكنهم سمعا من البيطار بعض المعلومات التي تقول بأن هناك بشائر تدل على أن الحزب قد يأتي للسلطة وأن سعادته قد يأتي للسلطة أيضاً وحتى الأخوان المسلمين قد يأتون للسلطة .

وقالت سعاد ضاحكة :

ـ وأنا سآتي للسلطة من بقي من دون السلطة إذن ؟ فالجميع كانوا قادمين للسلطة فسوف تكون مثل سطل الغحرية يضعون فيه كل شيء دفعة واحدة . وضحكوا ثم ساد صمت وقطعه الشيخ سعدو وبكلمة واحدة لا حول ولا قوة إلا با لله العظيم وأردفت سعاد لكن « الخير فيما اختاره ا لله » يا لله يا جماعة .

وقال يوسف :

ـ إننا لم نشاهد أحد فالناس مشغولون و لم نجد سوى البيطار ونقلنا منه بعض الأخبار وعبد ا لله بقي في المدينة و لم يعد معنا . ولكن وقعت حادثة لأحد أبناء الإقطاعيين وهو يملك عدة قرى يقال أنه يعاني من الشذوذ الجنسي وأنه سكر في إحدى القرى وقال لوكيله لقد جربت كل شيء ، النساء والحيوانات والأولاد والرجال ما عدا الكلاب وعندما وقع في ورطة كبيرة لم يخلصه منها إلا تدخل الطبيب وعلقت بعض النساء قائلات :

ـ معقول بيك وكلبة ؟

الوكيل قال : إشاعة من الحزب على الإقطاعيين .

ورد سلوم :

ـ نعم وقد خلصه الطبيب ، والطبيب لم يرد أن ينشر هذه الفضيحة ولكنه أسف لمثل هذا العمل من رجل يعد نفسه أحد أسياد هذه القرى ومن الطبقة الراقية في المجتمع . ويقال أن لدى هذا الأقطاعي شذوذاً حتى سرقة الحيوانات وللمواشي وهو رجل شرس يهوى الاعتداء على النساء ويحاول كبار الإقطاعيين أن يبعدوه عن هذا العمل ولكنه يعتبرها هواية من هواياته وعليه أن يمارسها ولا يستطيع أحد منعه .

انتشر الخبر بأن إقطاعياً مارس الجنس مع كلبة وبدأ الخبر بالإنتشار بين الغجر والفلاحين وكادت هذه القصة أن تغطي على أخبار الإنقلاب وأحداثه ، و لم يعد يسأل الناس عن الإنقلاب ومن هو الجنرال الجديد بل كان جل حديثهم وسؤالهم عن البيك في القرية الفلانية وممارسة الجنس مع كلبة.

وقالت نساء القرية أن هذا الحيوان لم تشبعه كل غجريات الأرض وكل النساء التي تأتي بها المدام من دور البغاء . وكان أكثر من يتحدث بهذه القصة سلوم ولقد أنذره الوكيل جاسم بألا يتحدث كثيراً في هذا الموضوع حتى لا يجلب لنفسه الأذى في المستقبل لأن هذا البيك شرس ولا يسامح من يتكلم عليه وقد يطلق النار عليه .

وأردف يوسف قائلاً :

ـ لقد سمعنا عن الإنقلاب وقد أخرج الكثيرون من السجون و لم يبق إلا الذي ارتكب جرماً شائناً في حياته أما السياسيون فقد أطلق سراحهم جميعاً بمن فيهم الأستاذ علي والأستاذ عادل .

كانوا يتصورون أن الجميع خرجوا من السجون إذاً فالجميع سوف يشتركون في السلطة التي يديرها الجنرال لأنه وعد الشعب كما يقال ، بإعادة السلطات

الشرعية والديمقراطية إلى البلاد ، وسوف يعمل على إجراء الإنتخابات، ومن الآن باشر الأحزاب بالدعاية لها والبيطار قال : يجب أن نجهز أنفسنا من أجل أن يصل الحزب لقمة السلطة .

وقبل الشروق كان محمود يعمل على نقل المحصول مع أبي عمر وقد جلس في أعلى العربة المحملة بالمحصول التي يقودها أبو عمر في المقدمة وأثناء جلوسه أخذ يعزف على مزماره لحناً عالياً تمنى لو أن حميدة تسمعه . وأحياناً يرد عليه أحد الرعاة بعزف مشابه وكأنه يحاوره .

و لم يعلق إبراهيم على شيء مما قاله يوسف وسلوم إنما سأل :

ــ أين عبد ا لله ؟

فرد يوسف :

ــ ذهب للخان الغربي ولن يعود اليوم وقد يذهب من هناك إلى الغاب .

أما عبد ا لله الذي ذهب إلى الخان الغربي فقد سهر عند أحد إصدقائه قريباً من المقهى ، والتجول ما زال ممنوعاً والراديو يزعق بمفرده في المقهى . كثير من سكان المنطقة يجلسون على الأسطحة ليستمعوا إلى النشرات والبلاغات التي يذيعها الجيش والتي كانت تصدر بتوقيع الجنرال سامي .

كان عبد ا لله يصغي مع الجالسين على سطح الدار يلتحف عباءته الصيفية . وأعلن المذياع عن تشكيل الحكومة الجديدة فأخذ يعدد أسماء المشاركين في الحكومة وكان الإسم الثاني اسم سعادته . عندئذ ضرب كفاً بكف عند سماع اسم سعادته وانتفض كمن لسعته عقرب وصاح بأعلى صوته :

ــ كنا نعتقد أننا تخلصنا منه للأبد ، وها هو يعود ثانية ، والمشير ا لله لا يرحمه، لو أنه قضى عليه لكنا الآن إرتحنا منه ، ولكن يبدو أن هناك من يحمي الناس وأقوى من كل الناس لا نشاهده نحن .

وصاح صاحب الدار :

ـ اسكت يارجل لنسمع بقية الأسماء المشاركة .

وكان آخر اسم لزعيم العربي الإشتراكي . وقال : هذه حسنة . وعلق :

ـ إن حزب البعث تُسلم وزارة المعارف ومن يتولى تربية التلاميذ له المستقبل ، وأكد صاحب البيت على ذلك . لأنه قطع شوطاً كبيراً في الدراسة . كان صاحب البيت يعدد أسماء فلان وفلان ويسمي اسم الحزب الذي ينتمي إليه كل منهم ، وظهر في النهاية أن كل الأحزاب اشتركت في الوزارة المشكلة بعد الإنقلاب في يوم واحد . وفي اليوم الثاني عندما سمع الناس الأخبار بدأ إطلاق اللنار فرحاً بهذه المناسبة . كانوا يطلقون النار في الهواء رغم منع التحول ووجود الجيش في الشوارع . فرحة عمت كل الأحزاب على حد سواء بعد أن تخلصوا من كابوس المشير . وأكثر الذين كانوا يطلقون النار هم الذين كانوا في السجون وقد اشترك بعضهم في هذه الوزارة بعد الإفراج عنهم . وكل حزب من هذه الأحزاب تصور أن جماعته هي التي قادت الإنقلاب دون أن يدري من الذي قام به حقيقة .

عندما كان الحجي يستمع إلى تشكيل الحكومة راح يفكر ما قاله له المستر هانس مدير شركة (اي.بي.سي) في حمص ، إن المارشال فضل التابلاين على الأنكلو اوريان ونحن لا نقبل بهذا الشكل كما يتصور البعض مرشالكم أن يضعنا في الدرجة الثانية ، ونحن هنا منذ عشرات السنين قبل التابلاين موجودون في سورية ، ولكن لكل حادث حديث ، ولكل زمان رجال صبورون ، وكما قالوا عن الإنكليزي فهو لا يتسرع ولا يتحمس ولكن حقه سوف يأخذه في وقته . وأخذ الحجي نفساً طويلاً من نارجيلته وهو يضحك على كل ما وصل من أخبار، وقال وهو يهز برأسه :

ـ اللي بيعرف ... بيعرف ... واللي ما بيعرف بيقول : كف عدس *

كان عبد الله ينظر إلى النحوم . وقد جاوز الوقت منتصف الليل ثم غلب النعاس جفنيه وغفا ، وفي الصباح ذهب إلى مكتب الحزب ليعلم شيئاً عن الإنقلاب ، وعليه أن يعرف ماذا يكون مصير بغله المسروق ، وهل يساعده الحزب إذا وجد البغل مسروقاً من قبل أصحاب النفوذ في المنطقة ، أو من أحد الإقطاعيين الذين فعلوا ذلك لإثارة غضبه وتشريده . وتجويعه حتى يركع لهم .

بعد أن سمع من المذياع اسم سعادته فكر عبد الله هل يوزع سعادته قراه على الفلاحين ؟ أم يقتسمها الفلاحون وسوف لن يكون له وقت للإنتقام فمشاغله السياسية كثيرة وأمواله الكثيرة قد تشغله ؟

آه قال لنفسه : عائلته في الغاب وعربته متوقفة عن العمل ولا يملك سوى هذه الفرس التي يركبها ، من يدري ربما يسرقون العربة أو الدواليب . يتساءل إن كان السارق يأخذ بغله خارج المنطقة باتجاه تركيا أو مناطق الريف الشرقي في حمص أو يرسله إلى جنوبي دمشق لا يعرف أين البغل ولكنه يعرف لصوص المناطق كافة وعليه أن يتدبر أمره . فكر إذا لم يجد البغل ماذا يفيده حزب البعث العربي الإشتراكي ؟

هل يدفعون له ولعائلته ثمن هذا البغل ؟ طبعاً لا ، فعليه إذن أن يعمل بجدية أو أن يثير مشكلة البغل في هذه الظروف المعقدة من اليوم الثاني للإنقلاب . العربي الإشتراكي سيفرح غداً باستلام زعيمه منصباً في هذه الحكومة ولا يدري ماذا يقولون له عندما يعرض مشكلة بغله المسروق ولكنه سيثير هذه المشكلة لأنها بالنسبة له مشكلة حياة أو موت فليس لديه نقود ليشتري بغلاً آخر ليتابع العمل . كان يفكر بأن يعود لأيام العثمانيين أيام كان فيها إنساناً متمرداً فاراً من وجه

* مثل .

السلطة العثمانية ، ويعود يفكر قد أسرق بغلاً لفلاح مثلي فقير يكون مورد رزقه ثم يقف عند هذه الفكرة متردداً . يشك بأن سرقة بغله ليست من أجل السرقة ولكن من أجل إهانته شخصياً لأنه منذ ولادته خلق متمرداً لا يجرؤ أي إقطاعي على أن يرفع صوته عليه . لقد سرقوا له البغل بعد أن عرفوا نشاطه بين البدو وحتى الغاب داعياً إلى العربي الإشتراكي ضد الإقطاعيين فعليهم أن يشغلوه عن فكرة الدعاية بسرقة البغل الذي يعيش عليه وبذلك يشلون أفكاره ونشاطه وينحصر تفكيره بالسؤال كيف يجد البغل وإذا ما وجده ماذا يعمل ؟.

أغلب وكلاء الإقطاعيين يعرفون عبد الله لأنه خلال عمره الذي لم يتجاوز الخامسة والأربعين ، سكن في اثنتين وعشرين قرية ولا يمضي عليه أكثر من سنة حتى يصطدم مع وكيل أو إقطاعي فيحمل عائلته ويرحل عن القرية وفي بداية الإستقلال لم يقبله أي إقطاعي فرحل إلى غرب العاصي وسكن في الغاب ولكنه لا يتقن إلا عمل الرحاد فانتقل إلى عند بعض الفلاحين ليعمل بنقل المزروعات في الليل .

حصر فكره ببغله الذي سرق وفي أي المناطق يتجه ليجده فيها . اتجه ناحية الشرق ثم الجنوب ، وعليه الآن أن يتجه لمنطقة السلمية التي تبعد عن تلك القرية سبعين كيلو متراً لأنه يعرف في تلك القرية آحد الوكلاء الذي اشتهر بلصوصيته وعليه أن يتجه إلى هناك ، سوف يجد البغل عاجلاً أم آجلاً لأنه يعرف كل القرى وكل المخاتير في القرى المجاورة ، بدأ يستعرض كل قرية في ذهنه قرية السماقة من يملكها ، بيت فلان الوكيل والمختار ، الوكيل هل هو قادر على أن يسرق البغل أم لا ؟ المخاتير لا يقومون بعملية السرقة الوكلاء والوقّافون هم الذين يحرضهم الإقطاعيون على السرقة فالوقافون هم أدنى من الوكلاء ،و من الجائز أن

يستأجرهم الإقطاعيون في عملية السرقة . قبل الحرب العالمية الأولى كان فلاحاً في قرية أبو سمرة التي يملكه إقطاعي من بيت العظم عنده وكيل جبان ومختار أكثر جبناً وعنده وقاف شرس تخاصم معه وفي نهاية البيدر ضربه كفاً وأضحك الفلاحين عليه ، عبد الله كان شاباً قوياً ومعه سلاحه فطار طربوش الإقطاعي على البيدر فأمر هذا الإقطاعي بأن ترحل عائلة عبد الله بكاملها من القرية إلى قصر بيت علي وهناك سكن في قصر علي سنتين ، كان هذا القصر لأحد الإقطاعيين من مدينة حماه . واصطدم مع المختار منذ الشهر الأول من وصوله ومع الإقطاعي في منتصف السنة و لم يصبر عليهم هذا الإقطاعي فرحلوا مع كل العائلة إلى ريف حلب في منطقة تل خنزير وهناك أمضوا بقية السنة وفي السنة الثانية رحلوا أيضاً إلى قرية رجيم وهذه كانت لأقطاعي من حلب ويقول إبراهيم عنه أنه رجل طيب ويجب ألا نحلب له المتاعب وإن كان رجاله ووكلاؤه أرذالاً علينا أن نمضي السنة حتى نجمع محصولنا .

ما إن انقضت هذه السنة حتى جابت العائلة عدة قرى فذهب علي وعبد الله إلى قرية أم حارتين وهي لبعض الإقطاعيين من حماه ، وإبراهيم ويوسف بقيا في قرية أم الخلاخيل التي تتبع لأحد إقطاعيين من أسياد مدينة المعرة وبذلك تمزقت العائلة إلى قسمين وإن كانت المسافة لا تتعدى العشرين كيلومتراً بين القريتين و لم يستطيعوا أن يعيشوا في قرية أم الخلاخيل فأنذرهم الإقطاعي بالرحيل فأقاموا مرة ثانية في قرية أم حارتين وهنا طوقتهم السلطات الفرنسية بعد أن وجدت دورية عسكرية بعض أعقاب السجائر في ظل جدار القرية . واتهمت علياً بأنه هو مهرب دخان وسلاح للبدو وفر عبد الله لعند البدو هارباً من وجه العدالة بينما غير إبراهيم اسمه ودخل علي السجن لمدة ستة أشهر بتهمة تهريب الدخان

والسلاح . وكانت السلطات الفرنسية تحاصر البيت أسبوعياً وتأخذ المواشي والبغال . وهكذا بدأ الأخوة الثلاثة متمردين ، بينما ظل ابن أخيهم الصغير وحده في تلك القرية . وكان البدو يزودونهم بالأسلحة والخيول ويتسترون عليهم .

ذهب إبراهيم إلى قريب له في قرية مريود ، وسكن هناك سنة واحدة . وعبد الله رحل إلى قرية اسمها المضبعة تقع شرقي هذه القرية تابعة لأحد الإقطاعيين . وبقي إبراهيم وعلي حتى انتهاء الموسم . وفي بداية البذار توفي علي فجأة ، ولم يتجاوز الخمسين من عمره . تناقل الفلاحون أنه ذهب في الصباح وكان الطقس بارداً فأصابه مغص وتوفي عند العصر . وبذلك فقدت العائلة عمودها الفقري ، وأصبح إبراهيم أكبر رجل في العائلة . وإبراهيم يعتبر أشجع رجل بينهم ، وهو أهدأهم ولكن إذا غضب وخرج عن طوره لا يستطيع أحد أن يهدئه وقد يرتكب حماقة لا تحمد عقباها .

رحلوا جميعهم إلى قرية قرب محطة القطار وهذه القرية ليست لإقطاعي من صنف البكوات ، ولكنه من الصنف التجاري الذي يربي الأغنام وأمضوا في القرية أكثر من سنة ، بينما أمضى عبد الله أكثر من سنتين حيث اختلف هو ووكيل القرية وضرب عبد الله الوكيل واستنفر رجال الإقطاعي والبدو وحملوا السلاح على بعضهم البعض وكادت تقع معركة كبيرة نتيجة الحادث ، وأمر الإقطاعي بأن يتهيأ الناس الذين تهجموا على الاقطاعي ورجاله للرحيل عن القرية . وكانوا أكثر من نصف القرية بينما سمح للنصف الثاني بالبقاء لجمع المحاصيل الزراعية .

رحل عبد الله ثانية وعاد لمحافظة حلب وبعدها رحل إلى قرية تل الخنزير مرة ثانية. كانت كل هذه الصور تمر في ذهن عبد الله . وسأل نفسه هل هذا الإقطاعي هو الذي أمر بسرقة البغل لينتقم مني ؟ .

استعرض أهالي القرى وتوقف . عند قرية زغرين قليلاً ، لأنها ملك الإقطاعي الذي يملك القرية التي يعمل فيها مع عربته في نقل المحصول للبيدر لقاء اجر يومي . وفي هذه القرية سرق البغل إذن ، فالإقطاعي صاحب القرية هو نفسه الذي يملك قرية زغرين . وراح يستعرض مختار القرية والوقاف وكل من سكن القرية واحداً واحداً .

فلان هل يجرؤ على أن يسرق أو يقوم بهذا العمل ؟ استعرض قرية صلبا التي يملكها إقطاعي آخر وشقيق زوجة عبد الله ويعمل وقافاً عند أحد الإقطاعيين ، وسبق أن احترف اللصوصية من أيام الأتراك والآن كبر أولاده ولا يزالون يسكنون في ريف حلب الشرقي يعملون مع البدو الحديديين في سرقة الخيول وبيعها في الغرب أو ريف حمص أو منطقة دمشق . هل من المعقول أن شقيق زوجته يقوم بهذا العمل أو أحد أقربائه ليغيظه ؟ وقف عند زغرين مختار زغرين ووقافها وقال : لزغرين بيك شرس ، وعنده هواية في السرقة وفي الماضي قد أجبر نساءً كثيرات للمجيء لهذا الإقطاعي ، وعليه إذاً أن يعتمد على شقيق زوجته وهناك أقرباؤه سوف يساعدونه ليجد هذا البغل وإذا لم يجده ماذا يعمل لهؤلاء الإقطاعيين؟ وبدأ عبد الله يستعرض الإقطاعيين . حكمت بك ، رجل طيب لا يقوم بهذا العمل . فريد بك في حماه صحيح أنه من كبار الإقطاعيين ، ولكنه رجل طيب ، وبابه مفتوح يقبل شكوى الفلاحين ولا يحب الظلم . عبد الرحمن بك رجل في السلطة تسلم مناصب كثيرة عبر السنين وقد استلم منصب وزير للخارجية . هل يعقل أن يكون هو . بالتأكيد لا فعبد الرحمن بك رجل طيب . ولكن هناك بعض الإقطاعيين الأنذال الذين لا يعملون في السلطة وكثير منهم يرتكبون الإخطاء والحماقات والشذوذ عندهم هواية السرقات واللصوصية من

الفلاحين وأنا أعتقد أن الذي قام بهذا العمل هـو الـذي لـه علاقـة بصـاحب قريـة زغريـن وقريـة عمورين وبـدأ يحصـر ذهنـه في منطقـة السـلمية ويسـتعرض تلـك القرى وأصحابها . واستعرض أيضاً البدو . الحديديـون يعملـون في منطقـة حلـب ولا يعملون في منطقة حماه . وفي منطقة حماه يوجد الموالي وهـم يسكنون منطقة أم حارتين . عشيرة الخليفة أصدقاؤه دائماً ولقد سمى ابنه عندما ولد خليفة تيمناً بهذه القبيلة وحبه لها فإنه لا يشك بهم . عشيرة الطوقان أصدقاؤه أيضاً وكثيراً مـا ينـام عندهـم ويطمئن إليهـم ويذهـب معهـم للكثـير مـن الأعمـال . عشـيرة السـفر ، مـن المستحيل أن يقوم بهذا العمل فهو يعرف شيوخهم وحتى فقرائهم وسكن عندهـم وله بينهم أصدقاء . أما الموالي فهو يعرفهم شخصياً وهو أصدقاؤه أيضاً . وشـيوخ البدو لا يقبلون أن يقتربوا نحو واحد من هذه العائلة . واستعرض أيضـاً واقعـه مـع الحزب العربي الإشتراكي ، وهو لا يعرف القـراءة ويـوزع المناشـير . يـميز مناشـير الحزب عن الأخرى بلونها الأحمر . كان ينظر في نجم المسمار وينظر إلى نجم الغرار لقد اجتاز الغرار منتصف الليل فغفا قليلاً ثم أفاق وأخذ ينظر في بنات النعش ثانيـة ونجم القطب ، وقد حدد الشمال مـن الجنـوب وراح ينظـر إلى النجـوم والقمـر إذ أصبح قريباً من الشروق وصمت الراديو. وأخذ يتقلب يميناً ويساراً فوق السـطح . وصاحب المنزل غفا أيضاً . يفكر في محافظة حمص وبمناطقها .

منطقة المخـرم مـن فيهـا مـن اللصـوص وقريـة أم الجـرن وقريـة الصمـد وبـدأ يستعرض كل قرية من قرى حمص حتى وصل إلى جنوبي حمص . وراح يسـتعرض عرب بني عز . شيوخ بني عز يدعون أنهم أقرباؤه وفيما بعد قالوا أنه هـو مـن بـني عز وأنه المعز لدين الله الفاطمي . راح يسـتعرض النـاس حتـى أطـراف البادية ثـم وصل غرباً إلى حمص . قرية القبو يوجد فيها لصوص . قرية رباح لا يوجـد فيهـا

لصوص ، وبدأ يفكر هل قتلوا البغل أم أبقوه حياً . وانتقل أيضاً إلى ريف حلب ، وريف إدلب ، وهو يعرف لصوصاً كثيرين في جبل الزاوية . قرية الفوعا منطقة إدلب ، مركز أريحا ، مركز كفر تخاريم ، سلقين ، جسر الشغور . ثم بدأ يستعرض الغاب الشمالي . لقد تذكر مآسي الحصادين مع الإقطاعيين ، وفي الخانات ، وفي المدينة ، ومدينة المعرة وحلب وحمص وهو يعرف أيضاً طرابلس كان يأتي ببعض البنادق من طرابلس ويبيعها للبدو وكثيراً ما هرّب البنادق والمسدسات على هذا البغل كما كان يبيع بعض الدخان على ظهره فهذا البغل لا يمكن أن يذهب هدراً .

استعرض ريف طرطوس فجذوره منذ أكثر من مائة سنة كانت في هذه المنطقة فجد أبيه ذهب من الريف للبادية وسكن هناك ومات وجده في تلك المنطقة فهو يعرف تلك القرى قرية قرية . قرية القمسية يعرف العقيد قائد الدرك العام ويعرف قرية النمرية لأن له أقرباء فيها ويعرف قرية العرقوب لأن جذوره منها ومنطقة الشيخ بدر وطرطوس . وأيضاً في بانياس يعرف كثيراً من القرى وريف جبلة يعرف قرية قرية . تذكر مختار قرفيص في ريف جبلة وضحك لنفسه ، واستيقظ صاحب البيت قائلاً :

ـ عبد الله هل فقدت عقلك .. أتضحك وحدك ؟

فقال له عبد الله :

ـ يا رجل تذكرت قصة وكلما أتذكرها أغرق في الضحك رغم أن بغلي مسروق وأحوالي ليست جيدة .

فقال له :

ـ ما هي القصة ؟

ـ حدثني عنها مختار قرية قرفيص وقال :

ـ مرة كان عندنا مدير ناحية منطقة الحصان وهناك كما تعرف لا يوجد إقطاع جميعهم فلاحون ، زعماء عشائر عندهم ملكيات صغيرة من الأرض وكان مدير الناحية شرساً ومعيشته هو والدرك على حساب المخاتير ويجب على المختار أن يكون أفضل من الفلاحين يلبس الثياب النظيفة والطربوش الأحمر ويضع ساعة لها سلسال يعلقها في طرف جاكيته ويلبس قنباز أبيض وحذاء . ليكونوا وجهاء القرى . وكان مدير الناحية يبعث الدرك ليجمعوا المخاتير من القرى ويأتون بالحطب اللازم للمديرية . والمخاتير يجلسون في الصيوان على دكة والطرابيش على رؤوسهم وشراباتهم إلى جنب ، ذات مرة فتح مدير الناحية الباب بسرعة وكرباجه في حزمته وهو يصرخ :

ـ ضروري بأن أبعث الدرك لجلبكم يا أوباش . كل واحد طربوشه قدامه .

وضع كل واحد طربوشه أمامه وأتى مدير الناحية وأخذ يدوس على الطرابيش بجزمته الملوثة بالطين . وهو يصرخ كل ما أريدكم أن تأتوا في هذا البرد ابعث الدرك ؟

بعد أن انتهى أخذ كل واحد منهم يبحث عن طربوشه . وكان كل منهم يكتب اسمه أو يعلقه من الداخل حتى لا تختلط مع الطرابيش الأخرى . وأخذ يمسح عنه الطين والغبار ويضعه على رأسه ويجلس كما كان . ويرجع مدير الناحية وهو يقول :

ـ ضروري أن أبعث لكم لأقول لكم ما ينقصني من حطب ألا تعلمون أن البرغل انتهى وأن عليق الدواب قلّ ألا تعرفون أنه انتهى كذا .. وكذا في أمهاتكم.

فقال عبد الله لصاحب البيت :

ـ كل ما أتذكر هذه القصة وما جرى بالطرابيش الحمر أغرق بالضحك . وأقول نحن نقول أنه لا يوجد إقطاعيون إلا في حماه وحلب وإدلب وحوالي حمص ولكن يوجد في الساحل أشخاص يضربون بالسياط من الدرك والزعماء .

وأردف عبد الله قائلاً :

ـ أنا واحد من الناس لو جاء أحد وسحب عقالي من على رأسي وداس عليه لأجعل الرصاص يلعب في رأسه ولو قتلت بعد دقيقة . منذ زمان لما جاء أحد الإقطاعيين ورفع يده ليضربني ضربته كفاً أطرت به طربوشه من على رأسه ووقع على كومة القمح وشهرت مسدسي وقلت للوكيل إذا تفوهت بأي كلمة سوف أطلق النار عليك . ولا أحد يموت إلا في يومه فلا أخاف من أحد ولو رحلت من القرية بعد دقيقة . ولكن سرقة البغل أعتبرها إهانة والله لأحصي كل منطقة وأبحث عنه منطقة منطقة ولو كنت على حافة بردى .

فقال صاحب البيت :

ـ نم يا رجل وارتح والصباح رباح . الآن الدنيا قائمة قاعدة والإنقلاب وتشكيل الوزارة . في الصباح سوف تذهب لفرع الحزب . وكما سمعنا من الراديو فإن زعيم الحزب أصبح وزيراً للزراعة والفلاحون قائمون قاعدون ، وسعادته أصبح وزيراً للمالية والمال عصب الحياة الحساس .

فرد عبد الله :

ـ أنا لا يهمني كل هذه الأمور ما يقلقني هو من الذي سرق البغل ، وغداً سوف ترى كيف أحده . وساد صمت بين الإثنين . ولكن عبد الله راح يفكر في النجوم ، وقال هذه النجوم كانت دليلنا في البادية عندما نركب الخيول ونعبر من منطقة لمنطقة وأنا أعرف كل نجم متى يغيب وكيف يسير في هذه السماء ،

وأعرف نجمة الغرار متى تبزغ ، ونجمة الصبح ومسافة نجمة المسار ونجم الجدى أينما يكون ونجم القطب وبنات النعش وكيف تكون مساراتها أي وقت من أوقات السنة . كان يشرح عبد الله لنفسه دورات النجوم وكأنه عالم فلكي لقد درسها من الطبيعة لأن النجوم هي دليل البدو وميقاتهم في كل أوقات الليل .

بزغت نجمة الصبح واستيقظ عبد الله وصاحب البيت فحلب لعبد الله الشاي والخبز للفطور وعندما أشرقت الشمس أخذ عبد الله عباءته وراح يتمشى في أزقة المدينة لأنه في الليل أعلن السماح بالتحول من الساعة السادسة صباحاً حتى السادسة مساءاً . وخرج الناس من بيوتهم وذهب عبد الله لمكتب الحزب وكان هناك حارسان من الرجال واحد عند الباب والثاني ينظف المداخل .

كان عبد الله أول من وصل لمكتب الحزب حيث عرفه حارس الباب فرحب به قائلاً :

ـ أهلاً أبو خليفة وأين كنت حتى أتيت بهذه الساعة ؟ قالها متعجباً .

فرد عبد الله :

ـ كنت عند صاحبي في المدينة وهل ينام الفقراء المظلومون ؟!

فأجاب الحارس :

ـ توكل على الله يا رجل .

لماذا لم تأت في الليل إلى المكتب هنا كانت الدنيا قايمة قاعدة .

فقال عبد الله :

ـ في الليل منعتنا الدوريات من التحول ، ورأيت البيطار، وأريد أن أرى الأستاذ عادل والأستاذ علي هنا في المكتب .

حوالي الساعة الثامنة بدأ الناس يتدفقون إلى مكتب الحزب طلاباً وأساتذة

وفلاحون وعمـال وكـل منهـم فـرح لآن زعيـم الحـزب أصبـح وزيـراً وأي وزيـر ــ وزير الزراعة ــ وأن الأمور تسـير باحسـن حـال وأن الاشـتراكية في الطريـق . وبدأت حلقات واسعة داخل هذا المكتب الذي يشبه الخان فهـو دار عربيـة مؤلفـة من غرف عدة متقابلة ، وساحة كبيرة ، لكن مدخله أشبه بمدخل الخان .

وعندما أتى الأستاذ علي نهـض الجميـع حيـث دخـل للغرفـة وخلـع سـترته ، فدرجة الحرارة في شهر آب عالية ، وكان بين الطلاب محمد وموسى وصالح لأنهم علمـوا بـأن الحـزب وراء الإنقـلاب وأن بعـض المعلمـين خرجـوا مـن السـجون ، وعليهم أن يعلموا ماذ يعملون وما هي أوامر الحزب .؟!

دخل عبـد الله وسـط الطـلاب والأسـاتذة وسـلم علـى الأسـتاذ علـي وهنـأه بالسلامة . ووصل أيضاً الأستاذ عادل وسلم على عبد الله بحـرارة ، وقـال سمعـت أن هنـاك بعـض المشـاكل بـين الفلاحـين وعلينـا أن نصمـد ونصـبر إن الله مـع الصابرين.

ورد عبد الله :

ــ عندما نموت ماذا نستفيد . نريد حقوقنا وندفع البـلاء عنـا يـا رجـل ، منـذ يومين سرقوا بغلتي وأنا متوقف عن العمل ، وذهبت لكل مكان أبحث عنه ، ولكن لم أجده ! وعلينا أن نناقش هذا الموضوع مع الأستاذ علي . ودخـل لعنـد الأسـتاذ علي رغم معارضة الواقف على الباب .إن هناك معلمين يناقشون الأوضـاع وأنـت تدخل من أجل سرقة بغلك ؟ فابعد الرجـل الواقـف علـى البـاب ودخـل الأسـتاذ علي. والأستاذ علي يعرفه جيداً في الأوقـات الصعبـة كـان يرسـله لتوزيـع مناشـير الحزب والتصدي للإقطاعيين .

دخل عبد الله وجلس أمام المعلمـين وهـم يتناقشـون حـول الإنقـلاب الجديـد

وكيف أطيح بالماريشال وبزمرته التي وقعت إتفاقيات التابلاين والأنكلو أوريان ورودس . رودس يجب أن لا توقع . صرخ الأستاذ علي ليحمس الموجودين وعلينا أن نناضل دون توقف حتى نسقط الإقطاعيين ونصل للبرلمان وأعتقد أن الإنتخابات قادمة .

كان عبد الله جالساً معه يسمعهم ، ويقول بينه وبين نفسه عما يتكلمون ؟! عن أي انتخابات وأي اشتراكية ونحن الآن في مأزق ونريد أن نجد البغل بالدرجة الأولى .

أحد الأساتذة القانونيين يتحدث عن شرعية وقانونية هذه الإتفاقيات . فعلق آخر :

ـ بكل قوة يجب أن نقاوم مشروع آيزنهاور وحلف بغداد بين حين وآخر وأن عليه أن يقاوم حلف بغداد أما مشروع آيزنهاور فإنه لا يعرف إلا أنه استعماري . لا يعرف أكثر أو أقل أما نظرية الفراغ فهو لم يجد لها تفسيراً في ذهنه كثيراً فعلق بينه وبين نفسه : لو وجدوا بغلي في هذا الفراغ ؟

نظر الأستاذ علي في وجه عبد الله وقال :

ـ ماذا تعمل هنا يا رفيق منذ الصباح ؟.

فرد عبد الله :

ـ سمعنا بانقلاب ونريد أن نعرف ماذا تعملون وما هي أوامركم . ولكن عندي مشكلة وعلينا أن نحلها .

فأجاب الأستاذ علي :

ـ وما هي المشكلة حتى نحلها فوراً لا بد أن لها علاقة بالأحداث .

فقال عبد الله :

ـ بغلي مسروق .

وضحك الحاضرون جميعاً . وعلق الأستاذ علي على كلام عبد الله !

ـ الدنيا قايمة . قاعدة ونحن داخلـون في حكومـة جديـدة وأنـت تثير مشـكلة بغلك ؟

وضحك الجميع . ولكن عبد الله احمر وجهه كنمر غاضب وصاح قائلاً :

إن لم أجد بغلي فلن تكون هناك إشتراكية وكل ما تقولونه هو كذب ونفاق . إننا نكافح الإقطاع ونوزع المناشير ونلاحق من قبـل الـدرك ويسـرق البغـل وأنتـم تضحكون.

ورد الأستاذ علي :

ـ هل هذا وقت البغل المسروق يا رفيق ؟

فأجاب عبد الله :

ـ طبعاً هذا هو وقت البغل المسروق أنا زرت مئة قرية على هذا البغـل لأوزع لكم المناشير وعندما سرق لا أحد أحداً يهتم وتضحكون وتقول أنـت هـذا وقـت البغل ؟؟؟ لكن وقت ماذا ؟ وقت إنقلاب ؟.. راح المشير ويمكن أن يكون الجنرال أسوأ منه ؟

فقام الأستاذ علي وقال له :

ـ إهدأ .. إهدأ ..

وأجلس عبد الله بجانبه وهمس في أذنه :

ـ سوف نبحث في هذه القضية يا رجل . بكل جدية وسرية تامة ..

الأستاذ علي يعـرف نفسية الفلاحين وهـو يعطي اهتمامـاً لتحقيـق رغبـاتهم الصغيرة ويستطيع أن يقنعهم دون أن ينفذ لهم طلباتهم .

وصاح الأستاذ علي :

ـ أين الأستاذ عادل . وأسرع الأخير إليه وهمس في أذنه.

تكلف بالبحث السري ومتابعة هذه المشكلة في كل المناطق . وبدأ الأستاذ علي يهدىء عبد الله ويقول له :

ـ سوف نأتي بالبغل حياً . واقتنع عبد الله وذهب من مكتب الحزب .

التفت الأستاذ علي إلى الموجودين وقال لهم :

ـ أنتم لا تعرفون الفلاحين ونفسياتهم يجب ألا نضحك عليه عند كلامه عن البغل لأن هذا البغل عطّله عن جلب قوت عياله فهو أغلى شيء يملكه . وعليكم أن تأخذوا الفلاحين على مستوى عقولهم وتستمعون إلى مشاكلهم مهما كانت .

خرج عبد الله مشحوناً بشحنة كهربائية من كلام الأستاذ علي وكأنه يستطيع أن يقاوم الإقطاعيين بمفرده وبمسدسه المخبأ على لحمه . واتجه إلى خان أبو جورج قال في نفسه :

ـ في هذه المرة سوف نذهب إلى خان الحجي ونتناقش معه حول الديون السابقة .

واتجه شرقاً إلى خان الحجي ، مخالفاً كل ما فكر به ليلاً من أن تكون تحركاته بدون علم الحجي .

كان يوم (١٥) آب يوماً عاصفاً مضطرباً قلقاً بالنسبة لأوضاع سورية وخاصة بالنسبة لسكان المدن . لأنهم لا يعرفون ما الذي يجري . وعندما علموا بتشكيل الحكومة هدؤوا.

خرج عبد الله من مكتب الحزب واتجه إلى خان أبو جورج وأخذ بغلته

وحرها حراً حتى لا تجفل من أصوات السيارات . وبدأ يفكر كيف كان الحديث في مكتب الحزب عن نظرية الفراغ : أين نحن من الآن من نظرية الفراغ أقول له سرق البغل ، يقول لي ألم تسمع بمشروع آيزنهاور « أنا ما دخلي بنظرية آيزنهاور ونظرية الفراغ » ؟

نحن قاتلنا فرنسا ، وأغلب الثوار من الأميين ، لا هم أساتذة ولا مثقفون وكنا نحمل الذخيرة على البغال دون أي خوف وقاتلنا بكل شجاعة .

كان يتذكر عندما ذهب من الجبل ليلتحق بثورة ابراهيم هنانو ومن عند ابراهيم هنانو كان ينقل الذخائر والبنادق في الليالي لرجال الثورة من عند البدو الحديديين دون خوف أو وجل والآن يخشى من كلام أي أستاذ يمكن أن يقوله له : إحذر قد يطلق سعادته عليك النار إذا لاحقت قصة البغل واتهمت سعادته بسرقته .

وخطرت على بال عبد الله فكرة وهي لِمَ لا يخبر بنفسه ابراهيم في القرية عما سمعه ورآه بأن فرع الحزب عاد وفتح ثانية وأن الأساتذة الذين اعتقلوا خرجوا جميعاً من السجن ولكي يطمئنه بأن زعيم الحزب أصبح وزيراً للزراعة الأمر الذي يطمئن الفلاحين إلى حد ما . فعندما سمعوا بهذا الخبر خلعوا مناديلهم من على رؤوسهم ورموها في الهواء من الفرحة إبتهاجاً بهذا الخبر السار ظناً منهم بأنهم سوف يوزعون الأراضي على الفلاحين وينتهي الإقطاع الذي يتحكم بهم وينتقمون من الوكلاء والمخاتير ورجال البيك عندما تسمح لهم الظروف .

وصل إلى القرية وحدث إبراهيم عن كل ما دار خلال يومين عن الإنقلاب ومشاكله مع فروع الحزب وأطلعه على قصة سرقة البغل وقال له :

ـ إنني ذاهب إلى شقيق زوجتي في قرية تمسك ، وهناك سوف أبحث عن البغل.

فقال إبراهيم :

ـ لا حول ولا قوة إلا با لله ، سرقوا البغل ، لم يجدوا ما يزعجنا ... آه ...

وإبراهيم يعلم هذا مثل أخيه ، فسعى لـه ببعـض الأشـخاص مـن البـدو الذيـن يقومون بمثل هذه الأعمال وقال له :

ـ إدفع لهم نقوداً حتى يعلموك بوجود البغل أو يعرفوا من الذي سرقه .

وهكذا ركب عبد ا لله على بغلته باتجاه قرية تمسـك ، وكـان كلمـا مـر علـى قرية ويشاهد أي فلاح . يرحب به ترحيباً شديداً ويجلس معه يتكلم عـن المشـاكل والمخاتير والزروع والرحاد والبيادر والخانات وعن الأولاد . وفي طريقه التقى أحد البدو العارفين الذين كانوا في الزمان الماضي يتعاونون معه وجلس معه (ا لله محييك أبو خليفة) قالها البدوي مرحباً . ورد التحية وسأله قائلاً : حيث حدثه عن سـرقة البغل ووعده بهدية .

وأجاب البدوي :

ـ سوف نتوصل إلى نتيجة خلال يومين مقبلين .

وجعل في كل قرية عيوناً له . وحدث شقيق زوجته عـن سـرقة البغـل . ومـر بقرية زغرين قليلاً ثم وصل السلمية وراح يبحـث في قريـة الجـرن . وفي أم الجـرن تذكر أحد أصدقائه اسكندر باشا والشيخ عبد الرحمن سلامة . وقال لا بد مـن أن نقرأ الفاتحة على روح اسكندر .

وهو واقف تذكر ماضيه الطويل مـع اسـكندر عندمـا كانـا أيـام العثمـانيين في الحرب العالمية الأولى في أثناء سفر برلك . اسكندر « جتا » كمـا يسـميه الأتـراك أي عصابة من قطاع الطرق التي تهاجم قوافـل السـلطان وتهـاجم ثكنـات الجنـود وتقوم بالنهب والسلب في بعض المناطق الـتي يوجـد فيهـا الأتـراك ، وبذلـك أقلـق المنطقة كلها ، وحتى يتخلص السـلطان مـن هـذه المشـكلة قـرر أن يمنـح اسـكندر

البشوية ، ويجعله عيناً له في تلك المنطقة ، وبذلك أرسل له والي حمص ليسلمه البشوية ويقلده إياها وتذكر عبد الله في ذلك اليوم السيء كيف أن أحد أبناء زوجته بعد تقلد البشوية أطلق عليه النار وقتل ذلك الولد وهربت الزوجة بالأولاد إلى شرقي البوكمال ولا يزالون يسكنون هناك . وتذكر هذه السهول والهضاب بأنه مر بها بكاملها على فرسه أيام كان غازياً أو مطارداً أو مطروداً . ومن أيام اسكندر قرر أخذ الفتاة التي يحبها وتزوجها وهي قريبة لاسكندر . ومن ذلك الوقت أصبح له علاقة بريف السلمية بكامله .

فكر عبد الله بعد أن قرأ الفاتحة على روح اسكندر أنه لا بد من أن يشرب القهوة عند أقرباء زوجته ويحدثهم عن بغله المسروق وعليهم أن يجدوه . كانوا يقولون له معقول نحن نسرق ؟ هل يعتدي علينا أحد ويسرق بغلك منك ونحن أحياء لا بد أن نجد بدلاً من البغل عشرة بغال .

كان الجميع يتحركون بصمت .

جاء بدوي إلى عبد الله وطالبه بحلوان البغل . البيك الذي أمر بسرقة البغل نسي القصة بكاملها وشتم السارق وأهانه إهانات كبيرة . وقد جاء البدوي السارق إلى عبد الله ووشى بما قام متفقاً معه بأن لا يقدمه للمحكمة في حال إذا أمسك البغل . وأنه يتنازل عن هذا « الحلوان » .

عندما تأكد عبد الله من وجود البغل اتفق مع هذا البدوي السارق على أن يحتفظ به وطلب من السارق بأن يعتذر بالسر . وأعطاه حلواناً رغم أنه رفض هذا الحلوان . (أي الرشوة) .

وقال البدوي :

ـ هذا جميل لن أنساه نحن البدو والفلاحون متساوون تحت ظلم الإقطاعيين . فهم يظلموننا سواء كنا معهم أو كنا ضدهم .

فرح عبد الله بوجود البغل ولكنه كتم سره وذهب بسرعة للعاصمة لمقابلة قائد الدرك العام وحمل له بعض الهدايا. أخذ له عشرة كيلوات فريكة وبعض طيور الحمام وخروف حي وتنكة السمن وبعض اللبن . كان يعرف زوجة قائد الدرك العام ويعرف أهلها وقد قدم له كل المساعدة وعند مشاهدة قائد الدرك قال له :

ما هي الأخبار عندك ؟.

حدثه عبد الله عن سرقة البغل وضحك القائد العام للدرك وقال متعجباً :

ـ آخر الأمور السارق يسرق ... أنت الذي كنت تسرق كل خيول المناطق مع اسكندر والآن يسرقون بغلك ؟ وكيف حصل ذلك ؟

فأجاب عبد الله :

ـ هذا ما حدث وعليك مساعدتي ، فقد وجدت البغل في المحل الفلاني ، وشرح له كل التفاصيل .

ولكن قائد الدرك رغم أنه قدم له المساعدة إلا أنه سأله عن نشاط العربي الإشتراكي في حماه لأنه لا يحب الحزب وهو متعاطف مع الإقطاعيين ومع زعماء العشائر وقال له :

ـ ما لك ومال الإشتراكية لقد سمعت أنك تركب بغلتتك وتدور في كل قرية وتوزع المناشير الحزبية .

وهز عبد الله رأسه وقال :

ـ ماذا تعمل هذه المناشير ضد الأقطاعيين وأقسم برب العباد لو كان الشيطان ضد الإقطاعيين لكنت مع الشيطان . وهز عبد الله رأسه ، وكان أشبه بصعاليك العرب قبل الإسلام .

وضحك قائد الدرك وقال :

ـ لا ... لا أنت لست مع الشيطان أنت مع الرحمن .

أخذ قائد الدرك يحسب حسابات كثيرة للأمام . فلقد مضى على الإنقلاب أكثر من أسبوع ويبدو عليه الإستقرار وقد تم تشكيل الحكومة وفيها زعيم العربي الإشتراكي وزيراً للزراعة .

قال عبد الله :

ـ لقد وجدت البغل المسروق وأريد منك أن تأتي به قبل أن يقتلوه لأنه إذا اكتشف أحد أنني عرفت مكانه يمكن أن يقتله السارق .

كان عبد الله يفكر بينه وبين نفسه ويقول : سوف أعمل فضيحة لهؤلاء الإقطاعيين في هذه المحافظة سوف يذكرها الناس مئات السنين .

عندما سمع قائد الدرك العام بالقصة كتب رسالة إلى قائد فصيل السلمية فيها : (عبد الله يصل إليكم) بغله الذي سرق منه موجود في البيت الفلاني يجب إرسال دورية كبيرة أكثر من قوة الإقطاعيين ويجب أن يستلم هذا البغل حياً وينقل في سيارة من سيارات الدرك إلى مدينة حماه وهناك في مدينة حماه يوقفه أمام السرايا ويعرض القضية على القاضي لأن الشكوى يجب أن تسقط بوجود الفاعل للتنفيذ .

أخذ عبد الله الكتاب بينما طلب أن يتريث في إرسال البرقية إلى السلمية عدة ساعات حتى يصل إلى السلمية قبل أن تصل الأوامر من قائد الدرك إلى قائد الفصيل في حماه فقد يتدخل أحد أفراد الدرك متعاوناً مع الإقطاعي وقد يستلم رشوة منه فلا يمسك البغل أو يهربه أو يقتله .

ودّع قائد الدرك وعاد مسرعاً كما أوصاه بأن يذهب إلى السلمية ويعطي قائد الفصيل هذا الكتاب وهم يتصرفون .

عندما حمّل بغله مع الدرك لمدينة حماه أخذه لفرع الحزب. كان الوقت ظهراً

والناس يسيرون بشكل طبيعي في الشوارع، لكن أثار انتباههم بغلاً يركب في سيارة الدرك وخلفه دورية من الدرك .

توقفت العربة أمام فرع الحزب . وكان الفرع يضج بأعضائه النشيطين ، الداخلين والذاهبين ودخل عبد الله فوجد الأستاذ علي هناك . رفع حطته من على رأسه وقال لقد وجدت البغل .. لقد وجدت البغل ، سرقه البيك ، وتجمع حول العربة الفضوليون من الناس ـ بغل في عربة الدرك أمام فرع العربي الإشتراكي . ونهض الأستاذ علي وقال :

ـ آه هذه فضيحة .. وخرج ليشاهد البغل المسروق وفعلاً وجده محملاً بالشاحنة وبجانبه دركي وخلفه سيارة مملوءة بالدرك . وقال لننتظر قليلاً . واستدعى الأستاذ عادل فوراً وأتوا بقماش ثم كتبوا يافطة تقول :

« وجد البغل الذي سرقه البيك لقرية (...) وخبأه في قريته بمنطقة (...) وعلقوا على هذه اللافتة على عربة الدرك وعلى جسد البغل وانتقل الموكب إلى السرايا حيث توقف الناس وهم يقرؤون : البيك فلان هو الذي سرق البغل . وكاد الموقف يتحول إلى صدام بين الإقطاعيين والعربي الإشتراكي ، ولكن وجود الدرك منع ذلك .

وقفت السيارة أمام السرايا ، وخرج المحافظ يلقي نظرة على البغل ، وخرج كل من في الحزب وتوقفوا عن الإجتماعات ينتظرون تطورات الموقف ، فمشكلة البغل طغت على كل الإجتماعات . وكان الأستاذ الذي شاهده عبد الله سابقاً يتحدث عن الفراغ وآيزنهاور موجود فأمسكه عبد الله من يده وقال له :

ـ هذه أقوى من نظرية الفراغ ومشروع آيزنهاور . في المرة السابقة كنت أقول لك سرق البغل وكنت تقول لي الآن وقت بغل مسروق ؟ نحن نبحث في

نظرية الفراغ ومشروع آيزنهاور ونحن يا أستاذ نناضل على الأرض وليس على الورق كما هو حال الأساتذة . أنت جالس وتشرب الشاي وتقرأ الكتب وتقول لازم أن نبني الإشتراكية . والإشتراكية لا تبنى وأنت جالس . الإشتراكية لا تصبح قوة إلا إذا كانت على الأرض أو في الميدان . وأنا الرجل العادي سوف ترى ماذ صنع بالإقطاعيين دون أن أقرأ أي كتاب كل قراءتكم لا تفيد بحجم هذا البغل وأنا وحدي وقفت وبحثت وأتيت بهذا البغل والآن أريد أن أبهدل كل الإقطاعيين . إذهبوا ووزعوا الأرض عندئذ تكون الإشتراكية وإذا لم توزعوها تكون الإشتراكية عبارة عن (لت وعجن) أولاد المشايخ أصبحوا أعضاء في الحزب وابن الحجي أصبح عضواً عندكم وابن الشيخ عضواً أيضاً وابن الخوري عضواً وابن الإقطاعي فلان والذي فاجأني إن صاحب القرية يصبح عضواً عندكم ما هذا الحزب إذن ؟ مثل سطل الغجر يجتمع فيه كل شيء .

وهدأه الأستاذ علي وقال انتظر لنعلق اللافتات .

تابع عبد الله مع بغله دورته في شارع المدينة ثم ذهب إلى خان أبو جورج وعاد الدرك إلى مخفرهم . وانتشرت شائعات عن أحد البيكوات بأنه قال للذي أمر بسرقة البغل :

ـ أنت حيوان . بيك وتريد أن تقوم بسرقة بغل . إذا كنت تريد إهانة الفلاح أطلق النار على البغل أو غلى الفلاح ولو قتلت الفلاح ماذا يكون ؟ هذا الفلاح فضحنا في المنطقة وجعلنا مهزلة بين الناس . الإقطاعي حرامي = الإقطاعي الذي يملك عدة قرى ويقتل الفلاحين في وضح النهار دون أن يجرؤ أحد على معارضته يسرق بغل كان يجب عليك أن تقتله .

بعد ذلك غاب عبد الله عن مسرح الأحداث حوالي الشهر لأن الرجاد انتهى

وهو لا يعمل في الدراس واخذ عربتـه ودوابه وقطع العاصي نحو القرية التي لا يحكمها الإقطاعيون . وهناك بدا يعمل لتأمين قوت عياله . ولكن هذا لن يمنعه بين حين وآخر من توزيع المناشير فهذه العادة أصبحت جزءاً من دمه . وقد ساعده في ذلك أحداث شعبة للحزب تولى الطالب محمد توجيهها مع موسى وصالح فقد كانوا من الطلاب الأوائل في تلك المنطقة تحت إشراف أستاذ المدرسة جابر من البعث العربي واصبحت المناشير توزع من جسر الشغور إلى مصياف ومن الغاب إلى البادية بسرعة هائلة مما اقلق الإقطاعيين واقض مضاجعهم .

سكن عبد الله في قرية الحورات من قرية عمورين قريباً من البدو فهو لا يحب ان ينفصل عنهم لأنه يعتبر نفسه جزءاً من عشائر البدو فقد تربى معهم وعاش بينهم .

كان عبد الله في أطراف البادية . ويحكي قصة البغل وكأنها أسطورة حققها من أساطيره لقد سود وجوه كل الإقطاعيين وكشف الإقطاعيين على حقيقتهم وأنهم يسرقون الفلاحين ليس بغالهم فحسب ولكن في محصولهم وإنتاجهم .

وفي مضافة القرية جلس عبد الله وحتى يتقي شرَّه المختار أبو حميدة أجلسه بجانبه .

همس عبد الله بأذن المختار أبوحميدة :

ـ مات المختار سحيم وعليك أن لا تزوج ابنتك بيعاً وشراء .

ورد المختار أبو حميدة قائلاً .

ـ يا أبو خليفة إتق الله نحن أصدقاء لا تتحدث في هذا الموضع ثانية . هذا الموضوع انتهى منذ عدة أشهر .

وطلب عبد الله من المختار أن يعلق في المضافة مناشير الحزب .

وهز المختار رأسه قائلاً :

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله يا رجل هذه القرية لسعادته وسعادته وزير المالية والمال عصب الحياة فإذا لم يعطهم سعادته المال لا تحل أية مشكلة وأنت تريد أن تعلق مناشير الحزب سوف تأتي صورة الجنرال الجديد وسوف نعلقها في المضافة .

وقال الوكيل جاسم :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . تذكر قصته مع الدرك عن صورة المارشال وفكر بصورة الجنرال الجديد كيف يكون شكله ؟ ... سمين أو نحيف ؟ يضع النظارات على عينيه أو لا يضع ؟ أناس يقولون أن له كرشاً وأناس يقولون أنه طويل وله كرش ؟ حتى الآن لم تصل صورته ربما غداً تطبع وتوزع . الصورة الوحيدة له هي التي نشرتها الجرائد ويظهر فيها مشوهاً . له رقبة علق عليها العسس قائلاً : مثل رقبة العجول كان الجميع مجتمعين في مضافة القرية والجو حار يعكس على نفسياتهم نوعاً من الملل والسأم وكانت تسمع من بعيد أصوات الحيالين وهي تصر في أثناء الدراس . (آلة لدرس القش) .

علق العسس قائلاً :

ـ يجب تزييت الحيالين حتى لا تصدر أصوات صرير ، فالصرير يؤدي للإحتكاك وهذا يؤدي إلى حريق في البيادر .

وعلق آخر :

ـ إحتكاك خشب على خشب يؤدي إلى حريق .

وهز ابراهيم رأسه موافقاً وعلق :

ـ لا نعرف من أين يأتي الشر ولكن يجب عليهم أن يزيتوا المحاور وهل يكلفهم هذا كثيراً ؟ بضع نقاط من زيت الحلو تكفي . وعلى الوكيل جاسم أن ينبه الفلاحين في هذا المساء إلى أن أي شرارة قد تحرق البيادر .

في العادة عندما ينتهون من الدراس يأتي المختار والوكيل حتى يعرف كل فلاح حصته من البيادر ولا يقسم أي حصة حتى يأتي وكيل الحجي ويعرف ما هي الديون على هذا الفلاح ويأخذ الإنتاج لسد دين الحجي أولاً .

ومن بعيد بدا الفلاحون وقد خلعوا أحذيتهم وثيابهم المبللة من عرقهم وأحزمتهم العريضة المشدودة على خصورهم في انتظار توزيع الحصص .

ـ ٦ ـ

كان عبد الله يجلس عصر ذلك اليوم بجانب ابراهيم في المضافة ويحدثه هامساً:

ـ يا ابراهيم ، اركبّت البغل في السيارة وقلت طاب الموت يا أبو خليفة !

والتفت عبد الله نحو المختار والوكيل حاسم قائلاً :

ـ اسمعوا ماذا فعلت . أركبّت البغل في السيارة وذهبنا إلى المدينة ووقفنا أمام فرع الحزب. وعيونكم ترى كيف تدفق الحزبيون إلى السيارة وكل واحد منهم بدأ يؤلف قصة . وقبل أن أحد البغل رأيت معلماً بدأ يحكي لي عن نظرية الفراغ في المنطقة . وأي نظرية هذه . إنها مجرد كلام فارغ . علقنا على السيارة اللافتات التي كتبت عليها أشياء لا تصدق . وسارت مظاهرة أمام السرايا وبهدلت الاقطاعيين بهدلة تساوي ألف بغل . وخرج المحافظ الذي كنت متشائماً منه لأنني ذهبت إليه عندما سرق البغل ، وقال لي كل يوم يسرق ألف بغل ، وهل نحن متفرغون لبغالكم ؟ وعندما رأيته رفعت الرسن في وجهه، وقلت تسقط فرنسا. ونحن راكبون على البغال أسقطنا فرنسا وحيينا الإستقلال . ذعر المحافظ ودخل وأغلق وراءه الباب .

عبد الله هذا شخصية غريبة كان يلم بكل شيء بالطب الشعبي ، يتحدث بالفلسفة مع البدو ، ويتحدث بتربية المواشي وعلم النجوم . يقول عندما يحدث الكسوف في القمر يحدث انقلاب في دولة ما ، ويموت ملك في دولة أخرى وكانت هذه الأمور تقنع البدو .

ورغم كل هذا كان الحزب لا يعتمد على عبد الله كثيراً لأنهم يعتبرونه رجلاً متهوراً قد يضع العمل الحزبي في مأزق ، ولذلك كانت الأعمال الحزبية الهامة تسند إلى يوسف لأنه أهدأ منه وأكثر دقة في التنفيذ ، ويوسف لا يقوم بعمل قبل أن يستشير ابراهيم . لأن ابراهيم رجل عاقل ، فهو لا يحب الصدام فقد تكون عاقبته وخيمة . ولا يحب المشاكسات التي لا تؤدي إلى النتائج المطلوبة يقول عليك أن لا ترفع يدك إذا لم تكن تريد أن تضرب بها . إذا كانت الأمور تحل بالكلام عليك أن تحلها بالكلام ، وإذا لم تستطع فحلها بيديك وعليك أن لا تستخدم سلاحك إلا في آخر الأمر . وغالباً ما كانت عشائر البدو تستفتيه بأمورها لأنه خبير في عاداتهم وتقاليدهم .

وقال أبو حميدة مشاركاً في الحديث عن مشكلة البغل :

ـ صحيح هذه مشكلة لكن أنتم زودتموها على سعادته وعلى الإقطاعيين في كل مكان وبتقديري فإنهم لا يؤتمنون يا عبد الله على مثل هذا التصرف وستأكلها في يوم من الأيام .

ورد عبد الله متهكماً :

ـ للإنسان منية واحدة يا مختار . لماذا تحسب كل هذه الحسابات ؟ بالتأكيد لأنك تخاف من الإقطاعيين أنت خائف على المخترة ! إتركها ماذ يحصل في الدنيا يا رجل ؟!

وهز المختار برأسه وقال :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . يا عبد الله أنت من سنتين رحلت عن هذه القرية بخصام مع البيك وكاد يقتلك وها أنت ذا الآن راجع لتخلق مشكلة جديدة، يا أخي هل أنت مستغن عن روحك ؟! خلصنا منك لماذا ترجع إلينا ؟ قالها بنبرة ، وقد أدار وجهه عن عبد الله .

ورد عبد الله باستهزاء :

ـ هذه القرية قرية أبو فلان وزير الزراعة رئيس العربي الإشتراكي ووزير المعارف رئيس البعث ولهذا فلنا حق في هذه الأرض . هل يستطيع أحد أن يمنع عنا الهواء أو الماء ؟ نحن نأتي إلى أي أرض نستطيع أن نعيش عليها ونأكل منها ، ولو كنت بدوياً وعندي ماشية أرعاها لتحركت في أي مكان ولا يستطيع الإقطاعي أن يمنعني .

وحمي النقاش بين المختار وعبد الله وحسم ابراهيم الأمر قائلاً :

ـ البيدر في نهايته وعلى عبد الله أن يغادر هذه المنطقة لأن دعاية الحزب أصبحت قليلة ، والإقطاعيون احمرت عيونهم على العربي الإشتراكي والفلاحين .

نهضوا جميعاً من المضافة باتجاه البيادر ، هناك في ساحة القرية كان الهواء قد هدأ وتوقف الدراس وبدأ الناس « يدورون » والعمل على أشده ، جلس الوكيل جاسم أمام دار القصر ، ونزل المختار أيضاً إلى البيادر يتفقد الفلاحين واعمالهم ، ولكن ابراهيم وعبد الله ذهبا على جواديهما باتجاه الشرق إلى عشائر البدو التي لم يذهبا إليها منذ وقت طويل . وكان عبد الله يحمل معه بعض المناشير الحمراء التي لا يعرف محتواها ليوزعها على تلك القرى .

تصور الفلاحون في القرية أن مشكلة عبد الله هذه سوف تدفع الإقطاعيين إلى قتله ولكنه حتى الآن لا يزال حياً يرزق .

علقت أم عمر قائلة :

ـ أطلب الموت توهب لك الحياة .

وقال أبو عمر :

ـ ليس كل الناس أعصابهم قوية . عائلة عبد الله هذه تربت منذ البداية على قسوة الحياة .

جلس المختار أبو حميدة مع الدكنجي عند باب القصر وراحا يتشاوران في مشكلة الإنتاج ، الآن بدأ توزيع الإنتاج ووصل مندوب الحجي وأخذ له مكاناً في حوار سعادته من أجل القسمة وتحصيل الديون . وفي هذا الوقت كانت سعاد تعمل في البيادر والناس يعملون ويتصبب العرق من جباههم وحتى الأطفال مع أمهاتهم على البيادر أيضاً .

ركب المختار فرسه وذهب مع العسس إلى محطة القطار لأن الحجي وصل إلى المحطة ، وعليه أن يلتقيه هناك . وكان يصطحب معه في خرجه سلة من الفراخ وثانية من العنب والتين والبطيخ للمدام في المحطة وبعد أن سلم الهدية لها ، رحبت به ودعته إلى شرب الشاي قبل أن يذهب إلى الحجي .

صعد المختار أبو حميدة إلى غرفة المدام وراحت تناقشه في خطبة ابنته حميدة إلى محمود لأن المدام معجبة بسلوم والد محمود ولكنها تخاف عليه فإذا عرف سعادته أن سلوماً له علاقة مع المدام قد يقتله . ولكن المختار يعتقد أن سعادته أصبح في السلطة كما كان في السابق ولو أقل بقليل ولكن المهم أنه عاد ليتولى زمام الأمور الأقل شأناً . وفكر المختار :

الأمور المستجدة معقدة بالنسبة للفلاحين . إنهم يتسائلون: هل من الممكن بعد تولي الحزب العربي الإشتراكي وزارة الزراعة أن يقوم بتوزيع الأراضي على الفلاحين ؟ والحجي يعتقد في نفسه أن كل الناس يريدون أن يصلوا إلى مواقع متقدمة في السلطة وخاصة في المدن سواء العربي الإشتراكي أو غيره فالموضوع موضوع مبادىء وقيم كما يعتقدون ، أما عند الآخرين فإنه موضوع صراع على السلطة.

والحجي هو أكثر الناس خبرة في مثل هذه الأمور فقد أرسل ابنه إلى العربي

الإشتراكي وآخر إلى الأخوان المسلمين وآخر إلى حزب الشعب وفكر عندما يعاتبه سعادته على مثل هذه الأعمال سيقول إن أولادنا خلقوا في زمان غير زمانكم وهل نستطيع يا سعادة البيك أن نسيطر على هذا الجيل ؟.. وكادت المدام تقنعه بفكرة زواج ابنته من الفلاح محمود حيث قالت له :

ـ أنت قبل أن تكون مختاراً كنت فلاحاً مثلهم من يدري قد يأتي وقت من الأوقات يعين فيه البيك مختاراً للقرية وتكون أنت فلاح تحت يده وعندئذ قد يرفض سلوم ابنتك ويقول لك : عندما كنت أنت مختاراً كنت تعلو علينا . لا بد أن الرحمن دخل إلى قلب هذه المرأة حتى تشفق على أمثال سلوم. وبعد أن شرب الشاي ودع المدام ونزل ليسلم على الحجي الذي كان منهمكاً بمراقبة كل شيء حيث ألقى السلام رد الحجي :

ـ ليس لدي وقت لأحك رأسي ولكن ما أزعجني وأقلقني قليلاً هو بغل عبد الله والضجة التي أحدثها العربي الإشتراكي في المدينة بين الفلاحين ماذ بوسعنا أن نعمل أمام مثل هذه المهزلة التي وقعت ؟!

فرد المختار :

ـ نحن لا دخل لنا بمثل هذه المواضيع وكما يأمر سعادته في القرية ننفذ ، لا نخالفه إطلاقاً وفيما يتعلق بالإنتاج والموسم فسيصل تباعاً كما أن مندوبك في القرية وديونك يسددها الفلاحون ولكن يا حجي يجب أن تعلم أن الديون كبيرة جداً لدرجة أنه قد لا يبقى للفلاحين شيء من الموسم . المشكلة عندهم مشكلة الأسعار وليست مشكلة البغل .

هز الحجي برأسه وأردف :

ـ الأسعار تحددها الحكومة ولا علاقة لي أنا في مثل ذلك. سمعتها من الشارع وأنا أحاسب الفلاحين انطلاقاً منها.

وتابع الحجي قائلاً :

ـــ الآن تسلم العربي الإشتراكي وزارة الزراعة وهو يعرف كل مشاكل الفلاحين فليحدد الأسعار كما يرغب ، هذا ما يريده الفلاحون ، آه ... ما رأيك يا مختار ؟

وقال المختار :لا إله إلا الله ! الأسعار والأعمار بأمر الله!

ـ أسعار العدس والجلبان انخفضت بدرجة لا تسد أجرة الحصادين وخاصة الشعير .

ورد الحجي :

ـ وما بوسعي أن أعمل ؟ .. يا رجل كل يوم أسعار جديدة ؟

وفكر الحجي : لو استلم العربي الإشتراكي كامل الوزارة لن يستطيعوا أن يغيروا الأسعار أو شيئاً من الظروف القائمة التي حددناها . بالإتفاق مع بنك الياس نحدد الأسعار ، وكيف يجب أن تكون الفوائد .

وقال المختار رافعاً صوته :

ـ ولكن هناك تذمر من هذه الأسعار بين الفلاحين ، وقد يشتكون إلى الحزب أو إلى وزارة الزراعة .

ورد الحجي قائلاً بعد أن هز رأسه ولوح بيده :

ـ خيراً فليشتكوا .. وهل أستطيع أن أمنع الشكوى . إذا رغب الوزير أن يعدل الأسعار عليه أن يفعل ، ولكن أتصور ان وزير الزراعة لا يستطيع أن يعدل هذه الأسعار فهو يريد ان يرضي أيضاً اصحاب الخانات لأنه بدونهم لا يستطيع أن يتنفس . وهو يعرف ذلك جيداً .

وتابع الحجي وهو يربت على ظهر المختار :

ـ كان عليكم أن تقنعوا عبد الله ألا يقوم بهذه المهزلة لمصلحته في المستقبل لأن هؤلاء الناس الذين طردناهم منذ سنتين من هذه المنطقة اعدتموهم إليها كنواطير لأنهم في تلك المناطق الساحلية لا يعرفون طريقة صيد الأسماك ولا يستطيعون أن يربوا الجواميس وهم غير قادرين على تربية الخنازير . وعندما طردناهم إلى تلك المنطقة كنت أعلم أنهم سيموتون جوعاً . لذلك أنا أستقبل ابراهيم وأسايره وأقول له: مفيد جداً أنك أرسلت أبناءك إلى المدارس . ويجب أن تعرف يا أبا حميدة بأننا من مئات السنين ونحن ندير الخانات بطريقتنا . وهذا الحزب الذي بدأ الإقطاعيون يتسللون إليه هم وأبناؤهم وأصبحوا أعضاء فيه وانت تعرف في المنطقة الغربية أصحاب القرى العشرة أصبح أحدهم عضواً في قيادة فرع العربي الإشتراكي في المدينة . فهل بعد ذلك يستطيع أحد أن يغير شيئاً ؟

الآن صراع عائلات أكثر ما هو صراع مبادىء كما يتصور الناس في المدينة . الأغنياء هم الذين يحكمون والعائلات تتصارع بين بعضها بعضاً ، والفلاحون المساكين هم الذين يدفعون الضريبة .

توقف الحجي قليلاً ثم تابع :

ـ كيف حالك يا أبا حميدة وكيف الإنتاج في القرية والقرى المجاورة ؟

ورد أبو حميدة :

ـ كل شيء يسير كما تريد ولكن الأسعار هي التي تحيّر. وقال الحجي : بسيطة يا رجل .. بسيطة .. كل الأمور ستحل في المستقبل . الزمن حلال المشاكل .

والتفت الحجي إلى عماله وصاح :

ـ أنا سأركب بالأوتومتريس إلى محطة رحيم . وعليكم أن تتابعوا العمل بكل نشاط (ونظر إلى وكيله وأضاف) راقب العمل لا أريد كسلاناً !

والتفت أبو حميدة إلى الحجي قائلاً :

ـ ونحن سنعود إلى القرية أيضاً .

ركب أبو حميدة فرسه راجعاً إلى القرية مع العسس يفكر بما قالته المدام حول ابنته حميدة ومحمود . ورغم نصيحة المدام له ونصائح كل الفلاحين فهو لم يعرها اهتماماً . أخذ يحسب بأن موقعه الآن قد يتعزز مع سعادته أكثر من السابق لأن سعادته رجع إلى السلطة . وصل إلى القرية مساء . كانت الحياة تسير كما هي ، لقد أنهى الفلاحون حسابات البيادر مع مندوب الحجي . وأخذوا يفكرون من يرحل ومن يبقى ومن يأتي ؟ ففي مثل هذا الوقت من كل سنة على المختار أن يذهب إلى سعاته ليأخذ توجيهاته وإرشاداته هن كل ذلك ، فسعادته يرد على أسئلة المختار « في الحركة بركة » . وهو يقصد زيادة استغلال للفلاحين ، وتفكيك المجتمع وزيادة السيطرة عليهم .

كان الفلاحون مجتمعين في ظل جدار القرية يفكرون بأنفسهم في حالة صمت وشرود منهم من يلهو بأذيال عبائته، ومنهم من يدخن ، ومنهم من يلعب بعود من القش بالتراب ذلك أنهم يفكرون كواحد . في نهاية الموسم لم يبق للفلاح إلا ما يكفيه لشهرين أو ثلاثة ، فالحجي أخذ البيدر بكامله من ديون وغير ديون وسلف كما كان سابقاً يعمل وهاهو الآن يعيد الكرة والعجلة تدور .

وفي اليوم التالي ، ركب المختار أبو حميدة والوكيل جاسم والشيخ سعدو ، وكل منهم على دابته واتجهوا جميعاً إلى المدينة . كان الحجي يستقبلهم كعادته جالساً في غرفته وعلى يمينه دفاتره المكدسة .

كل قرية لها دفتر خاص ، يضع نظارته على عينيه ويدقق في قيود الفلاحين ويستعرض الأرباح والفوائد .

وعندما دخل المختار وألقى السلام على الحجي لم يكن لديه الوقت ليرفع نظارته من عينه ويضع القلم جانباً .

فرد السلام وقال :

ـ إجلسوا أهلاً وسهلاً بكم دون أن يعرفهم لأنه لم ينظر في وجوههم لكثرة الذين يدخلون عليه ويخرجون . منهمكاً في تصفية حساباته مع الفلاحين وحساباته مع أبي جورج ومع الخان الغربي والمواد التي تشحن الآن إلى بيروت وطرابلس عن طريق السكة الحديدية ومحطات القطار . ومندوبيه قدموا له في آخر الليل الحساب عن التصدير والتوريد إلى الياس في بيروت وعقله يعمل كآلة حاسبة . جلس المختار أبو حميدة والشيخ سعدو والوكيل جاسم . وأحضر لهم السائس الشاي وأخذوا يشربون . وعندما رفع رأسه عن الدفتر ورفع نظارته فقال لهم بتعجب :

ـ أنتم هنا ؟ أهلاً وسهلاً مختار أبو حميدة .أهلاً بالوكيل جاسم كيف حال الشيخ سعدو .

وعاد ثانية ووضع نظارته على عينيه ثم عاود الكتابة ، وقال للمختار وهو يكتب :

سوف أسافر إلى العاصمة لألتقي سعادته ونجري تصفية الحسابات ما رأيك أبو حميدة وإذا كان هناك من الفلاحين من يرغب أن يرحل إو يأتي إلى القرى أخبرني.

فعلق المختار أبو حميدة بعد أن أخذ رشفة من الشاي وتنحنح :

ـ جميعنا نراجع سعادته .

وقال الشيخ سعدو :

ـ نحن نذهب معكم جميعاً . (وخطر في باله ملهى الكروان وفندق الأهرام

عندما اصطحبوه إليه في المرات السابقة قال لهم الشيخ عبد الرحمن لقد ارتكبنا خطأً في أخذ الشيخ سعدو معنا حيث فضحني في الريف .

وصاح الحجي للسائس بصوت عال :

ـ أحضر الغداء للضيوف .

والتفت إلى الشيخ سعدو قائلاً :

ـ لم ترد الأغنام بالكمية المطلوبة وبعض أشخاص من عندكم لم يسددوا لأصحاب الدكاكين في المدينة ديونهم أرجو أن تأخذ علماً بهذا يا شيخ .

ورد الشيخ سعدو :

ـ لكن يا حجي سوف يسددون ديونهم ولا أحد يأكل ديون أحد والناس عندهم ذمة ولا يأكلون حراماً .

ايه قال الحجي :

ـ ولكن في هذه الأيام الدنيا مقلوبة على رأسها . الناس لا يميزون بين الحلال والحرام .

ورد الشيخ سعدو بنبرة عالية بعد أن نظر شذراً في وجه المختار والتفت إلى الحجي :

ـ لكنك تعرف أن هناك أناساً فقراء وكما يقول المثل (العين بصيرة واليد قصيرة) ماذا نعمل إذا أجلنا الديون شهراً أو شهرين ؟

أذن المؤذن للعصر فتملص الحجي من الإجابة قائلاً :

ـ هيا ، علينا أن نذهب إلى الجامع ليغفر الله لنا فصلوات وأدعية الشيخ سعدو لا تكفي .

ذهب إلى الجامع و لم يجد الآخرون بداً من الإنصراف كل إلى حال سبيله .

وبعد فترة عاد أبو حميدة والتقاه الحجي على انفراد . سأله الحجي :

ـ ما رأيك هل نأخذ المختار داوود أو لا نأخذه . كان الحجي يعرف أن المختار داوود هو مختار في قرية تابعة لأحد الضباط المسؤولين ولذلك عليه أن يسايره ويأخذه معه . فالحجي يحسب حساباً للذين يأتون إلى السلطة في المستقبل.

وعلق الحجي عن العربي الإشتراكي : سمعت أنه نشيط في الريف وأنا شاهدت حتى العتالة يتحدثون عن المناشير ولكن هذه ليست مشكلة بالنسبة لنا فالعربي الإشتراكي حزب جيد، والأخوان المسلمون أيضاً حزب جيد ، وحزب الشعب حزب جيد والكتلة الوطنية أيضاً جيدة وكذلك القوميون السوريون ؟

وقال المختار أبو حميدة :

ـ ولكن يا حجي هذه السنة الأسعار متدنية جداً قد تضرر فيها الفلاحون كثيراً لأنهم لن يستطيعوا أن يشتروا مؤونتهم ولك محاصيلهم لا تستطيع أن تفي ديونك .

ورد الحجي :

ـ لا حول ولا قوة إلا با لله العظيم ، يا مختار أنت لا تعرف السوق هنا أنت لا تعرف إلا سوق القرية وأنهى الحجي حديثه بهذه الجملة التي قالها بحذر .

كان الحجي يعتقد أن الشيخ عبد الرحمن أكبر دعاية له بالريف بين الفلاحين وهو يعرج عليه إسبوعياً ويأخذ قنباز أو عباءة لزوجته أو أحد أولاده ولا بد أن ينشر له الدعاية بين القرى ويدعو للحجي بطول العمر ويتحدث عن إيمانه وعن حجته ومساعدته للفقراء . لذلك لم يعر اهتماماً لأقوال المختار أو الشيخ سعدو .

وصل الشيخ عبد الرحمن ليلاً ثم وصل الشيخ صفوك ، فرافقهما الحجي مع المخاتير إلى محطة القطار وركبوا الأوتومتريس جميعاً باتجاه العاصمة التي وصلوها عند المغيب ، ثم ذهبوا إلى فندق الأهرام ، وفوجيء أبو العز مدير الفندق بمجيئهم

المباغت لكنه رحب بهم كثيراً . وركض ماسح الأحذية نعيم ليأخذ أحذيتهم بعد أن أخذوا مجلسهم في بهو الفندق ، ليلمعها ويعيدها إليهم . والحاجب سمير أحضر الشاي بسرعة للحجي وسأل بتأدب هل يتعشى الضيوف الأكارم هنا ؟ .. وافتر ثغره عن ابتسامة ذات معنى .

وفي هذه الفترة خرجت شهناز من غرفتها وكانت ترتدي لباساً شفافاً أظهر مفاتنها ، صافحت الشيخ صفوك قائلة بدلال ظاهر :

ـ أهلاً بشيخ عشائر البدو . وسلمت على الحجي دون اكتراث ثم رحبت بالمختار أبو حميدة وشدت على يد المختار داوود وسلمت على الشيخ عبد الرحمن وقالت : أهلاً بالشيخ عبد الرحمن الذي يفتي ويدعو لنا ليغفر الله خطايانا . وكان أبو العز يدخن نارجيلته بهدوء وهو يراقب هذا المشهد وقد أحضر للحجي نارجيلة ثانية وهناك امرأة تدخن وتنفخ دخان سيجارتها على الحجي . كانت تنظر إلى لباسهم ، وتتصورهم باعة في دكاكين . وقال الحجي في نفسه : لو أنها تعلم كم يوجد معي من النقود وما في داخل رأسي من أفكار لكان سلوكها نحوي أفضل بكثير .

ثم التفت إلى أبي العز قائلاً :

ـ سنتعشى في ملهى الكروان وشهناز ستتولى كل شيء أما النقود فأنت تحاسب يا أبا العز وليست هناك مشكلة. بالنسبة للشيخ صفوك عنده نقود كثيرة وهو يستطيع أن يدفع للحجي وحتى لو أراد كل من في الفندق أن يذهب إلى ملهى الكروان على حساب الشيخ صفوك لرحب الشيخ بذلك .

فرد الشيخ صفوك ضاحكاً :

ـ المشكلة ليست مشكلة مال يا رجل :

كان الحجي يعرف مشكلة الشيخ صفوك وهي كيفية الوصول إلى البرلمان ولذلك فكر بأن يأخذه معه ليقابل سعادته كما وعده في المرة السابقة طالما أن سعادته عاد إلى السلطة . فالشيخ صفوك لا بد أنه قادم إلى البرلمان ووجوده عند سعادته ليقدم له الولاء من البداية أضمن حتى يكون في صفه إذا ما وصل إلى البرلمان يكون صوته إلى جانب صوت سعادته .

هكذا فكر الحجي بينه وبين نفسه .

أما المختار أبو حميدة فقد حصر ذهنه بما يتعلق بتبديل الفلاحين وتبديله من موقع لآخر فعليه أن يأخذ رأي سعادته بهذا الموضوع لا أكثر ولا أقل .

ذهب الحجي والمختار والشيخ صفوك إلى بيت سعادته وطرق الباب وكان شرطي يقف حارساً حيث قال لهم :

ـ سعادته عنده اجتماع .

فقال له الحجي :

ـ أعلمه أن المختار والحجي في الخارج .

بعد قليل عاد الشرطي وأدخلهم وقدم لهم القهوة . جاء سعادته بعد مضي نصف ساعة سلم عليهم . مبدياً عدم الإكتراث بسؤاله للحجي ؟

ـ ما هي المواسم ؟ كيف كان الإنتاج ؟ وما هي الأموال التي صرفتها وفي أي بنك أودعتها ؟

هل حصّلت كافة الديون والفوائد من الفلاحين ؟ وقالها بسرعة وهو يجلس على الكرسي .

ورد الحجي متأدباً وهو واقفاً :

ـ نعم يا سيدي كل شيء كما ترغبون فقد حصلنا أغلب الديون و لم يبق إلا

القرى التي كانت مواسمها غير جيدة . ولقد وضعت الأموال عند الياس في البنك وهو بدوره حولها إلى بنك فرنسا وهذا هو كشف الحساب . وأخرج ورقة من جيبه يظهر عليها أرقاماً كثيرة بالمبلغ الذي سلمه إلى الياس . وتابع لقد أحزننا وضعكم أثناء الإنقلاب الماضي ، و لم نستطع أن نعمل شيئاً عندما اعتقلكم ذلك المشير المجرم ..

وانتفض سعادته كمن مسه تيار عند سماعه المشير وهز رأسه قائلاً :

ـ المشير كان رجلاً أرعن أحمق لا قى حتفه نتيجة عمله وأنا نصحته قبل أن يتورط في مثل هذه الأعمال . هذه خطيئة ارتكبناها عندما أعدناه إلى الجيش و لم نكن نتصور أن له ارتباطات وله مشاكل خاصة ولكن هذه نهاية كل رجل أحمق ومتهور لا يعرف حدوده . ولكننا علمناه حدوده ووضعنا له حداً أبدياً وهذا عبرة للآخرين . عندما أتى الرجل الثاني في الإنقلاب الجديد عرف حدّه من البداية فأعاد السلطة الشرعية لأصحابها . ولكن الآن دعنا في الحسابات .

وهز الحجي رأسه وقال :

ـ بعض القرى كان إنتاجها ضعيفاً .

ـ والقرى الغربية كيف حسابها ؟

ـ إنتاجها وفير ...

ـ والقرى الشمالية .

ـ جميعها بحالة ممتازة .

ـ وكيف سعّرت المواسم ؟

ـ كانت الأسعار منخفضة جداً وبذلك لم يستطع الفلاحون أن يسددوا ديونهم .

وهز سعادته رأسه وقال :

ـ كيف التصدير ؟ كيف حاسبت الياس ؟

فرد الحجي :

ـ رفعنا الأسعار إلى حد ما في السوق الخارجية .

وقال سعادته :

ـ يقولون في وزارة الزراعة أنكم تلاعبتم في الأسعار . وفي مشكلة القوت اليومي للفلاحين وأنت تعرف أنني لا أرغب بذلك ، قالها بصوت منخفض كمن يحدث نفسه . وعرف الحجي مغزى حديثه أنه يوافق حتى ولو أخذ كل إنتاج الفلاحين .

ورد الحجي قائلاً :

ـ طلاب المدارس والمعلمون ينادون طوال النهار في المظاهرات وأحياناً يحاولون أن يغلقوا السوق ولكن يبدو أن لا فائدة من كل ذلك والأمور تسير كما تريد سعادتكم . دعايات الإنتخابات بدأت من الآن فما هي توجيهاتكم حتى نقوم بواجبنا .

ورد سعادته قائلاً :

ـ موعد الإنتخابات نخبركم في حينه . ولكن كيف خططتم لهجرة الفلاحين ؟ لا داعي ، لا زال لدينا متسع من الوقت . لن أتكلم مع المختار بهذا الخصوص تصرف أنت والمختار بما يتعلق بتحركات الفلاحين .

فأجابه الحجي :

ـ أنتم تعرفون حق الرجال فتضعون كل شخص في مكانه . ثم نهضا وخرج سعادته من الغرفة وتبعه الحجي . ونظر في وجه الشيخ صفوك قائلاً :

ـ كيف الشيوخ ؟

ورد الشيخ صفوك قائلاً :

ـ جميعهم تحت أنظارك يا سعادة البيك .

ورد سعادته بصوت عال :

ـ أتمنى من كل قلبي أن أشاهد الشيخ صفوك في البرلمان ونكون سوية في المستقبل . وكتلة العشائر كما نرغب تقف بصفنا وخاصة أنت تعرف قد يصل احد النواب الإشتراكيين على البرلمان او البعثيين وسوف نحدد الإنتخابات في فترة رأس السنة . ولكن جهز نفسك يا شيخ وسوف اشاهدك إن شاء الله في البرلمان وتكون شيخ عشائر المنطقة بكاملها .

والتفت إلى المختار قائلاً :

ـ أما فيما يتعلق بتحركات الفلاحين فأنتم أدرى في ذلك. فهنالك الوكلاء ورشاد بك يوجد في المنطقة له حصة في كل قرية وشركائي من الملاّكين ، فشاوروهم وحلوا الأمور على الطبيعة . ولكن لا تضحكوا في وجوه الناس وتعطوهم أملاً كبيراً . وقصة الجنرال والمارشال انسوها فقد لاقى هذا الأحمق جزاءه العادل . ودخل إلى غرفته وخرجا من الباب الثاني .

قبل البذار بقليل كان على سلوم وابنه أن يطلبا علناً وأمام الناس حميدة من أبيها . وكان المختار أبو حميدة متأثراً بنصائح المدام في المحطة فأصبح أكثر ليونة مع سلوم وأكثر ملاطفة له و لم يعد يهمله في مضافة القرية وأصبح يشعر بوجوده فيكن له الإحترام .

تحدث سلوم مطولاً مع الشيخ سعدو وأبو عمر وابراهيم حول خطبة حميدة لابنه من المختار وحتى سعاد تدخلت في هذا الموضوع لصالحه . وسيرة هذه البنت أصبحت على كل لسان ، فكل هذه الأمور دفعت المختار إلى أن يوافق ضمناً على خطبة حميدة لمحمود .

وقبل تحضير الأرض للبذار أتى سلوم ودعا الشيخ سعدو والوكيل حاسم والعسس وابراهيم وأبو عمر لخطبة حميدة وذهبوا جميعاً إلى بيت المختار وهناك جلسوا في مضافة أبو حميدة و لم يخف على المختار أبو حميدة هذا الأمر للوهلة وكانت سعاد قد نقلت الأمر إلى أم حميدة . ففرحت من كل قلبها وكذلك الفتاة التي لبست فستاناً جميلاً منذ الصباح.

اتفقوا على كل شيء ، لم يعالج أبو حميدة الموضوع كثيراً وقال :

ـ إن هذا الموضوع قد أشبع تمحيصاً بين أخذ ورد وإشاعات وأقاويل ويجب أن نضع لها حداً وسنحدد المهر كما يرتأي إبراهيم والشيخ سعدو . أنا لست بحاجة إلى أغنام وماعز ولا بحاجة إلى بقر وخيول فالنقد يجب أن يكون عملة ذهبية.

واتفقوا على المهر واتفقوا على أن تدفع نقطة الوكيل ونقطة لسعادته وهدية لرئيس المخفر وزكاة للشيخ سعدو الذي رفع يديه إلى السماء وأخذ يقرأ الفاتحة بصوت عال ويرددها وراءه الآخرون . ونهض سلوم وقبّل رأس أبو حميدة وجاء محمود حيث قبّل يد المختار وقبّل يد الشيخ سعدو وقبله المختار على خديه وكذلك فعل والده . وسلم على ابراهيم وأبي عمر والوكيل حاسم فقاموا يهنئونه وارتفعت زغرودة أم عمر من دار المختار تبعتها زغرودة أم محمود وأم حميدة . لقد قبض أبو حميدة جزءاً من المهر الذي كان في محزم سلوم . وبقي جزء منه يقدمه له خلال شهر .

تجمع أهل القرية شباباً وفتيات ولبسوا أجمل ما عندهم وأخذ محمود مزماره ، وعقدت حلقة الدبكة في ساحة القرية وجاء الغجر ، طبالون وعازفون وراقصون وذبحت الخراف في بيت المختار للغداء . وانتهى هذا الحفل الصغير بسرعة .

لم يعلم المختار داوود بالخطبة وحتى أن المختار أبو حميدة لم يحدث الحجي بأنه خطب ابنته إلى محمود لأنه اعتبر المسألة شخصية تخصه هو بمفرده واخذ رأي الصغار لأنهم يكنون له الإحترام و لم يأخذ من هو أكبر منه لأنهم قد يوجهون له كلمة تجرحه وتهينه .

وبعد يومين فوجئت القرية بمخاتير القرى قادمين راكبين على خيولهم . كانوا أكثر من عشرين مختاراً يتقدمهم المختار داوود متلحفاً بعباءته وخيولهم قد بللها المطر وصلوا إلى المضافة فخرج العسس راكضاً حيث رحب بهم وربط خيولهم بجانب جدار قصر سعادته ووضع لها الأعلاف . ودخلوا المضافة وأشعلت النار فوراً وبدأ تحميص القهوة ودقها من جديد .

عندما شاهد الناس المخاتير على خيولهم ظنوا أن هناك حدثاً هاماً وقع . لا بد أن انقلاباً وقع أو مشكلة حدثت لسعادته أو قد تكون محطة القطار قد احترقت واحترقت معها الحبوب في مستودعات الحجي . وترك قسم من الرجال عمله وذهب إلى المضافة ليستطلع الأمر . وتذكروا أنهم لم يشاهدوا هذا التجمع من المخاتير إلا عندما جاء المختار سحيم لحل مشكلة معقدة .

قال، أبو عمر لسلوم :

ــ خير إن شاء الله . علينا أن نستطلع الخبر وأن نذهب إلى هناك .

فرد سلوم :

ــ لا أريد أن ألتقي هؤلاء الناس لأنهم لا يسببون لنا إلا العذاب فاذهب أنت يا أبا عمر وانت يحترمونك لكبر سنك .

أسرع الوكيل جاسم إلى مضافة القرية فرحب بهم قائلاً :

ــ أهلاً وسهلاً بكم شرفتم القرية بمجيئكم .

وخرج أبو حميدة مسرعاً وفوجيء بهم وقال :

ـ حضّر الذبائح يا عسس .

كانوا صامتين يجيبون على كلمات الترحيب بإشارات مقتضبة من رؤوسهم .

كان ابراهيم والشيخ سعدو ينظران في وجوههم وكأن لهم حديثاً آخر مع المخاتير .

قال الوكيل جاسم :

ـ نحن نعرف أن ليس لنا إلا سعادته وهذا معروف للناس عامة .

وهز الشيخ سعدو رأسه قائلاً :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . وفكر في نفسه أن في عيونهم حديثاً أو طلباً ما.

وعندما جهز الغداء وأراد العسس أن يصب القهوة صاح المختار قائلاً :

ـ لا نشرب القهوة قبل أن يحل لنا المختار أبو حميدة المشكلة .

وقال المختار أبو حميدة :

ـ وهل أخحّل المخاتير ؟ معاذ الله . أنا مستعد لتلبية طلباتكم مهما تكن . فأنتم مخاتيرنا وقدومكم إلينا شرف كبير لنا . إشربوا القهوة على بركة الله .

وعلق أحدهم :

ـ المختار أبو حميدة لا يخحل أحداً .

والتفت إلى المختار أبو حميدة وقال :

ـ نشرب القهوة بشرط أن تكون حميدة للمختار داوود .

وساد صمت . ونظر أبو حميدة إلى وجه الرجل وكأن مدية طعنته في صدره فالفتاة خطبت لرجل آخر قبل يومين .

وصعق الشيخ سعدو ونهض قائلاً :

توقفوا لقد قرأت الفاتحة . فحتى لا تقولوا أعطيناكم وعداً ونكثنا به أعلمكم

بأنني قرأت الفاتحة للبنت حميدة على محمود وأنا شيخ هذه القرية لا أخالف الإسلام فلم تجف بعد دماء الخراف التي ذبحت لخطبة هذه الفتاة . فالفتاة خطبت منذ يومين لمحمود بن سلوم وقرأت أنا الفاتحة وقبض والدها مهرها وقبل الوكيل هديته وأرسلت إلى رئيس المخفر هديته هل نستطيع أن نفك هذه الزيجة بعد كل هذا ؟ أنا لا أتمكن من قراءة الفاتحة مرتين على الفتاة نفسها هذا مخالف للشريعة الإسلامية .

وجلس متربعاً في مكان وتوقف الجميع عن شرب القهوة وران صمت .

بدأ الوكيل جاسم يفكر ، إذا أخذ المختار داوود حميدة هل سيكون موقعه أقوى وهل يستفيد أكثر منه في المستقبل .

إبراهيم قلقاً لا يعرف كيف يتصرف وهو يدرك أن المختار أبو حميدة كان مسلوباً مثله .

لكنه علق موجهاً حديثه للمخاتير :

ـ أنتم مخاتيرنا ونحن نكنّ لكم كل الإحترام . أنا كنت فلاحاً عند أغلبكم وأنتم تعرفونني وتعرفون أني أحترمكم لكن الفتاة خطبت منذ يومين وأكلنا الخراف وقرأ الشيخ سعدو الفاتحة هل نستطيع بعد هذا أن نلغي كل ذلك ؟ نحن نترك الأمر لكم فأنتم الأعلم والأدرى بعاداتنا وأعرافنا .

وصاح مختار الوادي قائلاً :

ـ أي أعراف أو عادات تقول عنها يا إبراهيم نحن الذين نقرر حتى لو كانت متزوجة سنطلقها ونأخذها هل نحن لا نعرف الأعراف والعادات ومن يقرر الأعراف والعادات إلا نحن ؟ هل تعطينا درساً في الأخلاق .

ورد ابراهيم بلطف :

ـ أنتم ضيوف القرية ولا نريد أن تحدث مشكلة بيننا . وكل منا يعرف الآخر يا مختار . لقد بقينا في قريتك سنة ودسنا على رقبة سيدك في البيدر . لا ترفع صوتك عالياً فأنت في قريتنا ولا نريد أن نهينك .

وتدخل مختار الصحراء قائلاً :

ـ نحن المخاتير في ضيافتكم وعلينا أن نحل المشكلة بهدوء.

المخاتير كانوا في ورطة لأنهم لم يعلموا بخطبة حميدة قبل الآن .

فتدخل المختار داوود قائلاً :

ـ لقد أتيت وطلبت منكم ذلك وكل علمي أنها لم تخطب بعد . كل ما أعرفه أنها خطبت للمختار سحيم رحمه الله اقرؤوا الفاتحة على روحه . وقرأ الجميع الفاتحة على روح المختار سحيم ثم هدؤوا قليلاً . وظل العسس واقفاً في وسط المكان وبيده دلة القهوة لأنهم لم يشربوا القهوة بعد .

وقال أبو حميدة :

ـ توكلوا على الله واشربوا القهوة سوف نناقش هذا الموضوع بهدوء عسى أن يكون فيه الخير الذي يرضي كل الأطراف فالبنت مقروءة فاتحتها وليس معقوداً عليها .

فجأة ارتفع صوت أبو حميدة . فكر في نفسه إذا غضب المخاتير فستكون بينه وبينهم مشاكل كثيرة في المستقبل . والمختار داوود قادر على إزعاجه . لم يلغ الخطبة حتى لا يحتقره أهالي القرية وفي الوقت نفسه أعطى المختار داوود فرصة أمل . وهكذا أرضى أغلب المخاتير .

رفض المختار داوود أن يتناول الغداء فنهض مع جماعته وركبوا على خيولهم وبقي قسم منهم في القرية ليتابعوا الموضوع .

وعصر ذلك اليوم تجمعوا في بيت أبو عمر بينما تجمعت النسوة في بيت سعاد.

قالت سعاد كلمات نابية عن المخاتير :

ـ لا يستحون وكما يقول المثل « فقد فقع شرش الحياء في وجوههم » لقد جمع وجهاء القرى وجاء بهم وكان حميدة دجاجة يريد أن يأكلها ويمشي وهل الدنيا خلت من المروءة يا ناس .

كانت سعاد غاضبة لأنها هي التي ساهمت في تهيئة الجو لمحمود . اما أم عمر فقد ضربت كفاً بكف وتقول :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . ساعة نحس ، هكذا يفكر المخاتير فماذا نقول عن الفلاحين ؟

وأردفت أم حميدة :

ـ لا يمكن أن يأخذها المختار داوود وفيّ عرق ينبض ولن يأخذها إلا محمود .

كان محمود يستمع فقال :

ـ في البداية لم نكن مخطوبين كنا نتلقى الشتائم والإهانات من أجل هذا الحب أما الآن فقد أصبح كل شيء شرعياً . هل يسمح القانون بأخذ خطيبتي مني .؟ وسحب عقاله عن رأسه ورماه إلى الأرض وداسه قائلاً :

ـ لن أضع هذا العقال على رأسي حتى أتزوجها أو أموت من أجلها .

كان أبو حميدة يسمع النقاش وهو قلق غاضب وقد اصفر وجهه عندما سمع الناس يشتمون ويتذمرون .

فقال في نفسه : أنقذني يا رب . ماذا حل بي . هم وجهاء المنطقة ومخاتيرها

فكيف أقنعهم المختار داوود هذا الشيطان الرجيم وأتى بهم ليخطب ابنتي وهو يعرف أن المختار سحيم لم يمض عليه شهور قليلة . هل الدنيا فنيت و لم يبق فيها إلا هذه الفتاة .

كان الشيخ سعدو يقرأ بينه وبين نفسه بعض الأيات . سألوه ما رأيك يا شيخ سعدو : فقال :

ـ لا حول ولا قوة إلا با لله العظيم . ولكن اصبروا إن ا لله مع الصابرين .

وعلق ابراهيم :

ـ بعض المخاتير يتصور أنه يمكن أن يرفع صوته علينا مثل أيام زمان ونسي أن انقلابات عدة حدثت من أجل ألا ترتفع هذه الأصوات . وهذا المختار الذي رفع صونه أهنته ذات مرة هو وسيده قبل أن يحدث إنقلاب . والآن أتى يرخي عباءته ويحمل مسدسه ويهددنا .

أما سلوم فقد قال :

ـ إذا ضغطوا علينا بمساعدة الأقطاعيين فهناك العربي الإشتراكي سيساعدنا . في الأمس عندما حدثت مشكلة من أجل بغل مسروق ، هزئنا من كل الإقطاعيين وهزئنا من سعادته أمام السرايا وأمام المحافظ أما الآن فالأمور أكثر أهمية لأنها تتعلق بشرف امرأة وكل هذه القرية متضامنة ومتعاطفة ومصممة على خطبة الفتاة لمحمود ويأتي مختار ويقول لا ويعارض كل هذا . هل هذا معقول ؟

كان أبو حميدة يفكر بتهدئة القرية ويرغب باستشارة من هم أكبر منه لأنهم هم الذين يقدمون له المشورة التي تفيده في المستقبل والمدام في المحطة التي نصحته بالموافقة على هذه الخطوبة ستضحك وتقول : عندما يأتي رشاد بك سيكون مخاتيرك جميعهم مثل الفئران .

وتوجه للناس بحديثه قائلاً :

ـ لماذا تقيمون الدنيا وتقعدونها على رأسي كأنني نكثت بالوعد للخطيب محمود ؟.. لن أنكث بوعدي إطلاقاً فنحن قد قرأنا الفاتحة وانتهى كل شيء ولو زعل المخاتير . والمختار داوود سوف نجد له طريقة لمصالحته وربت على كتف محمود الغاضب ليهدئه وقال :

ـ إنها لك يا ابني فلا تخف ولا تفكر في هذا الموضوع . فأنا لا أنكث بوعدي إطلاقاً والفاتحة قرئت وأنا لا أغير فاتحة الشيخ سعدو .

وكانت كلماته التي توخى أن تكون عاطفية نوعاً من تهدئة الخواطر .

ـ ٧ ـ

عاد الفلاحون إلى تحضير الأرض وانهمكوا بأعمالهم جاهدين لتأمين قوتهم وكسائهم . واقترب وقت البذار أيضاً .

كان الشيخ سعدو قلقاً مما حدث في القرية قبل أيام . وعندما التقاه ابراهيم أراد أن يخفف عنه فقال له :

ـ هون عليك يا رجل كل شيء له حل بعون الله . إسمع. سأغادر القرية عند الشروق إلى الغاب بإمكانك أن تذهب معي . وهناك يكنُّ لك الناس كل تقدير واحترام .

ورد الشيخ سعدو قائلاً :

ـ شيء جميل أن أغير هذه المنطقة وأذهب إلى منطقة جديدة وأنا أعلم أن هناك أناساً طيبين يمكن أن يحبهم المرء . لقد كنت مسروراً بجلستي مع الخوري والشيخ عبد الهادي . يبدو أنه مثقف وأنه عالم في المذاهب الإسلامية . وكما قال المثل العربي « في الحركة بركة » .

وعلق ابراهيم قائلاً :

ـ نحن أصدقاء منذ سنوات عديدة وبيننا عشرة عمر . سنذهب الآن وسنتوقف في منطقة سيحر وهناك نتناول الغذاء عند بعض الأصدقاء وبعد الغداء نتابع المسير إلى القرية . ومن هناك نتصل بالخوري ونمر عليه ونصحبه معنا إلى عند

الشيخ عبد الهادي في القرية وإذا وصلنا قبل الغروب ننام في بيتنا هذه الليلة . هذا رأيي فما قلت ؟

ورد الشيخ سعدو :

ـ وأنا موافق .

أخبر الشيخ سعدو زوجته وأولاده بمغادرته قبل الشروق إلى منطقة الغاب وأعلم أسرته بأنه قد يبقى هناك أسبوعاً أو أكثر .

وبعد أن أذن الفجر وبدأت نجمة الصبح بالظهور غادر القرية برفقة إبراهيم فأخذا الطريق الترابي باتجاه وادي الدوارة وفي بداية الطريق ساد صمت بين الإثنين. كانت تسمع فقط صوت حوافر الفرس والحمارة ، كان الشيخ سعدو ينظر إلى حمارته ويفكر طويلاً بأنها رافقته إثني عشر عاماً وهي تنقله بأسفاره بين البدو والقرى والمدن ذهاباً إياباً .

ولو قاس المسافات التي قطعتها هذه الحمارة لبلغت المسافة بين طرفي العالم .

تذكر ذات مرة عندما كان راكباً على ظهر حمارته في طريقه إلى مضارب البدو هاجمه ذئبان فجمدت الحمارة في مكانها من الرعب وجمد هو أيضاً بينما كان الذئبان يراقبانه عن قرب . يومها لو شن الذئبان هجوماً عليه فقد يمزقان الحمارة وقد يصاب هو بأذى .

لم تسعفه ذاكرته بترديد آية قرآنية واحدة من الآيات التي يحفظها . ونسي كل رجال الدين وبلل العرق جلبابه ، وأصبح كأنه غارق بحوض ماء و لم يعد إلى طبيعته إلا بعد ذهاب الذئبان في حال سبيلهما . إنه لا ينسى هذه الحادثة . وفكر لو مر أمامه الآن ذئبان ماذا يحدث ؟ معي الآن إبراهيم ومعه بندقيته وهو لا يخاف الوحوش أو الذئاب .

في الصباح كان الطقس لا يزال بارداً والضباب يلف المنطقة . والشيخ سعدو يخاف من الضباب والعتمة فهو لا يحب السفر في مثل هذا الطقس خوفاً من المفاجآت ، لكن ابراهيم يعرف الطريق جيداً ، وفرسه تعرف الطريق أيضاً ولذلك فهو يشعر بالطمأنينة .

راحت أفكار الشيخ سعدو إلى الشيخ عبد الرحمن ولماذا يميل إلى الإقطاعيين وأصحاب الخانات وأحواله جيدة وممتازة ولديه فرس وبغلة ؟ لماذا هذا الطمع ؟ يريد أن يقلل من شأن نفسه ويقلل من هيبته ويغير حتى في الأحاديث من أجل أن يرضي سعادته أو يرضي الحجي .

وفكر في ديونه . في هذه السنين لم يوف كل الديون . بقيت عليه ديون الدكنجي في القرية وعليه أن يبذل كل جهده حتى لا يبقى عليه قرش من الديون الأمر الذي كان يعذبه كل يوم قبل أن يخلد إلى النوم . الدين يؤرقه في الليل ويخيفه في النهار وعندما يشاهده الدكنجي يخجل منه وأحياناً يتحاشاه ، عليه أن يقوم بزيارات للقرى المجاورة وخاصة مضارب البدو . وأن يقيم الموالد الكثيرة ويحصل على الزكاة ليوفي الدكنجي لأنه بمواجهته كل يوم .

قطع ابراهيم الصمت قائلاً :

ـ لقد قطعنا عدة كيلومترات وظهر الضياء من الشرق لا بأس . لا يزال الطقس بارداً والدواب تتحمل هذا الطقس فإذا أسرعنا نصل قبل الظهر وسنرتاح قليلاً .

كان ابرهيم يعرف الطرق ومسالكها وكيفية السير عليها وهو خبير في طباع الفرس والحمارة وكيف تسيران ومتى ترتاحان فكثيراً ما حمّلها من مناطق بعيدة من الجبل بمهربات الدخان إلى مناطق البدو وبالقمح المهرب من السلطات الفرنسية إلى

أهالي القرى البعيدة . وإبراهيم لا يفكر بالذئاب والضباع لأنه كثيراً ما تعرض لأخطارها . لم يفكر بالمخاتير لأنه يعرف أنهم ليسوا أكثر من أزلام للإقطاعيين ويردد دائماً المثل « إياك أن تضرب الذنب عليك أن تقطع الرأس عندئذ يموت الذنب » .

تحدث الشيخ سعدو قائلاً :

ـ أنت تعرف أكثر مني وكيف تسير في البادية ليلاً وتعلم كل شيء . وتعرف أنني لا أغادر القرية إلا إذا كنت ضمن مجموعات الفلاحين .

وبعد لحظة قال ابراهيم :

ـ بماذا تفكر يا شيخ سعدو . هل تفكر بالمخاتير الذين أتوا إلى القرية وأرادوا أن يفسخوا خطبة الفتاة من ابن سلوم . ألم تكن تلك مهزلة يا شيخي .

أعادت الكلمة الشيخ سعدو ثانية إلى مضافة القرية وكيف رفع المختار داوود رأسه في صدر القاعة وكيف أعلن المخاتير بأن العادات والتقاليد من حقهم أو يقروها أو يلغوها وكأنهم يريدون أن ينصبوا أنفسهم أوصياء على المذاهب والشرائع ؟ لقد واجههم بثقة ولكن ماذا كان بوسعه أن يعمل إذا المختار نفسه يريد أن يفسخ خطبة ابنته من ابن سلوم ؟ ماذا بوسع الشيخ سعدو أن يعمل طالما أن صاحب القرار معهم . دون أن يعلم أنه إذا فسخت هذه الخطبة فسوف تحدث جرائم بين الشباب الطائشين أو الفلاحين الذين أصبحوا يترددون على العربي الإشتراكي وقد ظهرت قوة تساندهم ضد الإقطاعيين فماذا بوسع الشيخ سعدو أن يعمل في قرية تعمها كل هذه الفوضى .

وصاح ابراهيم قائلاً :

ـ ما بك صمت و لم تجب يا شيخ ؟

وهز الشيخ سعدو رأسه وضرب حمارته بعصاه قائلاً :

ـ لا حول ولا قوة إلا با لله يا إبراهيم . وا لله رأسي مشغولة بألف مشكلة ومشكلة .

وفي أثناء ذلك عبر ذئب الطريق فلمحه إبراهيم بسرعة فسحب بندقيته التي يعلقها بسرج الفرس وكانت جاهزة فأطلق النار . وكاد الشيخ سعدو يقع عن ظهر الحمارة عندما صرخ :

ـ أعوذ با لله ماذا حدث ؟

فقال ابراهيم :

ـ لم يحصل شيء ولكني شاهدت ذئباً يعبر الطريق . ولو قلت لك ذلك واستشرتك بإطلاق النار لكان ابتعد عنا . وبعد أن أعاد البندقية إلى مكانها دون أن يتأكد من موت الذئب داخل الضباب تابع قائلاً :

ـ أنت تعرف يا شيخ سعدو موقفنا من الإقطاعيين وماذا أدى بنا ؟ لقد طردونا من المحافظة بكاملها و لم يقبلنا أي إقطاعي في أي قرية ولكنا قمنا بهذا العمل مقتنعين بالعربي الإشتراكي وأهدافه وأي عمل يعارض الإقطاعيين فنحن معه ونؤيده مهما كانت الظروف لأننا نشعر بأن الإقطاعيين مجرمون .

فرد الشيخ سعدو :

ـ أنا معكم فيما تقول ومع الإشتراكيين فيما يطرحون شريطة ألا يخالفوا شريعتنا الإسلامية .

واحتازا الوادي الذي ظهرت فيه الخرائب الكثيرة وكان يسمع أحياناً عواء الذئاب والضباع . والشيخ سعدو قلق ، لكن ابرهيم كان يسأله بين حين وآخر ويقطع تفكيره بسؤال عابر لا يتعلق بالطريق ولا بالأصوات ويقول :

ـ لقد اقتربنا الآن سنهبط وادي العاصي وسوف نجتاز قرية معدودة ؟

بدأت الشمس بالإرتفاع طاردة الضباب عن سطح الأرض . توقفا عند أول حانوت على الطريق يشبه دكان القرية فهو يبيع كل شيء ومن عادة إبراهيم أنه كان يتوقف عنده في الذهاب والإياب ويعتبره محطة من المحطات ليشتري منه بعض التمور والحلاوة ويجلس ويشرب الشاي أحياناً .

توقفا وربطا الفرس والحمارة في جدار الدكان الصغير وقديم من أيام الأتراك وعندما شاهد صاحبه ابراهيم رحب به قائلاً :

ـ أهلاً إبراهيم أنت ذاهب إلى الغرب أم إلى الشرق ؟ ماذا معك مناشير العربي الإشتراكي وتريد أن تبيعها ؟ قالها مازحاً ؟

كان الدكنجي فيما بدا موظفاً للدعاية لصالح الإقطاعيين و لم يكن لصالح الإشتراكيين .

ورد ابراهيم :

ـ وماذا يهمك أنت إذا كانت معي مناشير أم لا ؟ إن معلميك لا يستفيدون منك كثيراً .

وضحك الدكنجي قائلاً :

ـ أما الدخان أو البنادق تبيعها للبدو . ولكن الآن يبدو أنك تتاجر بالسياسة فالإنتخابات على الأبواب واسمع نصيحتي يا رجل ، السياسة لا تطعم خبزاً وخاصة الفقراء أمثالنا .

فعلق إبراهيم :

ـ من يكون ضد الإقطاعيين فهو معنا ومن كان مع الإقطاعيين فهو ضدنا سواء فلاحاً أو دكنجياً أو شيخاً . أما الآن فأتينا بالفطور ودع الصباح يمر على خير يا رجل .

كان ابراهيم يتناول طعامه عادة بسرعة هائلة . وقد يأكل وهو راكب على فرسه مطبقاً المثل البدوي القديم « غب غبة الجمال وقم مثل الرجال » ولذلك عليه أن يأكل بسرعة حتى لا يضيع الوقت .

تابعا طريقهما بعد أن ارتاحت دابتهما من مسير حوالي خمسين كيلومتراً باتجاه الغرب ، وصلا إلى بيت عبد الله شقيق إبراهيم . وهناك استقبلتهما زوجته ورحب عبد الله بالشيخ سعدو وأمر زوجته بإعداد العشاء .

وفيما جلسوا يتبادلون الأحاديث أخبرهم الشيخ سعدو عن مهزلة المخاتير . وأثار كوامن عبد الله فصاح مغتاظاً :

ـ لكم كنت أتمنى لو كنت حاضراً لكنت بهدلتهم ومرغت وجوههم بالتراب. لا حول ولا قوة إلا بالله هؤلاء المخاتير لا يخافون إلا من الرجال الذين يحتقرونهم . أنت تعرف قصة البغل لقد هزأت بها كل الإقطاعيين في هذه المحافظة.

وقاطعه الشيخ سعدو قائلاً :

ـ هل تعتقد أن كل الفلاحين مثل عبد الله يتصدون للإقطاعيين ؟ فالذي يقول أنه مع الإشتراكيين فقد يسلخ جلده ويرحلونه في اليوم نفسه .

أحضر العشاء وتحلق الرجال حول طبق القش وعليه البرغل والبصل وقليل من الشنينة .

كان عبد الله وإبراهيم يسكنان في بيت واحد عرضه أربعة أمتار وطوله خمسون متراً وهو مبني من الطوب ويعلوه القصب (إسمه الدام) . وهو أقرب إلى الأكواخ في المستنقعات . مقسم إلى خمسة أقسام قسم منه للحيوانات وقسم للأعلاف وقسم آخر ينام فيه عبد الله وقسم آخر ينام فيه إبراهيم وقسم خامس ينام فيه الضيوف . وسكان الغاب يسكنون في مثل هذه الأكواخ .

الحمير هنا قليلة جداً لأنها تعيش في المستنقعات ولا يعيش فيها إلا البغال والخيول . وعندما تهطل الأمطار تفيض القرية بالماء بينما يخشى في الصيف أي شرارة نار قد تؤدي ببيوتها إلى الإحتراق .

فكثيراً ما أحرقت بعض القرى من جراء شرارة واحدة أو عقب سيجارة واحدة . وكان البعوض يسبب الملاريا وبعض الأمراض الأخرى . ولا يوجد طبيب في المنطقة بكاملها ولا حتى ممرض والممرض الوحيد هو في الواقع معلم المدرسة التي أقيمت حديثاً . إسمه جابر وقد وفد من المنطقة الغربية وهو من أصدقاء إبراهيم وكانا يجتمعان معاً يتدارسان كيف يقومان بنشاطهما الحزبي وكيف يوزعان المناشير .

فكر عبد الله : الشيخ سعدو يعلم الأولاد منذ عشرات السنين عندما يجف الماء ولا يأتي المطر . كان الشيخ سعدو يقيم صلاة الإستسقاء على البيادر ويجمع الأولاد ويرفعون أيديهم إلى السماء داعين الله بأن يهبهم المطر بينما يدق على المزهر بشدة .

وإذا حدث وهطل المطر يقول متفاخراً هذه دعواتي استجابها الله وأرسل الأمطار ، لنحمده يا ناس . ويقرأ الفاتحة .

وفكر عبد الله بأن الحجي لا يزال له بقية ديون ولكنه قال في نفسه إنها ليست ديوناً وإنما فوائد .

والحجي يدوّر فوائد الفوائد كل سنة بتجديد السندات ولا بد من تجديد القرض فهو يدوّر الفائدة ويعتبرها فائدة مركبة ليصبح القرش عشرة . إن أكداس دفاتره التي على الكرسي أو في صندوق الحديد ملأى بالجرائم وبالتزوير وبزيادة الفوائد على الفقراء الفلاحين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون . لذلك قرر عبد الله

بينه وبين نفسه ألا يوفيه ديونه وهو لا يستطيع أن يقيم دعوى عليه لأنه ليس هناك مستندات قانونية .

كان في القرية مكتبان لحزب العربي الإشتراكي ولحزب البعث العربي . هناك مكتب للإقطاعيين عند المختار ومكتب بقرية مجاورة للقوميين السوريين ، أما الإخوان المسلمين فليس لهم أي نشاط في المنطقة . كان مكتب العربي الإشتراكي ومكتب البعث العربي عبارة عن بيت من غرفتين ترابيتين يفصل بينهما جدار وكانت مرحلة الإنتخابات قريبة فبدأت الدعايات والنشاطات تنتشر في الريف وقد بدا أن البعث العربي والعربي الإشتراكي متفقان ومتعاونان فقد طبعت المناشير بلون واحد والدعايات بلون واحد وأتت التعليمات تؤكد على الإتفاق وتحث الطرفين على التعاون لأن أهدافنا واحدة ومشتركة .

يرأس مكتب البعث العربي معلم المدرسة الأستاذ جابر . بينما كان يرأس العربي الإشتراكي أحد الفلاحين الأميين . وقد نشط المكتبان وأخذ أفرادهما يصولون ويجولون في المنطقة وبين البدو وقرى الغاب بكاملها . كان الشيخ عبد الهادي يسكن في السفح الشرقي للقرى الجردية وتعتبر قريته من القرى الجميلة ورغم أنه بعواطفه وأفكاره مع الإقطاعيين لكنه لم يكن يفصح عن هذه القناعات فعندما يتحدث كان لا يرغب أن يقحم نفسه في مشاكل السياسة منصرفاً إلى أمور الدين وإذا سئل يقول : اعملوا ما يرضي الله أنا لا أحب الظلم وأتمنى أن ينجح سعادته في الإنتخابات لأننا نكن له احتراماً وتقديراً منذ القديم .

في المساء وصل بعض الفلاحين إلى بيت عبد الله وسلموا على الشيخ سعدو فأغلبهم يعرفونه . وتحدث ابراهيم مع زوجته عن الأولاد الذين نزلوا إلى المدرسة في مدينة حماه وعن ثمن الكتب وعن بعض الثياب التي عليهم أن يشتروها جدداً للمدرسة . كل هذه الأمور عليه أن يتدبرها غداً أو بعد غد .

قالت زوجته :

ـ في العام الماضي بعت ما نملك من النحاس القديم واشتريت لهم الكتب والأسرة والثياب . ولكن في هذه المرة ما علينا إلا أن نبيع بقية النحاس وعندئذ نأكل في صحون الألمنيوم . وقد قررت أن أبيع بعض الصوف من الفرش التي ننام عليها .

فأجابها إبراهيم :

ـ بيعي ما تريدين .

لم يكن ابراهيم يعارض زوجته كثيراً فيما يتعلق بشؤون الأولاد وخاصة تعليمهم ومشاكلهم فقد ألقى هذا العبء بكامله على زوجته وكأنه تفرغ ليعيش راكباً على فرسه متحولاً بين الشرق والغرب لا تعنيه الظروف الصعبة التي تمر بها أسرته . ويردد قوله تعالى ﴿ رزقكم في السماء وما توعدون ﴾ .

وفي السهرة أخذ الشيخ سعدو يتحدث للمجتمعين المتحلقين حوله ، وسمعته بعض النساء فحضرن الحديث وبعضهن طلبن الأحراز وقراءة الفاتحة . وقال بالعمل .

كان صباحاً جميلاً ، الحرارة مرتفعة أيضاً . وقرروا أن يزوروا الشيخ عبد الهادي في قريته الجميلة المعلقة في سفح الجبل في نهاية الوادي . وأرسلوا أحد الصبية إلى القرية المجاورة ليخبر الخوري أبو ابراهيم أن الشيخ سعدو وآخرين ذهبوا لزيارة الشيخ عبد الهادي فإذا كان لديه الوقت يسعدهم أن يلحق بهم .

وفعلاً عندما سمع لم يتردد الخوري شحود باللحاق بهم ، كان رجلاً شجاعاً ركب على بغلته واتجه إلى قرية الشيخ عبد الهادي الذي استقبله بالترحاب ، وكما وصل خوري آخر من المناطق الغربية ورجال آخرون لحقوا في الصباح الباكر

ليستمعوا لآراء الشيخ عبد الهادي فيما يتعلق بالظروف الراهنة وأين يدلون بأصواتهم في الإنتخابات وكيف يتصرفون وبخاصة أن أغلبهم لا ينتسب إلى أي حزب .

كان رجال الدين المسيحي ورجال الدين الإسلامي يجتمعون عندما تتعقد الأمور في المنطقة منذ أيام الفرنسيين وكثيراً ما يعقدون الإجتماعات ويتفقون على مقاومة فرنسا ومقاطعتها متحالفين مع بعضهم بعضاً . ومرة سجن الخوري شحود الأكسر خوس بعد أن طلبه المستشار الفرنسي وحاول أن يفاوضه للعمل مع فرنسا وضد سكان القرى في المنطقة . ولكن الخوري وقف موقفاً صلباً وقال : نحن عرب قبل أن نكون مسيحيين كلنا عرب مسيحيين أو مسلمين نحن نعيش في وطن واحد وعلينا أن ندافع عن هذا الوطن ونقاتل المستعمرين وأنتم أجانب أيها المستشار وسترحلون في يوم من الأيام ونبقى نحن وهم .

الكنيسة والجامع متجاوران ونعمل معاً في كل بيت وقرية أو مدينة . واعتقل الخوري شحود من قبل الفرنسيين ثلاثة أيام عقاباً على موقفه هذا .

كان الشيخ سعدو ينظر إلى الخوري باحترام ويعتبره رجلاً مثقفاً ملماً بالتاريخ ولكن لكل إنسان دينه .

إن الشيخ عبد الهادي محبوب لدى الناس . ويكن له الجميع الإحترام وعنده كثير من التلاميذ الذين علمهم القرآن ولذلك حرص الحزبيون في تلك المنطقة أن يحترموا رأي الشيخ عبد الهادي .

وفي أثناء حكم فرنسا عندما كان الثوار ينقلون الذخائر من المناطق الغربية إلى ثورة الجبل وإلى ابراهيم هنانو في الشرق وإلى ثورة صالح العلي كانت القافلة تتوقف عند الشيخ عبد الهادي أحياناً وهذا ما جعله في مرتبة رفيعة في وجدان الناس .

والشيخ عبد الهادي فقيه في الإسلام لذلك فإن أغلب الناس كانوا يستشيرونه في شؤون الإسلام والمشاكل العامة والسياسية والإجتماعية فيحل كل الخلافات . وكان يداري المخاتير والوكلاء ويسايرهم حتى لا يثير حفيظتهم عليه . وعندما يفرض عليه اتخاذ موقف ما ضدهم ، يتنصل ويقول أنا لا أعمل في السياسة . فنحن منصرفون لأمور ديننا .

فوجىء الشيخ سعدو بأن الشيخ عبد الرحمن كان موجوداً عند الشيخ عبد الهادي والتفت إلى ابراهيم قائلاً :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم أرجو أن يكون هذا الصباح على خير .

وصل الخوري شحود وفوجىء بخوري من الساحل يعرفه وكان يرافق الشيخ عبد الرحمن في الطريق فهز الخوري شحود رأسه صامتاً .

أخذوا يتناقشون بأمور الدين والأحزاب . وجمال القرية ، والحرارة المعتدلة فيها .

كانت المياه باردة كأنها مخزونة في براد كبيرة ، وصوت النهر الصغير مع الرياح التي تحرك أشجار الصفصاف على الضفتين يحدث صوتاً حزيناً رتيباً . يبعث الراحة في النفس رغم الآلام الكبيرة التي يعاني منها الناس .

وقطع الخوري شحود الصمت قائلاً :

ـ ماذا يهمنا إلا أن يسود العدل بين الناس وأي حزب يحقق ذلك فسوف نقف معه .

وعلق الشيخ عبد الهادي على حديث الخوري :

ـ نحن علينا أن نناقش الآن فيما يتعلق بديننا ووطننا وأنتم تدركون جيداً الخطر الذي يهددنا أكبر من الأحزاب فبدل أن يكون هناك قوميون سوريون

وعربي إشتراكي وأحزاب أخرى لا أعرفها يجب أن نتحد جميعاً في وجه الصهيونية النازية . هذا رأيي .

ورفع الشيخ سعدو يده محتداً قائلاً :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

ـ أنا أخطب يومياً في القرية وأقول للفلاحين النضال واجب ضد الشر وضد المغتصبين في فلسطين .

وأردا المفتي أن يسكتني عندما سمع ذلك في فندق الأهرام وخاصة في أثناء اتفاقية رودس بين العرب واليهود . وقال يومها ،المفتي:أسكت يا شيخ سعدو «الصلح سيد الأحكام ».

والتفت الشيخ عبد الهادي إلى الشيخ سعدو : مهدئاً :

ـ هذا هو كلام الحق . ولا أعتقد أن المفتي كان ضد هذا الرأي أبداً . وخاصة في قرارة نفسه .

وعلق الشيخ عبد الرحمن قائلاً بهدوء :

ـ يا أخواني لنترك السياسة لأهلها نحن أتينا للشيخ عبد الهادي لنتفقه قليلاً في أمور الدين ونكون على بينة من أمور حياتنا وأنا وصلت مع الخوري من الساحل لنعرف آراءه في بعض الخلافات المذهبية بين المسيحية والإسلام فهو أفقه منا ولماذا نقحم أنفسنا في مشاكل الصهيونية وفلسطين وقضايا أكبر منا ؟ لنترك السياسة لأهلها ؟ وغضب الشيخ سعدو ونسي نفسه أنه بحضرة الشيخ عبد الهادي وبحضرة الخوري شحود قائلاً :

ـ أنا أعرف الشيخ عبد الرحمن ماذا يقصد يريد أن ينفذ أوامر سعادته بطريقة ملتوية لنترك السياسة والصهيونية وإسرائيل لأنها من شؤون سعادته أو من شؤون

السياسيين الحاكمين ولكن هذا من شأننا أيضاً لأنه يمس عرضنا وكرامتنا وأرضنا أيها الشيخ عبد الرحمن (هذا أيضاً من صلب مذاهبنا جميعاً) .

وعلق الشيخ عبد الهادي قائلاً :

ـ أرجو أن يدور نقاشنا بهدوء وصفاء بلا مشاحنات . فمن مات من أجل عرضه فهو شهيد ومن مات في سبيل أرضه فهو شهيد والوطن لكل الناس الذين يعيشون فيه وما قيمتنا نحن إذا احتل الجامع والكنيسة والأرض . نحن قاومنا الفرنسيين واستمر الشعب العربي في سورية يقاوم حتى أخرج المحتلين . هب الشعب من كل مكان في جبل العرب وفي دمشق وفي حماه وحلب والفرات والساحل هبة واحدة فالذين حملوا البنادق وقاتلوهم هم العامة بينما كان سعادته والسياسيون الآخرون يقاتلون من أجل مصالحهم ومناصبهم وعلينا نحن أن نفهم ما هي العامة وكيف نقاتل وندعوها إلى الإستشهاد وإلى الجهاد في سبيل الله وأن ندعو كل الناس للدفاع عن قدسنا ومقدساتنا ودیننا وأرضنا وكنائسنا وجوامعنا . حتى سعادته عندما يفهم ذلك ورجاله يرجعون إلى وجدانهم .

وقال عبد الله :

ـ حتى المخاتير لم نستطع أن نضع لهم حداً فمنذ يومين أتوا ليفسخوا خطبة بنت فلاح ليأخذوها لأحد المخاتير ألم تكن هذه مهزلة هل يوافق الشيخ عبد الهادي أو الخوري على مثل هذا . ومن يتصدى لهؤلاء الأذناب إلا العامة الذين يحملون البنادق . قالها محتداً .

لاحظ أن الشيخ عبد الرحمن والخوري لم يُسَرَّ كثيراً .

وأردف الخوري شحود :

ـ يجب أن نعلم جيداً أن القدس ليست للمسلمين فقط وإنما هي للمسيحيين

أيضاً والمسيح صلب في القدس وأنا أعرف جيداً أن المسلمين يقدسون المسيح ولا أنكر أن هناك بعض الخلافات بين المسيحية والإسلام ولكنها خلافات مذهبية يمكن تجاوزها ويجب تجاوزها . فمصير الوطن أهم من الجميع .

كان الحوار حاراً ، فالخوري ألقى حديثه بطريقة درامية مثيرة كاد جميع الموجودين يحسون بأنه أصبح مسلماً وكان الشيخ سعدو مندفعاً حتى لكأنه هو الآخر أصبح مسيحياً . لقد سقطت جميع الحواجز الدينية أمام العواطف الوطنية الصادقة .

والشيخ عبد الهادي مسرور لهذا النقاش فقد علق قائلاً :

ـ نحن جميعاً عرب قبل أن نؤمن بأي ديانة وهذه الأرض مهد الديانات السماوية والإسلام قدس المسيح واعترف بالكتب السماوية كلها وبكل الأنبياء والرسل الذين أتوا قبل الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .

وأردف الشيخ عبد الهادي قائلاً :

ـ إن أنزلناه قرآناً عربياً وقد ورد في القرآن﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ .

يا إخواني علينا أن نكون متحابين في هذا الوطن لنتمكن من الدفاع عن الوطن أمام الخطر القادم . صحيح أن السياسة كما يقول الشيخ عبد الرحمن لأهلها نحن نعرف أن البيك في قريتنا والبياع في القرى المجاورة والبيك في الشام وفي حلب هم الذين يحكمون لأنهم أقوياء ولكن يجب أن يعلموا إذا لم ينظموا الدفاع عن الوطن فيذهبوا مع غيرهم إلى غير رجعة .

الإقطاعيون الذين كانوا في فلسطين عندما احتل الصهيونيون أراضيهم طردوهم من أملاكهم وأخذوها منهم بالقوة وما فائدتهم الآن ؟ لا أكثر من لاجئين في دمشق أو حماه أو حلب . يجب أن لا نصبح في يوم من الأيام لاجئين علينا أن ننظم الدفاع عن وطننا نسترد أرضنا التي احتلت هذا واجبنا .

وأردف قائلاً :

ـ وقد قال الإمام علي كرم الله وجهه (والله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا وكتبت عليهم المسكنة) علينا أن نؤمن بما قاله الأقدمون وأن نعرف جيداً تاريخنا ومعجزات أجدادنا . نحن أحفادهم على أرض حدودها لنا من الغرب ومن الشرق ومن الجنوب والشمال .

وقال الشيخ عبد الرحمن :

ـ لقد استمعنا إلى فضيلة الشيخ عبد الهادي وما تفضل وحدثنا به عن تاريخنا وعن أمتناولكن الظروف الحاضرة مختلفة جداً عن أيام الفرنسيين والأتراك وما قبل الأتراك وأننا الآن في بداية نهضة جديدة . الأحزاب كثيرة والسياسيون كثيرون ولكن ما يهمنا نحن هو حياة الناس وشؤونهم الدينية. هذا ما جئنا نسألك عنه يا شيخنا . ورفع الخوري شحود يده قائلاً :

ما قاله الشيخ عبد الرحمن صحيح إلى حد ما ولكن هذا ما تريده الصهيونية والإستعمار وهذا ما عملت لأجله فرنسا في هذه المنطقة عندما كانوا يحرضون كنيستنا ضد جيراننا ويحرضون جيراننا وهذا ما تتابعه الصهيونية الآن بمساعدة عملائها لزرع الشقاق والخلافات بيننا . الخلافات في كل مكان وقد استطاعوا أن يزرعوا الخلافات ليس بين الطوائف والطبقات وحسب إنما بين الرجل وزجته ، هذه نقطة الضعف التي دخلوا فيها إلينا ليضعفونا ويهزموننا .

وقد تفضل الشيخ عبد الهادي بما قاله بأن في الإتحاد قوة وفي التفرق ضعفاً هذا ما يجب أن نؤكد عليه دون أن نكون بعيدين عن السياسة . فهذا الإنقسام هو صلب السياسة الآن.

وأردف الشيخ سعدو قائلاً : بصوت عال لماذا نعلق على القضايا وهي واضحة باختصار :

ـ نحن نريد أن نسأل الشيخ عبد الهادي من هو على صواب من الأحزاب ؟

والتفت إليه الشيخ عبد الهادي قائلاً :

قد يكون الجميع على صواب لأنهم يتحدثون عن مبادىء جميلة وجيدة وكل الناس يتحدثون عن القيم الأخلاقية يميزون الرذيلة من الفضيلة ولذلك من واجبنا عندما نستمع لأي واحد منهم أن نشجع فيه الخير ونبعده عن الشر . نحن لا نشجع طرفاً على طرف آخر أو شخصاً على آخر .

كان الشيخ عبد الهادي قد ذبح عدة ذبائح لضيوفه وجهز لهم الغداء والنقاش استمر إلى ما بعد الغداء .

وتابع الشيخ عبد الهادي حديثه :

ـ نحن لا نشجع طرفاً معيناً انتم تعلمون أن البيطار صديقي وأبوه كان صديقاً ومنذ حوالي الثلاثين سنة وهو عضو في البرلمان أتمنى ألا يسقط . ولكن يظهر أن الفلاحين متجمعون الآن ضد البيك فما ذنبي إذا سقط سعادته وهل أستطيع أن أحمل عصاني وجه كل فرد من العامة أوقول له يجب أن تنتخب البيك ؟ فيا شيخ عبد الرحمن أنا لا أستطيع أن أقوم بهذه المهمة إطلاقاً ولكل من الحاضرين رأي يمليه عليه وجدانه ومعرفته عندما يقوم بالإنتخاب وكما سمعت وقيل لي فإن هذه الإنتخابات ستكون سرية ونحن نؤيّد الناس الذين يعملون من أجل تحرير وطننا ورد أراضيا . وأنا لا أستطيع أن أجبر أولادي على شيء لا يؤمنون به وقد يرفضون أوامري إلا بما يخالف شريعة الله ومصلحة الوطن والمجتمع . فالإستقلال في بدايته والدولة في بداية نموها وعلينا أن ندافع عن استقلال هذا الوطن وأن نوقف جشع أصحاب الخانات الفوائد والديون التي سلبوها من الفلاحين والخوري شحود يعرف أبا جورج في المدينة في الخان الغربي وكذلك يعرف ابرهيم الحجي في الخان الشرقي فهما يمسكان هذه المدينة من غربها إلى شرقها ويضاعفان الفوائد

ويستغلان العامة ويستثمران الجاهلين من الناس . علينا أن بنذل كل الجهود لوضع حد لجشع أمثالهما .

كان النقاش حامياً والعامة ابراهيم وعبد الله وعدد آخر من الرجال يستمعون وينصتون لأن الحديث كان شائقاً فإذا خالفهم الرأي يتحدثون بهمس بين بعضهم ويرفع يده الشيخ فيصمتوا . قد يهز عبد الله رأسه إذا أعجبه الحديث وقد يهز رأسه أيضاً مستنكراً .

وقال الشيخ عبد الرحمن :

ـ هذه تجارتنا يا شيخنا ، هذه محللة في الإسلام .

ورد الشيخ عبد الهادي معلقاً :

ـ كمن يبيع الجمل والقط وحداجته بسعر واحد وضحكوا جميعاً وعندئذ يقول هي تجارة ربح وخسارة هذه الأمور التي يمكن التلاعب فيها باسم الدين وباسم التجارة لا نقبل بها . لقد جاء في كتابه العزيز ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ والتجارة يا شيخ عبد الرحمن هي كما تفضلتم ربح وخسارة ولكن لكل شيء منطق خاص به فأول الذين تاجروا في بلاد الشام (رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقود القوافل بين الحجاز والشام ولكن ربحه معقولاً . ولا يقول أنني أبيع شوال القمح كما يحاول أبو جريج بـ /٥٠٠/ل.س ويقرض الناس قرضة حسنة /٥٠٠/ليرة يعني يأخذ ثمن الشوال ألف ليرة وثمنه الحقيقي /١٥/ ليرة ويأخذ /٩٨٥/ ليرة ربحاً فهذه ليست تجارة هذه أكل اموال الناس بالحرام . وظلم لا يحلله الشرع ولا الدين . علينا أن نعمل كل جهدنا لمساعدة الفلاحين . وعندما التقي مع البيك سأناقشه في هذه القضايا وإن كان سعادته يصغي للحجي أكثر من الآخرين .

وقام الشيخ عبد الهادي وقال :

ـ تفضلوا الآن لنتناول غدائنا فلقد تحدثنا اليوم بما فيه الكفاية .

فكر الشيخ سعد وهو عائد إلى بيته بالشيخ عبد الرحمن الذي يحصر اهتماماته بالأمور الدينية وينصح بعدم التحدث بالسياسة هل هو أهل لجنة الله كما توقع ؟ هذا الشيخ المنغمس بملذات ملهى الكروان ويلبس ثوبين معاً يخدع به العامة وثوب يلبسه في ملذاته ويخلع لفته وجبته ويطالب الناس بحصر أحاديثهم بأمور الدين ويفكر أنه سيدخل الجنة ؟ وكيف ذلك وهو يضحك على الناس ويغشهم لمصالح أسياده .

وعبد الله الذي يرافق الشيخ سعدو يفكر بدوره في جلسة اليوم ويقول : إذا كان الشر قادم إليك فعليك أن تلاقيه قبل أن يبدأ بك تبدأ به فالإنتخابات قادمة وعلينا أن نهشم الإقطاعيين سواء كنا على حق أو على باطل ، كان عبد الله يسير جنباً إلى جنب مع الشيخ سعدو صامتين . ولكن عبد الله أقل اطمئناناً رغم أنه يناضل مع الإشتراكيين ضد الإقطاعيين بدأ يشعر أن أبناء المشايخ وأبناء أصحاب الخانات وبعض الإقطاعيين فعليه أن يتابع الطريق معهم إلى النهاية . وعبد الله عندما يذهب إلى فرع الحزب لا يشاهد غير الأستاذ علي والأستاذ عادل . ولكن القياديين الأعلى لا يعرفهم ولا يراهم ، يقولون إنهم يخططون للمستقبل في العاصمة ، وهو على قناعة لا يعلنها عادة وهي أن هذه القيادة لا تنسجم مع الفلاحين . هذا ما يجول في مخيلة عبد الله وهو يغذ السير إلى جانب الشيخ سعدو الراكب على حماره . هبطا الوادي ولفهما الصمت فترة طويلة . وقال عبد الله :

ـ ما رأيك بحديث الشيخ عبد الهادي ؟

ورد الشيخ سعدو قائلاً :

ـ حديثه مليء بالمواعظ ولكن لم نستفد منها شيئاً .

وأردف عبد الله :

ـ صحيح جلسة مواعظ ولكن لم يقولوا لنا من ننتخب وفهمت أن على كل منا أن ينتخب على هواه .

أنا سأنتخب مرشح العربي الإشتراكي هذا واجب . وتابع:

ـ لقد همس في أذني الخوري شحود وقال لا تطمئن لهذا الخوري الذي أتى مع الشيخ عبد الرحمن فهو تابع للإقطاعيين لأنهم دفعوا له نقوداً حتى يأتي ويقول لكم انتخبوا سعادته . وانتخبوا رجال الإقطاع فلا تطمئنوا إليه .

لحق إبراهيم بالشيخ عبد الرحمن والحجي الذي كان متأخراً عنهما حتى ذلك الوقت وقال دون أن يعرف ما يدور بينهما :

ـ لقد استفدنا على الأقل عرفنا كيف تدور الأمور وكيف احتلت الصهيونية فلسطين واحتل جزء من أرضنا ويحاول السياسيون أن يعيدوا اللاجئين إلى بلادهم.

بدأت الشمس تميل إلى المغيب ودخلوا في منطقة السهل والحرارة مرتفعة هنا والعرق يبلل ثيابهما . وكذلك ظهر العرق على خواصر الدواب . وكذلك رقابها لأنها كانت تغز السير مسرعة باتجاه القرية .

أما الشيخ عبد الرحمن الذي وجه حديثه للخوري :

ـ لم نستفد كثيراً يا أبونا . على كل حال بمجرد وجودنا يعني أن الفلاحين عرفوا أننا نقوم بدعاية وقد تصل الأنباء إلى الإقطاعيين وأصحاب الخانات بأننا كنا في هذه المنطقة وقمنا بما كلفنا به وعلى الله الباقي . ولكن آثار أعصابي وجود الشيخ سعدو وأتمنى لو لم يكن موجوداً . وصمت .

علق إبراهيم على الحديث قائلاً للشيخ عبد الرحمن :

ـ حديثكم جيداً يا أبونا . أما فيما يتعلق بالإنتخابات فهذه محسومة بالنسبة لنا سننتخب العربي الإشتراكي مهما كانت الظروف .

أما الأستاذ جابر الذي علم بما دار في هذا الإجتماع مساء فقد أثنى على الشيخ عبد الهادي والخوري شحود . وقال :

ـ إن رجال الدين مثقفون وسيستطيعون أن يؤثروا في الناس بما حفظوه من الكتب المقدسة ولكن لا ننسى أن نراقب تحركات الإقطاعيين ودعايتهم .

ـ ٨ ـ

في اليوم الذي هبت النشاطات الدعائية في الريف على قدم وساق وبدأ الناس بالترشيح ، والمهرجانات في القرى والمدن والمكاتب . وزعت المناشير على الناس . وقرر الحزبيون أن يقيموا مهرجاناً خطابياً كبيراً في إحدى قرى الإقطاع فاختاروا قرية تزين وطلب من كل الفلاحين في البداية أن يذهبوا إلى القرية صباحاً ليحضروا المهرجان .

لأول وهلة تصور الفلاحون أن المهرجان سوف يحل مشاكلهم ويحصلون على حقوقهم وكل قرية ستصل إليها المدرسة كما قالوا لهم في فرع الحزب والطريق والسيارة . وفي بعض القرى قد يبدلون المخاتير . كانوا يحلمون أن يرفعوا ظلم الدرك عنهم . ومن يحلم بالزواج راح يقول إذا طبقت الإشتراكية سأتزوج غداً . كانت هناك مهرجانات في القرى والمدن أيضاً .

تجمع الناس في ساحة المدينة وقد أتى من العراق بعض الأساتذة الذين كانت لهم علاقة بالبعث العربي والعربي الإشتراكي وأقيم مهرجان خطابي في ثانوية ابن رشد . وألقى أحد العراقيين كلمة عن الحزب وعن الثورة العربية والأمة العربية من المحيط إلى الخليج والنضال العربي ضد حلف بغداد. والناس يصفقون ويهتفون وأحياناً يطلقون النار من مسدساتهم ولا أحد يعرف ماذا يقول الخطيب حقيقة . عقدت جلسة سرية لفرع العربي الإشتراكي في مكتب المدينة وتباحثوا كيف

ينظمون هذا المهرجان في الريف وعليهم أن يدعوا الفروع من المحافظات لأن العربي الإشتراكي وسع نطاق عمله خارج مدينة حماه لتصبح له فرع في حلب وفي اللاذقية وفي العاصمة ويجب على كل الفروع أن تحضر إلى حماه حتى يشاهدوا الفلاحين المتحمسين للإشتراكية وهناك بدأ التحضير لهذا المهرجان بحماسة منقطعة النظير . وقرروا أن يحضر شيخ يخطب في المهرجان لأن الإخوان المسلمين يدّعون أن الإشتراكيين كفار .

وعندما يخطب رجل دين في صفهم في المهرجان تكون النتائج أضمن وتأثيره بين الفلاحين أقوى . فرجل الدين والمؤذن والإمام في القرية هم القدوة الدنيوية والروحية والفلاحون ينفذون أغلب توصياتهم وتعليماتهم . بدأت الجماهير الكادحة تهدر وتتجمع كالسيل تجرف أمامها . وقد عبر عنها أحد الأساتذة .

عندما تتحرك الجماهير تصبح كفيضان العاصي تجرف كل الأوساخ والحطام من أمامها . وقال :

أما أولئك الإقطاعيون فسوف نؤدبهم ونعلمهم كيف يرد إليهم كيدهم .

كان الحجي في الخان يراقب من بعيد تحضيرات الإنتخابات عند الجميع . يحدث نفسه ماذا يستفيد من هذه الإنتخابات ؟ وما هي فائدة تحضير الجماهير إلى قرية تيزين ؟ هم بحاجة إلى نقود ومؤونة وبذار وكسوة هذه الجماهير التي تزحف الله أعلم إلى أين ؟ هي بحاجة إلى أحذية ولباس جديد لا لخطب ولا لكلام ولذلك فالجميع بحاجة له وليس للزعماء السياسيين . فأوصى دكاكينه أن تدين الفلاحين وتضاعف الأسعار ليعلمهم كيف يجرون في المستقبل .

ابن الحجي هو الآن عضو في العربي الإشتراكي وهو من النشيطين وعليه أن يقوم بنضال بين الفلاحين من أجل العربي الإشتراكي حتى لو أدى الأمر إلى

الحديث عن والده وأرباحه. كان يقول لابنه يا بني تحدث كما يحلو لك حتى ولو أدى الأمر أن تتحدث عن سلبياتي . والحجي يفكر كلما كان الإشتراكيون نشيطين بين الفلاحين عليه أن يزيد من أرباحه أضعافاً مضاعفة فالإشتراكية يجب أن تجلب له الخير .

وفي اجتماع الحزب قرر الحزبيون تكليف شيخ بلدة ليلقي كلمة مهرجان . وفكر صاحب قرية تيزين بأن هناك مئذناً في القرية المجاورة لقرية تيزين القيام بهذه المهمة . وأراد أن يقترح اسمه ولكنه عدل عن فكرته أخيراً خوفاً من أن يفكر الناس بأنه من رجال الدين المنافقين لأنه قبل فترة كان ينشط لصالح الإقطاعيين . وتناول الحاضرون بعض الأسماء لاختيار الشيخ لهذه المهمة . في القرية المجاورة هناك رجل دين شجاع وصاحب رأي يعمل في تهريب الدخان ، ذكي وشجاع . ولكن المشكلة أن هذا الشيخ لم يلبس لباساً دينياً في حياته فكيف يمكن إخفاء ذلك . عليه أن يحضر له جبة ولفة بيضاء وحذاء وسروالاً أبيض وحزاماً يليق بالجبة التي فوقه وطربوشاً أحمر لتقديمه بطريقة جميلة ولائقة للناس وكأنه عالم من العلماء. عليهم أن يقنعوه بهذه المهمة . وعندما دعوه إلى العربي الإشتراكي اعتبرها تقديراً له وهو الذي لم يدع في السابق لأي مجلس ديني ذو أهمية . قالوا له إننا نود أن تتحدث باسمنا أمام الناس . وقف وفكر وقال : ولكن ماذا سيقول الناس عني ، هل سيكلفونني ؟ وتوصل في النهاية إلى فكرة هي وماذا سيقولون ؟ ليقولوا ما يشاؤون طالما أنني سأظهر بين الناس على هذا المستوى .

لم يخطر على باله أن يكون شيخاً محترفاً وعندما عرض عليه الأمر ضحك وقال : أنا لم ألبس هذا اللباس طوال عمري ولكن لنجربه الآن لعله يليق بي .

وصل عبد الله إلى الفرع وعندما دخل ضحك الجميع وقالوا أتى عبد الله . أين البغل .

فقال عبد الله :

ـ عندما يعقد المهرجان سوف نركب البغل ثانية ونقول سرقه الإقطاعيون .

في ذلك الوقت كان أعضاء العربي الإشتراكي أكثر نشاطاً من الإقطاعيين وقد وقفت الجماهير وراءهم . لكثرة ما عانته من الظلم والقهر لزمن طويل كل ذلك انفجر دفعة واحدة فبدأوا بعقد حلقات الدبكة في قراهم وعصفت الأفراح برؤوسهم . وكان نشاط الدعاية للعربي الإشتراكي من قبل الطلاب في ريف حماه الشرقي تحت إشراف الطلاب محمد وموسى والأستاذ جابر وصالح وعلي وغيرهم من ثانوية ابن رشد ومهمتهم إيصال المنشورات لكل فلاح ليلاً على الدراجات الهوائية أو بعض الدراجات النارية .

وفي فترة الإنتخابات جرى اجتماع موسع على سطح ثانوية أبي الفداء ودعي بعض الفلاحين النشطاء العربي الإشتراكي وأتى عبد الله ومحمد وكان الفاصل بين السطحين ضيقاً فكاد محمد يسقط بين السطحين لولا أن أمسكه أحد الذين يعبرون السطح وجرح بساقه واضطر الدكتور عبد الرزاق في قيادة فرع العربي الإشتراكي لنقله إلى المشفى ليلاً .

وقال الإستاذ علي :

ـ لعنة الله على الشيطان هذا وقت ليصاب هذا الطالب النشيط ؟ إنه لن يستطيع ركوب الدراجة هذه الليلة . ولكن الطالب أصر على مواصلة التنقل في تلك الليلة .

وفي الصباح انتابته الحمى من التهاب الجرح فأسعف ثانية في المشفى . وتابع نشاطه رغم أنه كان مريضاً ومرّ على كل القرى والفلاحين .

كان النشاط بين الفلاحين على قدم وساق وخاصة في الأحياء الشعبية وحتى في

خان الحجي تلصق المناشير الحمر ويقف الحجي مكتوف الأيدي يقول : لا حول ولا قوة إلا با لله قلت لك يا شيخ عبد الرحمن سيأتي يوم نفتح مكتباً في هذا الخان للعربي الإشتراكي ، صدقني . فهذه تصوراتي تنطبق على أرض الواقع .

اقترح بعض الطلاب من الأرياف بأن يسير الفلاحون بعد المهرجان إلى المدينة فيخترقون شوارعها من شرقها إلى غربها وكل فلاح يحمل معه فأسه أو معوله ليهدموا القصور ويطرد الإقطاعيين . سوف تحدث هذه الحالة ضجة في المدينة وترهب الأحزاب اليمينية والإخوان المسلمين وحتى أصحاب الخانات عندئذ قد يغيرون ويعيدون النظر في أفكارهم . هكذا رأى الطلاب في الإجتماعات الحزبية المتواصلة والمتلاحقة .

في ظهيرة يوم الأحد من أيام تشرين الثاني كان الحجي يجلس في الخان . والطقس يميل إلى البرودة والغيوم المتقطعة تحجب الشمس قليلاً وقد لاحظ غياب الفلاحين عن السوق فاستنتج أن أغلبهم يستعد للذهاب إلى المهرجان . كان على الذين يأتون من القرى الشرقية وعبد الله الذي يوزع بعض المناشير شرقاً أن يمروا صباحاً بالخان . وعلى الطلاب من مدرسة ابن رشد الذين استيقظوا باكراً أن يتصلوا برفاقهم ، وعلى الطالب محمد أن يذهب إلى خان الحجي ليأتي بابن الحج ورفاقه الذين معه في فرقة واحدة في داخل المدينة . وعندما وصل محمد إلى الخان كان ابن الحجي ينتظر فبادره قائلاً :

ـ هيا يا محمد إلى المهرجان ، يا الله يا رفاق .

وعلق الحجي موجهاً حديثه لابنه . وكان يجلس بجانبه الشيخ عبد الرحمن :

ـ إسمع ابن أنت في طريقك إلى المهرجان وسوف تحققون الإشتراكة وعندئذ سلم لي على هذه الإشتراكية .

ورد محمد :

ـ يا حجي الإشتراكية ليست امرأة وليست نوفة الغجرية

كان مع الحجي الشيخ عبد الرحمن والمختار وتكلموا عن الأمور الدينية وعن دخولهم الجنة وكان الكلام مزاحاً وكاد يصبح جاداً . بينما ذهب الآخرون كل في طريقه باتجاه المهرجان وجلس الشيخ عبد الرحمن وهو يحدث الحجي قائلاً:

ـ ذهبوا ليخطبوا أو ليستمعوا إلى الخطابات عن الإشتراكة. نحن منذ فجر التارخ حتى الآن نعش في هذه المنطقة لم نسمع مثل هذا الكفر وهذا الإلحاد .

كانوا يسيرون جماعات وفرادى منذ أن بدأت نجمة الصبح حتى ضحى ذلك اليوم فقطعوا حوال ثلاثين كيلومتراً، ومنهم من قطع مسافة يوم على بغلته . وكانت قرية تيزين تتوسط حقول حماه الغربية وتقع إلى جنوب الغاب بنفس المسافة زحفت الجموع من كل القرى . ونصبت هناك الخيام. وجاء الغجر معهم لكي يقرعوا الطبول وينفخوا المزامير . كما لو أنهم في عرس وليس في مهرجان خطابي . لقد مرّ الغجر بالخانات وعلق الحجي :

الناس يساندون بعضهم بعضاً . وآخرهم الغجر ـ الدنيا مقلوبة يا شيخ عبد الرحمن .

الأساتذة يخطبون في المثقفين الذين يسمعونهم والفلاحون تعقد حلقات الدبكة حتى تقهر الإقطاعيين والغجر تقرع الطبول . صوت الثورة الهادر ، قال أحد الأساتذة .

كان سلوم ومحمود وبعض الفلاحين من القرى الشرقية قد وصلوا إلى المهرجان بعرباتهم وقد رافقتهم بعض النساء ، وبعربة سلوم التي تجرها الخيول كانت سعاد . فالجميع يتصورون نهاية الإقطاعيين فقد تصوروا إن الإشتراكية ستتحقق اليوم . وسلوم يحمل بيده حبله قائلاً :

ـ اليوم سنعود بعد المهرجان فوراً إلى قسمة الأرض إذا قرروا الإشتراكية .

كادت تقع مشادة بين سلوم والفلاحين . أما سعاد فكانت تقف أمام سلوم وعندما يسكت تقول له :

ـ غن يا سلوم غن ضد الإقطاعين . اليوم يومنا .

كان بعض الناس يحملون بنادقهم وبعضهم يحمل الطبول والمزامير ويذهبون باتجاه الخيم . منهم من توقف خارج الساحة لأن الزحمة منعت العربات من الوصول أما الذين يركبون على الخيول و لم يركبون على الخيول و لم يجدوا مكاناً لهم ظلوا على ظهورهم يستمعون وينظرون من بعيد .

منظر عجيب لا يستطيع الإنسان أن يتخيله إطلاقاً . عربات تجر الخيول وتحمل رجالاً ونساءً وأطفالاً ، خيول ركابها يحملون أسلحة ، شاحنات مزدحمة بالناس . سيارات صغيرة ، مشاة ، غجر وكلابهم ، خيام على امتداد الأفق ، السهل مملوء بالبشر .

قال ابراهيم :

ـ جميع هؤلاء الناس مع الإشتراكيين ونخاف أن يسقطوا بالإنتخابات . معقول كل هؤلاء الناس يريدون التصويت للإشتراكية ؟.

كان عبد الله يركب بغله الذي كتب عليه البغل الذي سرقه الإقطاعيون .

وعلق بعض الفلاحين قائلاً :

ـ اتق الله يا رجل يكفي فضائح لقد بهدلت كل الإقطاعيين .

أجاب عبد الله قائلاً :

ـ خمسون سنة من التشرد والهجرة من قرية إلى قرية أريد أن أنتقم في هذا اليوم حتى لا يحاول أحدهم أن يرفع رأسه ويحاول أن يؤذي الفلاحين .

كان عريف المهرجان الأستاذ علي وهو مساعد أمين فرع العربي الإشتراكي

في المدينة وأمين الفرع هو صاحب القرية . وأعلن بدء الحفل . ولكن كيف يباشرون الحفل ؟ هل يباشرون بقراءة آيات من الذكر الحكيم ؟ هذه النقطة لم تخطر على بالهم عندما كانوا يتناقشون . وبدؤوا المهرجان بكلمات قصيرة ثم بدأ الأستاذ علي يعرف بمناسبة الإحتفال لماذا وكيف تكون الإنتخابات وقدم عريف الحفلة بعضاً من أبيات الشعر وعن التاريخ وعن الإسلام والعروبة . ويحمس الجماهير، والجماهير تصفق له بينما كان الجمهور كبيراً في واد آخر . الطبول تقرع بشدة وأحياناً تطلق العيارات النارية في حين كانت الخطابات مستمرة .

وانتقل عريف الحفل الأستاذ علي ليقدم الشيخ كداعية من الدعاء وقال :

ـ سوف يلقي الكلمة العلامة الجليل القدير الذي درس الفقه والشريعة والإسلام في الأزهر .

فتساءل بعض الجماهير :

ـ القاهرة ومصر الملك فاروق مع العربي الإشتراكي . معقول ملك مع العربي الإشتراكي .

وتقدم الشيخ وكان يرتدي جبة زرقاء غامقة ويضع على رأسه طربوشاً أحمر ولفة بيضاء على طريقة رجال الدين في المدن . لكنه نسي أن يحلق ذقنه فبدت كتلة من الفحم الأسود كان ضخم الجثة، وشعره أسود طويل على طريقة الفلاحين لم يقصه فظهر من تحت اللفة .

ونظر ابراهيم مندهشاً وقد ميزه وقال :

ـ أصبح الشيخ الجليل والقدير العالم الكبير ؟ علامة في الدين . هل هذا معقول ؟!

فقال أحدهم :

ـ يقطع الطرق لكي يعيش . ألم تسمع قول أبي ذر « كيف ينام جائع في المساء و لم يخرج حاملاً سيفه على الناس في الصباح » .

فرد ابراهيم :

ـ لا تعرف بعضنا بعضاً جيداً هذا له تاريخ كان أيام الفرنسيين يؤمن الذخائر للثوار ضد فرنسا ، إنه رجل شجاع لا بأس به . أما بعد الإستقلال فكان لا يمر أحد ويخلص من شره . والآن أصبح شيخاً جليلاً ؟

وقال عبد الله :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ولكن على كل حال هذا الشيخ أفضل من الشيخ عبد الرحمن .

تحدث عريف الحفل عن مناقب الشيخ فقال :

ـ إنه شيخ جليل يسكن في هذه الربوع وقد عاش قهر الإقطاع ونضال الفلاحين وقاتل الفرنسيين وتمرد على الأتراك وهذا هو رجل الدين الحقيقي الذي يخدم شعبه . وأكد أنه عضو في العربي الإشتراكي .

ساد صمت ، وليتفضل فضيلته ويحدث الجماهير .

كان يستمع إلى ما يقوله هذا العريف : كم هو كذاب هذا العريف الذي كثر تردده على رجال الدين وكثرت مجالسته لهم حفظ بعض الأحاديث وحفظ بعض أقوال الإمام علي بن أبي طالب ، كانت لديه فرس سريعة وبندقية مربوطة على الفرس ومسدسه على جنبه . حتى المسدس رفض أن يخلعه من جنبه فلبس الجبة فوقه .

وقف وراء المكرفون ورفع إحدى يديه ثم رفع طربوشه عن رأسه وأخذ يلوح تحية للجماهير . ثم أعاد الطربوش إلى رأسه وأمسك المكرفون بيده ونظر إلى الناس وقال :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، وبدأ يقرأ الفاتحة ثم صمت. نظر إلى من حوله والتفت إلى الأستاذ علي وقال : وإياك ... كان أمام زحمة الناس ومن الرهبة نسي الفاتحة بكاملها ونسي قصار السور التي كان يرددها أحياناً . والتفت إلى الأستاذ علي وقال وإياك ... وإياك .

فقال له : نستعين .

تابع : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين وإياك ... ونظر إلى الأستاذ علي وقال ماذا بعد .

ـ أكمل وقل نحن مع العربي الإشتراكي .

ورفع يده قائلاً :

ـ إن الله ينصر الحق . قال علي بن أبي طالب الأرض لمن يعمل لها إذهبوا كل واحد يأخذ أرضه وبدأ التصفيق حاد .. والسلام عليكم .

وعندما قال الأرض لمن يعمل بها كل يأخذ أرضه . أطلقت آلاف الطلقات من البنادق وبدأت الطبول تقرع والنساء تزغرد .

وعاد عريف الحفل ليقدم كلمة حلب : ووقف أمين فرع حلب كممثل كوميدي يقف على خشبة المسرح ويلتفت يمنة ويسرة إلى الناس والجميع صامتون يستمعون إليه . وبدأ خطابه قائلاً :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

وعلق أحد الفلاحين قائلاً :

تابع : إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس وأشار بيده إلى الجماهير وصمت وقالوا لقد جن .

تابع : ورأيت الناس يدخلون في دين الله ...« وأشار إلى قيادة العربي الإشتراكي » أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً .

وأعادها مرتين وثلاثاً . وأخيراً وقف وصمت . وفكر الناس : ماذا يريد أن يقول .

فقال : لا هجره ولاتهجير للفلاحين بعد اليوم يمنع أي فلاح من أن يغادر قريته أو أرضه مهما حاول الإقطاعيون ، وعليه أن يراجع الفرع إذا أهانوه أو وجهوا له أية تهمة . والسلام عليكم .

ونزل عن المنبر . وأخيراً وقف أمين الفرع العربي الإشتراكي وقال :

ـ كما قال أمين فرع حلب بعد اليوم لا هجرة ولا تهجير . واختتم المهرجان بهذه الكلمة .

بعد انتهاء المهرجان أخذت الجماهير تتحرك باتجاه حماه . وركب الشيخ على فرسه وفي هذه اللحظة خلع الجبة والطربوش وعاد إلى حطته وعكاله ولبس دراعته فوق لباسه المحلي . وكان الشيخ سعدو يغذ السير خلفهم راكباً على دابته وعبد الله على بغلته وبيده مدارته وبندقيته وزغردت سعاد عندما مر الشيخ راكباً على الفرس هو وابراهيم وهما يلوحان ببندقيتهما إلى الأعلى ضد الإقطاع وهتفت قائلة :

ـ فلتحيا يا شيخ أحسن خطاب سمعته في عمري هو خطابك .

وقال لها :

ـ أنت أحسن امرأة وأشرف امرأة وكل من يحكي عليك كلب ابن كلب .

ولوح ابراهيم برأسه قائلاً :

ـ ليس هذا وقت مثل هذا الكلام . أن نعلق مع سعاد وغيرها قبل أن يزدحم الطريق . دعنا نكون في الصف الأول. وشدا على خيلهما مسرعين .

الناس يرفعون اللافتات ويمشون في نسق نظامي يشبه أرتال العسكر .

كان الحجي يشرب الشاي في المحطة والشيخ عبد الرحمن ينظر إلى الجموع التي تمر وهي تهتف فيهز رأسه قائلاً :

ـ مهرجان تيزين . خالد بيك أصبح في العربي الإشتراكي وابني أيضاً .

كان يحدث نفسه ويقول : (ايه بسيطة يا خالد بك نحن وإياك والزمن) البذار سأرفعه ، ضعفين دع الفلاحين يأخذون البذار أين سيذهبون ؟ إلى خاني أو خان أبو جريج والبذار نفسه آه يا خالد بيك ملكه حر فيه والصراع بين العائلات من أجل الزعامة . والتفت إلى الشيخ عبد الرحمن وقال :

ـ هل تعرف هذه الجماهير بماذا أشبهها ؟

أشبهها بالسيل في البادية ، يتجمع بسرعة من البَرَدْ ويسيل ويجرف الذي يقف في طريقه ، وحيث لا يوجد سد ، عندئذ يذهب هدراً وينتهي بدون فائدة . وكانت تجلس أمامه المدام التي تنظر إلى الناس وتقول :

ـ هذا معقول في يوم وليلة جمعوا كل هؤلاء الناس ؟

كان الفلاحون على استعداد في تلك المظاهرة أن يهاجموا قصور الإقطاعيين ويحرقوها . ولكن قيادة العربي الإشتراكي كانت تهدف فقط إلى زعزعتهم ليحلوا محلهم في الإنتخابات.

ففي هذه المدينة أصبح قسم من الإقطاعيين والقسم الأكبر من العائلات الإقطاعية أصبح في العربي الإشتراكي وبدأت الهتافات والزغاريد . وسار عبد الله ببغله أمام المظاهرة وهو يقول :

ـ اليوم الثورة ، الإقطاعيون لصوص فقد سرقوا البغل وقد كتب على جبهة البغل وعلى جانبيه لافتة كتب عليها « الإقطاعيون سرقوا مواشي الفلاحين . الإقطاعيون لصوص»

والشيخ سعدو يرجوه أن ينتزع هذه اللافتات عن البغل ويقول له :

ـ لقد هزأتهم أكثر مما يستحقون وفي نهاية الأمر سنبقى جميعاً مواطنين ، نجلس في يوم من الأيام نحن وإياهم عند خان الحجي ، أو في مقهى جلال ولا بد أو أولادنا سيعيشون مع أولادهم هذه طبيعة الحياة يا عبد الله .

ولكن عبد الله كان مصمماً على أن يصل إلى النهاية في سخريته من الإقطاعيين فقد سار بالبغل و لم ينزع اللافتة حتى خرج من حماه . وعندما نزعها ذهب إلى خان الحجي .

ـ ٩ ـ

انتهى المهرجان وعاد الفلاحون إلى قراهم ثم بدىء التحضير والدعاية للإنتخابات .

كان ابراهيم يشعر بالسعادة وكأنه حقق الإشتراكية وانتقم لنفسه من الإقطاعيين . وعبد الله يتصور أنه من أغنياء العالم وكأنه ملك كل قرى الإقطاع، وسلوم ظل يحمل الحبل في يده يريد أن يوزع الأراضي في أسرع وقت .

والشيخ سعدو يقول أنا أشك بالذي سمعته .

عندما دخل عبد الله إلى الخان وكان في طريقه إلى الغاب وقف أمام الحجي وقال له الأخير :

ـ إيه عبد الله .

ـ الحمد لله رب العالمين لقد حققتم الإشتراكية ونحن فرحون لتطبيقها . وأنا قلت لابني الذي أصبح منكم وتخلى عني : هذا الكلام . ولكن ابن أخيك هذا المشاغب الذي يعلق المناشير في الساحات ليلاً ونهاراً ويركض عاري القدمين ويضرب بمقلاعه على السوق ليغلقه . ولكن الذي علمتم المهرجانات لا يتعدى جعجعة في طاحون فاذهب يا رجل أنت واشتراكيتكم . قالها ونفخ في نرجيلته . وكان الشيخ عبد الرحمن يدخن أيضاً النارجيلة وقد لف رجلاً على رجل وابريق الشاي على يمينه ويستمع إلى النقاش . ويهز رأسه مستهزئاً من الشيخ سعد وعندما أراد عبد الله والشيخ سعدو أن يعرفا رأيه قال :

ـ لقد سمعنا كثيراً من الخطابات والجعجعات المماثلة . ولكن الرجال الأشداء الذين يحكمون مئات السنين يضحكون عليكم لأنهم لا يريدون أن يزعجوكم وسوف يكونون سادتكم وسينجحون في الإنتخابات ولن يستفيدوا شيئاً مهما بذلتم من جهد لا أنتم ولا الذين علموكم . أما الأولاد الذين يوزعون المناشير ويطرقون أبواب الناس في الليل ليعطوهم منشوراً أمثال ابن أخيك وغيره ، ألا تخافون عليهم من أن يحصل لهم حادث أو يقطع الطريق أحد البدو أو الوكلاء ويطلق عليهم النار . اتقوا الله في عيالكم وأنت راكب على هذا البغل وتهتف ضد الإقطاعيين ألا تخشى أن يقتلوك ؟ ألم ينته الحقد من صدرك على الإقطاعيين .

ونظر عبد الله في وجه الحجي وفجّر عينيه وقال :

ـ إن حقدي على الإقطاعيين عمره ألف وأربعمائة سنة وأنت يا شيخ تقول عني حقود أنا لا أحقد على أحد ولكن حقدي على الظلم وعلى القهر الذي نشاهده وعندما ينتهي حقد الإقطاعيين على الفلاحين ينتهي حقدنا . لماذا نحقد عليهم ؟ عندما نصل إلى حقوقنا لن نحقد عليهم . نحن ندافع عن العدل وكما يقول العربي الإشتراكي « العرب أمة واحدة » .

لسنا كما تتصورنا قطاع طرق نحن فلاحون . قاتلنا فرنسا وكنا ننقل الذخائر من السهول إلى الجبال وهل الذين قاوموا فرنسا باتوا قطاع طرق في رأيك يا شيخ عبد الرحمن ؟

وصاح الشيخ عبد الرحمن بأعلى صوته وأشار بيده التي يمسك فيها مشرب النارجيله :

ـ ذلك الزمان انتهى نحن أولاد هذه الساعة يا رجل . انتم لم تنضبطوا لذلك قرر سعادته التخلص منكم جميعاً .

ورد الشيخ سعدو عليه بعصبية :

ـ ألم تسمع قول سيدنا عمر « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » وأنت رجل الدين الذي ننظر إليك بتكريم وإجلال واحترام تقول . تنعتنا بعدم الإنضباط وسعادته سيحاول طردنا وماذا عملنا حتى نطرد .وبأي حق يطرد الناس من بيوتهم يا رجل . أكان ذنبهم عدم دفع ديون الحجي الجالس هنا ؟

فرد الحجي بهدوء وبصوت منخفض ، وهو يرتب النار بملقط لضبط التنباكة فوق النارجيلة :

ـ حقي عليهم أن يعطوني ديوني وعندما طالبتهم بهذا الحق قالوا : إنهم لا يملكون النقود ولا المواشي فكان لا بد من أخذ بعض بناتهم لتأجيرهن وقد تمردوا على ذلك ولهذا طردهم سعادته . وصاحب المال سلطان يا شيخ سعدو .

ونظر في الدخان المتصاعد من النارجيلة وتابع الحديث ابراهيم :

ـ إسمع يا حجي أنا لا أحب أن أطيل كلامي كثيراً وخاصة عندما يجلس الأشخاص ويدعون أنهم أسياد المجتمع ولهم الحق في الحديث ونحن نسمع وخاصة ما يقوله الشيخ عبد الرحمن فإننا لا نقيم له وزناً ولكنه قال :

ـ إن مظاهرة قرية تيزين جعجعة وأنا أذكر له أنها ليست جعجعة في طاحون ولكنها طحين حقيقي وسيأكل الفلاحون الخبز من بعده . ورغم كل هذا فلا يستطيع المخاتير وأذناب الحجي والشيخ عبد الرحمن مهما كانت الظروف وإذا احتاج الأمر فلكل منا مدية على وسطه وبندقيته على كتفه وأنت تعرف يا شيخ عبد الرحمن لا يموت الإنسان إلا بيومه . وأتمنى عندما تتحدث أن تنزع الحقد من نفوسنا وقلوبنا ونتحدث كمواطنين وبشر مثلنا مثل غيرنا وأنت تعرف يا شيخ أن كل سنة نرسل إليكم الزكاة والخراف والهدايا .

وعلق الشيخ سعدو على حديث ابراهيم :

ـ الشيخ عبد الرحمن يقول للناس الإنسان أعمى الإنسان أحب أم كره والآن يبدو أنه نسي الحديث الشريف ونسي ما قاله للفلاحين .

ورد الشيخ مغتاظاً :

ـ أنت يا شيخ سعدو لا تفقه شيئاً في شؤون الدين ولا تعرف عن الإسلام إلا الآذان وأحياناً تخطىء في الأذان ولذلك قد يغيرك سعادته ولف رجلاً على أخرى وأخذ نفساً من نارجيلته .

فاغتاظ الشيخ سعدو ورد محتداً وبصوت عال :

ـ لماذا يغيرني وبماذا أخطأت حتى يغيرني أنا أؤذن في ساحة القرية وليس هناك جامع وإذا أراد تغييري فسأبقى إنساناً عادياً فلاحاً مثل كل الفلاحين يكنون لي التقدير والإحترام . فلا تنس عندما قرر الحجي وسعادته طرد ابراهيم وعبد الله وبقية الفلاحين من كل قرى المنطقة ذهبت لزيارتهم في الغاب تضامناً معهم وهناك تعرفت إلى الشيخ عبد الهادي ولا تستطيع أن تقول شيئاً عن هذا الشيخ .

والتفت إبراهيم وأشار بيده للشيخ سعدو قائلاً :

ـ أنت يا شيخ سعدو تبقى واحداً منا مهما تبدلت الظروف . وأتمنى أن يفهم الشيخ عبد الرحمن ويفكر بالمستقبل أكثر مما يتصور فالحياة قصيرة والزمن يمر بسرعة كبيرة .

وصاح السائس بعبد الله :

ـ لقد فلت بغلك في الخان اربطه إن شاء الله يموت فنتخلص منك ومنه .

وحصل هرج ومرج في الخان خشي ابراهيم وعبد الله على دابتيهما فنهضا للتأكد من وجودهما في الخان .

رافق محمود أباه سلوم والذي خرج بعربته ومعه بعض شباب القرية وسعاد وعدد من النسوة اللواتي كنَّ يزغردن طوال الطريق ورفع سلوم بيده مودعاً وقال:

ـ سلموا على الحجي وقولوا له أن سلوماً أخـذ الحبـل ليـوزع الأراضـي ولـن نعطيه غير حقه ، هذه السنة سنمشي عراة ولن نقترض منـه حتى لا يزيـد الديـون والفوائد علينا .

كان سلوم يردد الميحانا والعتابا على طـول الطـرق وكـانت سـعاد تـرد عليـه والفلاحون بغنون ويطلقون النار وهم عائدون للقرية . وهنـاك استقبلتهم النسـوة الواقفات على المصـاطب وأمـام البيـوت وفي سـاحة القريـة مـع الغجـر المنتظـرون ليقرعوا الطبول والدفوف .

قال الشيخ سعدو :

ـ الأرض لمن يعمل بهـا ولا إشـتراكية بـدون إشـتراكيين فدقـوا الطبـول أيهـا الناس.

وعقدت حلقات الدبكة . أمسـك سـلوم علـى الأول وبـدأ ابنـه يعـزف علـى المزمار عزفاً سريعاً .

كانت أم عمر تحمل منديلاً ونزلت إلى الساحة لترقص على الأول .

قالت سعاد :

ـ تصوروا أم عمر نزلت إلى الدبكة .

والوكيل جاسم لف عباءته وانسل بعيداً إلى طرف البيادر، قائلاً في نفسه :

ـ إنني لا أريد أن أسمع أو أرى ما يجري حتى لا يقول سعادته يوماً مـن الأيـام أنني سمحت بالإحتفال في القرية ، فحوابي : لم أكن موجوداً .

ركب المختار فرسه وغادر القرية للسبب نفسه ، والعسس بـدأ يـدق بالمهبـاج وكأنه يقرع بالدربكة غير آبه بما يجري . وهو في قمة فرحه .

وقال أحد الغجر عندما رأى الكلاب تتجمع .

ـ حتى الكلاب فرحت مع الناس ! وقد تكون وليمة كبيرة !

ـ ١٠ ـ

في عصر ذلك اليوم احتمع زعماء الإقطاعيين في المدينة ليبحثوا في آثار المهرجان الذي أقيم في قرية تيزين والمسيرة التي اخترقت الشوارع . وفي هذا الإجتماع قال رشاد بيك محتداً :

ـ كل يوم يعملون مهرجاناً خطابياً وليس لهم عمل غير الشتائم علينا ! بسيطة. عندما نذهب للقرية علينا أن نعلمهم ألا يتحرؤوا علينا . سنأخذ نساءهم بقوة .

ورد آخر :

ـ الأمور تقرر في العاصمة وليس هنا والقوانين هي التي تحدد الأقوى . والبيت الكبير سيبقى كبيراً والغني سيبقى غنياً والفلاح سيبقى فلاحاً . ولكن ما أزعجنا هو أن بعض العائلات المالكة والإقطاعية قد انضمت إلى العربي الإشتراكي وأقاموا هذا المهرجان في قراهم وكنا نتمنى لو بقوا معنا مثلما كانوا قبل حتى نستمر موحدي الصفوف ويداً واحدة . ولكن هذه العائلات التي انضمت إلى العربي الإشتراكي ليس لها قيمة في المجتمع ولو كان لها قيمة لما ذهبت إلى هناك والحقد والحسد أعماها فذهبت إلى العربي الإشتراكي لينتقموا منا وأنا سأعرف كيف أعاقب الفلاحين الذين تجمهروا وتحدّوا من هم أكبر منهم . كان يتحدث وهو يرتجف من الغيظ .

وعلق آخر كان يدخن في النارجيلة قائلاً :

ـ عليكم أن تتحلوا بالصبر فإذا كنا غير دقيقين في أعمالنا فسوف تنقلب علينا الأمور . هؤلاء الفلاحون الذين تظاهروا وشقوا عصا الطاعة إذا لم نستطع أن نعيدهم إلى الحظيرة يصبحون كالحيوانات إذا فلتت تعذبك حتى تقدر على ربطها ثانية . يا رشاد بك نحن فرسان ونفهم كيف نعيد الفلاحين إلى الحظائر . أتركوهم إلى النهاية وعندما يصلون لن يجدوا شيئاً مما قاموا لأجله لأن ليس هناك اشتراكية بين الناس مجرد دعاية سياسية .

كان كبير الإقطاعيين يتحدث والأقطاعيون يستمعون :

ـ عندما يتحرك الدهماء فعلينا أن نترك لها الطريق فهي تتعب في نهايته . وعندما تتوقف واحبك أن تسوقها . قولوا للفلاحين أن الإشتراكية جيدة ولكن أين هي الإشتراكية . ماذا وعدوكم في المهرجان عليهم أن يطبقوها . نحن موافقون عليها . فالإشتراكية ليست كلمة تقال على الورق أو تقال في خطبة ، هي مطاحننا وعندما توقف هذه الطاحونة يموت هؤلاء الناس جوعاً وأوقف الأموال التي أرسلها للدكاكين فإنهم لن يجدوا ما يشترونه لا كساء ولا غذاء ولا شيء عندئذ يطالبون بالإشتراكية هذه هي الحقيقة إتركوهم .

وأردف آخر :

ـ ولكن الإنتخابات يا سعادة البك ستجري بعد يومين أو ثلاثة .

ورد كبير الإقطاعيين :

ـ غداً في البرلمان تصدر القوانين التي نقررها نحن من هنا من هذا المكان وعندئذ تعيدهم كرابيحنا إلى الحظيرة . ولف رجلاً على رجل وساد صمت .

وبعد لحظة تابع حديثه قائلاً :

إتركوهم وعند الجد يعرفون من نحن وحتى قيادة الإشتراكية سوف لن يحاولوا

الإصطدام بنا وفي الإنتخابات لنا مقاعدنا ولهم مقاعدهم فاتركوهم كما يرغبون وفي المستقبل نحن نضع القوانين كما قلت لكم . الإشتراكية هي اقتصاد والإقتصاد هو نحن فلا داع للعجلة .

وقال آخر :

ـ يوجد بعض من أبناء الإقطاعيين يرتكبون بعض الحماقات ضد الفلاحين . خصوصاً مع نسائهم .

فرد عليه قائلاً :

ـ لا أنصح بمثل هذه الحماقات مع الفلاحات أو الغجريات وإذا رغب أبناؤنا ذلك فليأخذوهن إلى المدينة ففي المدينة يضيع الناس وتستتر الفضائح . وعندئذ لا يكون هناك اتهام .

في المساء كانت اجتماعات العربي الإشتراكي والبعث العربي وعند بقية الأحزاب . كل منهم يتحدث عن هذه المسيرة وهذا المهرجان .

قال الإستاذ علي :

ـ سوف نريهم من هم الإقطاعيين ؟

ورد الأستاذ عادل :

ـ في هذا المهرجان أرعبناهم . الحجي لم يتكلم مع أننا علقنا المناشير على جدران خانه .

وعلق آخر :

في هذه المسيرة قصمنا ظهر الإقطاعيين إلى نصفين ، نصف معنا ونصف ضدنا.

وأجاب آخر :

ـ قبل المهرجان قال لنا بعض الإقطاعيين أننا نحن لسنا ضد العربي الإشـتراكي فإذا رغبتم نأتي إلى العربي الإشتراكي . وقلت لهم أهلاً وسهلاً كل المواطنين يجب أن يكونوا في العربي الإشتراكي وفي الإنتخابات يجب أن تنتخبوا قائمتنا . وقال لا نستطيع أن نقررها نحن الشباب المثقفون فلآبائنا عقلية خاصة وهم يقررون ما يريدون .

واجتمع الحجي مع رجال الدين في الجامع الكبير وهم يتحدثون عن المهرجان وعن هذه العملية الغوغائية التي لم يشاهدوا مثلها سابقاً وإن هذا كان تحريضاً ضد الكبار .

قال المفتي :

ـ أطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم فسعادته وأقرباؤه من أولي الأمر فلماذا نشتمهم .

وهز الحجي رأسه وقال :

ـ المفتي هو الذي يعرف الحقيقة وهو الذي يتكلم الصدق. ولكن يا شيخ الجماهير اجتاحت الشارع فماذا نعمل نحن ؟

فعلق شيخ آخر قائلاً :

ـ ننتظر حتى تمر الدهماء وعلينا ألا نقف أمام الفلاحين الذين اجتاحوا هذه المدينة . والفلاحون في العربي الإشتراكي ليس لهم إلا التصفيق فقد يستغلونهم فترة من الوقت ثم يطردونهم ويعيدونهم إلى حظائرهم .

قال الحجي :

ـ نعم والله ما قلته يا شيخنا صدق. وهمس في أذن الشيخ . لقد وصلتني عباءة من بيروت إنها هدية لك لا بد من أن تذهب معي إلى الخان لأعطيك إياها .

وأردف الحجي قائلاً :

ـ الطلاب منقسمون إلى فئات وأشياع ويتناقشون ويتحدثون كثيراً ويفعلون قليلاً لأنهم لا يملكون شيئاً . والإخوان المسلمون نشيطون لصالح الإقطاعيين . وقد قاموا بدعاية ضد العربي الإشتراكي فأتوا بشيخ مزور على أنه خريج الأزهر الشريف وهو فلاح بسيط لا يعرف من أمور الدين شيئاً وقد لقنه الفاتحة الإستاذ علي فوق منصة الخطابة وكادت الفضيحة تزعزع ثقة الناس بالعربي الإشتراكي .

وعندما مرت المسيرة من المدينة أحدثت هزة نفسية أكثر من المهرجان الذي أقيم في القرية . ويبدو أن الفلاحين همهم أن يهجموا على الإقطاعيين وعلى قصورهم هكذا كانوا يحرضون بعضهم بعضاً وعبد الله كان يحرض على ذلك وقد قال أن الإقطاعيين أحرقوا له بيته في نهار عاصف بالأمطار والثلوج وهو لن ينسى ذلك اليوم .

كان إبراهيم في الخان فقد قال :

ـ الذين يؤمنون بالثورة غير الذين يؤمنون بالإنتقام .

بعد أيام قليلة بدأت الإنتخابات وكانت مفاجأة كبيرة بأن قائمة الإقطاعيين قد نجحت ولم ينجح إلا شخص واحد هو رئيس حزب العربي الإشتراكي ويومها قال الإقطاعيون سنترك لهم شعرة ونسميها شعرة معاوية إذا شدوها رخيناها وإذا تركوها شددناها .

عندما ظهرت نتائج الإنتخابات صاح سلوم : لقد نجح رئيس الحزب ، وكانت مفاجأة أن الفلاحين لم ينتخبوا الإقطاعيين خصوصاً في القرى التي يملكونها ويسيطرون عليها سيطرة كاملة .

وقال رشاد بك لأحد المخاتير :

ـ يبدو أنكم كنتم نياماً أو كنتم تثرثرون مع الحجي والشيخ عبد الرحمن نحن

نعتمد على المخاتير وعلى الوكلاء وعلى الوقافة وقد وزعوا أوراقنا على كل فلاح كانت بيده ورقة بيضاء ولكن كل فلاح يملك أيضاً بشكل سري أوراقاً حمراء كانت هناك اعمال سرية تدور غفلتم عنها . ولكن لكل حادث حديث لقد مرت الأمور بسلام هذه المرة .

كان سلوم يهمس لعبد الله قائلاً :

ـ عملنا على الطريقة السرية فلم يعرف احد كيف انتخبنا و لم يعرف الإقطاعيون كيف سرنا فأتوا بنا بسياراتهم الشاحنة وعدنا على بغالنا لقد عملنا على طريقة الأحزاب السرية وهكذا نجح في هذا العمل رئيس الحزب والان للمخاتير بهدلة كبيرة من سعادته .

والحق أن سعادته كان غاضباً فجمع أعوانه وجمع المخاتير وصاح بهم قائلاً :

ـ كنتم نياماً تثرثرون في الخانات لقد خدعتمونا باننا سوف ننجح نجاحاً كاملاً ولكن كنتم أنتم غافلين عما يجري وراء ظهوركم . الحق علي لأنني تركت أمراً هاماً كهذا بين أيديكم .

كان عبد الله قلقاً أما أهالي المنطقة التي يخف ظلم الإقطاع فيها والقرى التي أصحابها أعضاء في العربي الإشتراكي . فقد عقدوا الأفراح مزهوين لأنهم سحقوا بعض عائلات الإقطاعيين الكبيرة في المدينة .

ورغم كل هذا ظل كبير الإقطاعيين متماسكاً . فقد أصبح ابنه نائباً في البرلمان وهو لا يريد أكثر من ذلك . وتجمع الإقطاعيون في مضافته وأوصاهم ألا يلجأوا للإنتقام من الفلاحين والمخاتير وأن يتصرفوا وكأن الحادثة ليست لها اهمية فنجاح واحد ليس له قيمة في البرلمان فالقيمة هي القرار الذي يصدر في العاصمة . وليس في مدينة صغيرة تعتبر من الدرجة الرابعة لأن قائمة الإقطاعيين في العاصمة هي التي

نجحت وفي حلب وفي أغلب المدن إلا في هذه المدينة هي التي شقت عصا الطاعة . وتمرد الفلاحون على اسيادهم . وفاز رئيس العربي الإشتراكي فقط .

قال سلوم في القرية امام الفلاحين :

ـ قاتل أو مقتول لا يوجد غير ذلك . وخطط لهم العربي الإشتراكي أن يسود قرى الإقطاعيين الهدوء حتى لا يبادر الإقطاعيون بالإنتقام من الفلاحين بتهجيرهم فالعربي الإشتراكي ليس بوسعه أن يعمل شيئاً على أرض الواقع .

صعق الحجي بالنتائج وراح يفكر . ووصل إلى عنده الشيخ عبد الرحمن يهز راسه قائلاً :

ـ هل علمت بما حدث ؟! لقد نجح .. هذا ما كنت لا أتوقعه مطلقاً .

صمت الحجي دون أن يجيبه . فقد كان يدخن من نرجيلته ويشرب الشاي ويفكر بعمق . يجب إعادة الحسابات، إذا جاءت الإشتراكية . لقد ارسلنا الولد إلى العربي الإشتراكي ولكن هذا لا يكفي وقد يقنعوه فيما بعد بالإشتراكية من يدري؟! إذا اقتنع وشق عصا الطاعة عليّ فتظهر أمامي مشكلة جديدة . ولكن عليه أن يكون عوناً لي بين الإشتراكيين . لا بد أن يكون لنا سهم مع العربي الإشتراكي وخاصة فيما يتعلق بالتجارة والربح وتحديد الأسعار .

كان الشيخ عبد الرحمن يتحدث والحجي شارداً في موضوع آخر ولا يرد عليه بل يهز رأسه إلى الأمام وإلى الخلف . وهي العادة التي يقول عنها عبد الله دائماً :

ـ عندما يفكر الحجي بموضوع غير الذي يسمعه يهز رأسه كالكديش الذي يلدغه الذباب .

وقال الشيخ عبد الرحمن :

ـ حتى الغجرية نوفة أصبحت مع العربي الإشتراكي .

أيقظت الكلمة الحجي فالتفت إليه قائلاً :

ـ هؤلاء الساقطات هن اللواتي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه يا رجل . ولكن علينا أن نرتاح قليلاً الآن .

وقال عبد الرحمن :

ـ ما رأيك أن نذهب إلى المدام في المحطة ونشرب الشاي وهناك نتحدث .

وأجابه الحجي :

ـ أين الغجرية حتى نرسلها أمامنا إلى المدام .

رد الشيخ عبد الرحمن :

ـ لا بد أن عند المدام الكثيرات . المحطة قريبة والقطار سيأتي في منتصف الليل وقد تخبّر إلى حلب أو إلى حمص ليأتين بالقطار . وقد يأتين بقطار البضائع إذا رغب مدير المحطة . لنرتاح قليلاً . الدنيا لم تنته وسوف لن ننام على ضيم وإن سعادته هزأنا أمام بعضنا بعضا والمفتي غير راض عن النتائج (كان الله بعوننا) . تفضل لنسير .

وهم في باب الخان يريدون أن يسروا وصل الشيخ صفوك وكان قد لف شماخه « منديل يوضع على الرأس » بطريقة تؤكد أنه نجح بالبرلمان وعندما ترجل عن فرسه رحب به الحجي قائلاً :

ـ أهلاً شيخ المشايخ الآن نوّر البرلمان وقد أصبح لنا فارس فيه .

ورد الشيخ صفوك :

ـ أصبح عندك فارس وبندقية في البرلمان نقاتل من أجل جميع القرارات التي يقررها سعادته يا حجي وفرح الشيخ عبد الرحمن برد الشيخ صفوك قائلاً :

ـ هل تزور سعادته ؟

رد الشيخ صفوك :

ـ أنا مع سعادته وأنا لست مع الإشتراكيين . ولا أنسى لهانس هذا الجميل الذي قدمه لي لقد أثر تأثيراً كبيراً على سعادته واستطاع أن يفرضني في الإنتخابات وها أنا ذا أنجح فيها بين البدو وأصبح الرقم الأول بين العشائر .

ذهب الشيخ صفوك مع الحجي والشيخ عبد الرحمن إلى خان أبي جورج واعتذر أبو جورج عن السهرة متذرعاً بأن هناك صفقة من الخنازير وصلت ، وعليه أن يصدرها للمحطة بسرعة . ولكنه قال :

ـ سألحق بكم خذوا هذا الخنزير الصغير هدية إلى المدام .

وفكر الحجي وهو في طريقه إلى المحطة . إن المستقبل يبدو غامضاً وهو لصالح الإشتراكيين أكثر من الإقطاعيين في هذه المنطقة ويجب عليه أن يكون مع الفلاحين بطريقة ظاهرية بشكل ما .

وصلوا إلى بيت المدام . فاستقبلتهم بالترحيب . وكانت ترغب أن ينجح الإقطاعيون ولكن ماذا بوسعها أن تعمل فقالت :

ـ النتائج مزعجة ولكن الإقطاعيين نجحوا بالأكثرية في غير هذه المدينة ، وهم يسيطرون على البرلمان وليس كما تتصورون . النتائج تتقرر ليس في هذه المدينة وحدها وليس القرار لقريتكم الصغيرة أو فلاحيكم الذين ليس لهم قيمة . البلاد أوسع من ذلك .

وسألت المدام الحجي :

ـ لماذا لم تأت بسلوم معك لكي يطبخ لنا الخاروف وطيور الحمام ويغسل لي الصحون .

تقرر عقد اجتماع في مجلس النواب بعد الإنتخابات بأيام. فلقد وصل الشيخ صفوك وبعض النواب إلى محطة الحجاز وذهبوا إلى فندق الأهرام بينما نزل

الآخرون في فندق أوريان بلاس . وعندما وصل الشيخ صفوك إلى الفندق رحب به أبو العز قائلاً :

زبون دائم خير من عشرة مؤقتين . ونهض واقفاً وقد عدل بطربوشه احتراماً وصافحه . ورحب بأبي عثمان الذي نجح نائباً عن الساحل وتعانقا وقال أهلاً بالنواب . ونهض سمير لتحضير الشاي وأبو نعيم ليلمع الأحذية وشهناز كانت ترتدي فستاناً أخضر . خرجت عندما سمعت الضجيج فشاهدت الشيخ صفوك واقفاً كالرمح وصاحت بصوت عال:

ـ أهلاً بالشيخ صفوك شيخ البرلمان . يا هلا ـ الآن القوانين ستكون دقيقة بوجود شيخ مشايخ العشائر .

وقال أبو العز :

ـ سأحضر لكم الغداء . هل تشربون العرق ؟

ولكن الشيخ صفوك رد بصوت عال ـ له يا رجل !

ـ الغداء على حسابي لكل النواب الذين وصلوا ولكل الضيوف ولكل نزلاء الفندق وليشربوا الوسكي .

وضحكوا جيمعاً لأنه قالها بالبدوية .

كان رأي سعادته بالمهرجان أنه لا يتعدى أن يكون زعيقاً ونعيقاً وليس له ولأصحابه قيمة تذكر على الأرض فالقوانين والقرارات تقرر كما نرغب نحن لأن رئيس الوزراء من الإقطاعيين ورئيس مجلس النواب من الإقطاعيين أيضاً ، وكذلك رئيس الدولة الآن أصبح من الإقطاعيين ، وشكلت الوزارة و لم يكن فيها من الإشتراكيين إلا وزير الزراعة . ومن البعثيين وزير المعارف ، أما الباقون فهم من الإقطاعيين أو ممن يدورون في فلكهم .

احتمع الأعضاء وثبتوا وبدأ النقاش حامياً يدور في البرلمان حول إعادة الشرعية إلى البلاد .

وقد سيطر الإقطاعيون مرة ثانية على الرئاسة والوزراة وعلى السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ، وحصر دور العربي الإشتراكي ، والبعث العربي في مجالات ضيقة جداً .

كان الجنرال سامي يجري إتصالاته للموافقة على حلف بغداد مع الجنرال نوري وآخرين ، تدور في الخفاء بين شركات النفط التي تتطاحن على المنطقة كشركة التابلاين وشركة (الأي . بي . سي) . وتحرك المستر وليامس في بيروت حتى لا تبرم مثل هذه الإتفاقات بين دمشق وبغداد . واتصل ببعض المتنفذين في سورية واستدعى الكولونيل سيمون والسير جان والمستر جبارة وميلر . كان يوماً ماطراً وعاصفاً وطريق بيروت مقطوعاً بسبب تراكم الثلوج . بينما كان الكولونيلات قادة الإنقلاب يجلسون في بيت جيهان يلعبون الورق ويشربون الوسكي في باب توما (سهرة رومنطيقية كما عبرت عنها شهناز !) كانوا يعلقون وينكتون على الحكومة وعلى الإتجاه الجديد .

قال أحد الكولونيلات :

ـ يبدو أن الجنرال سامي لم يشاهد رأس الذئب المقطوع، وضحكوا .

وعلق آخر :

ـ إن الإنسان عندما يصل إلى هذه الكرسي يتصور أنه لا يستطيع أن يخلعه أحد وأنه أصبح قطعة من الحجر لا يفهم ما إلا يدور في ذهنه ويبدو أن عديله خدعه وإن هناك دعماً له ولكن يجب أن نضع حداً للمستر هانس لتدخله في أمورنا الداخلية وعودة البلاد إلى عجلة الهيمنة عليها .

ومن هنا بدأ الكولونيلات يفكرون بالتخلص من الجنرال وأعوانه بشكل هادىء .

كان الكولونيل أديب هو أكثرهم هدوءاً . يسمع تعليقات الكولونيلات وهو صامت يفكر ماذا سيعمل لأنه يطمح أن يكون بديلاً للجنرال سامي وهذه هي فرصته أن يكون محله . إذاً عليه أن يدفعه باتجاه هذا الحلف ليورط الدولة ولكن قبل أن يدفع الجنرال سامي ليوافق على هذا الحلف يجب أن يترك كل المسؤولين السياسيين يتصلون به .

كان الكولونيل أديب يدرك جيداً أن الصراعات بين شركات النفط على أشدها في هذه المنطقة وخاصة الفرنسيين والإنكليز والأميركان وبعض الشركات الإستثمارية هي تحدد المنتصرين فكل منها يريد الحصة الكبرى والسيطرة على السياسة السورية وقد فازت التابلاين على الأوريان أيام الماريشال والآن فازت الأنغلوا أوريان على التابلاين . وبدأ يفكر وهو يلعب الورق في بيت سلفا ، وكأن كل شيء لا يعنيه !

وصل الكولونيل سيمون والسير جان الذي يلعب معهم أغلب الأحيان وكان دائماً الخاسر الوحيد في هذه اللعبة . جاؤوا في آخر الليل برفقة شهناز وميلر وبعض فنانات الملاهي القريب من بيتها الذي يقرر سياسة سورية من الناحية الفعلية وهو اليد الخفية التي تتدخل في صنع الإنقلابات المتكررة والمستمرة .

أما الجنرال سامي الذي فكر أن رئيس الدولة من الإقطاعيين ورئيس مجلس النواب أيضاً ، وما عليه إلا أن يتولى السلطة الشرعية بشكل مستمر ويعتبر رئيس الدولة نائباً له ، أو عليه أن يتخلى عن السلطة . كذلك قرر توقيع الحلف . طالما أن هناك تسابقاً بين الناس على توقيع هذا الحلف مع العراق وبذلك ينقذ سلطته وسمعته ، وهذا ما دفعه إليه عديله بينما كان الجنرال غير طامع بذلك إطلاقاً .

في هذه الفترة كـان على الحجي أن يـأتي إلى العاصمـة ليعـرف كيـف تسير الأمور وكيف يصفي الحسابات مع بنك الياس برفقة الشيخ عبد الرحمـن والمختـار أبو حميدة والمختار داوود .

إستعدوا للرحيل أخذوا الأتومتريس مغادرين إلى العاصمة. وفي المحطـة بحمـص شجعتهم المدام وقالت :

ـ في المرة السابقة قلت لكم أنكم مستمرون وأن مواقعكـم ستبقى كمـا هـي ولا تخافوا من شيء .

وقد قدم المختار داوود هدية لها لأن معلمه أحد قادة الإنقلاب !

وأردفت قائلة :

ـ يبدو أن المختار داوود أصغركم وعنده زوجتـان وعليـه أن يـتزوج الثالثـة . قالتها بغناج مازحة مع المختار داوود . وتابعت حاولت أن أقنع المختار أبو حميـدة بابنته ولكنه رفض.

في عصر ذلك اليـوم وصلـوا إلى محطـة الحجـاز وأسـرعوا إلى فنـدق الأهـرام . وهناك رحب بهم الشيخ صفوك قائلا :

ـ هلا .... هلا ....

ـ عندنا جلسة في البرلمان اليوم . وغمز شهناز قائلاً لها :

ـ إحجزي للمخاتير والحجي وللشيخ عبـد الرحمـن طاولـة في ملهـى الكـروان على حسابي .

وتابع : نحن نؤيد سعادته كما يقرر نرفع أيدينا ، سيبقى عقلي معكم . ووجـه حديثه إلى أبو العز قائلاً :

ـ رتب لنا كل شيء وشهناز تدبر لنا كـل أمورنـا أفضـل مـن كـل النـواب . وإنني من اليوم سأسمي شهناز شاها ! (إسم بدوي) .

جلسوا يشربون الشاي ، وبدأ أبو نعيم يلمع أحذيتهم ويقول لهم الدنيا مقلوبة، ويصيح مجنون أمام مجلس الوزراء باعوها ... هذه المرة باعوها ... ويعلق الحارس الليلي الذي وصل ليستلم مسؤوليته :

« لا حول ولا قوة إلا بالله كل يوم يقلقنا هذا المجنون » إنهم من يوم ما خلقنا وهم يبيعونها ويشترونها إلى أين سيصل البيع والشراء .

التفت الشيخ صفوك إلى الحجي قائلاً :

ـ اليوم سأسهر معك إلى الصباح ولا أنسى جميلكم بعمري، لقد ساعدتوني في الإنتخابات . سأرفع يدي بالموافقة على كل شيء يرغب به سعادته . وقد حجزت طاولة دائمة في هذا الملهى .

وهمس باذنه الشيخ عبد الرحمن قائلاً :

ـ وهل هناك فتيات جميلات يتكلمن اللغة العربية .

ورد عليه الشيخ صفوك :

ـ ما علاقة اللغة بذلك ؟ هل تريد أن تخطب في الجامع . نحن لسنا ذاهبين إلى خطبة الجمعة يا رجل ! نحن في ملهى .

والتفت إلى شهناز قائلاً :

ـ أنا لا أريد يا شهناز واحدة تتكلم العربية يمكن أن تكون جاسوسة . تهرب بعض الأحاديث عن البرلمان إذا أصبحنا سكارى !

وصاحت شهناز بدلال : الله .. الله !

ـ وهل يوجد جواسيس هذه الأيام . وأية فتاة تعمل في الملهى تأخذ رخصة من الأمن ويعرفونها إذا كانت جاسوسة أم غير جاسوسة .هل هذا كلام يا رجل!

وقال الشيخ صفوك :

ـ للإحتياط لا أريدها أن تتكلم العربية ..لازم فرنجيات! والطاولة كما يرغب الشيخ عبد الرحمن بالزاوية !

ورد الحجي :

يبدو أن الشيخ صفوك ليس له خبرة في الحمير . وضحكوا جميعاً .

كان الحجي يفكر بالسفر إلى بيروت ليجري الحسابات مع الياس بالنسبة للبنادق والطلقات التي هربت إلى البادية وإلى الأحياء الشعبية وبدأ يحسب الأرباح والخسائر في ذهنه . والجميع يدخنون النارجيل ما عدا الشيخ صفوك وأبو عثمان . وبدأ أبو عثمان يعارضهم قائلاً :

ـ هذا الشيخ صفوك الذي أصبح عضواً في البرلمان يشكل فضيحة للنواب كل يوم في ملهى الكروان . وكل ليلة يأتي ببنت من الملهى لتنام معه . عيب يا رجل أنت عضو في البرلمان وأنت شيخ شيوخ البدو .

وضحك الشيخ صفوك وقال :

ـ قد لا أكون في الدورة القادمة عضواً في البرلمان . ألا تسمع يا أبا عثمان قول الشعراء :

« إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن الخافقات لها سكون

وإن ولدت عشارك فاحتلبها و لم تدر الفصيل لمن يكون »

أما الحجي الذي أخذ يفكر بما يدور في البنك وقيمة الليرة السورية بالنسبة لليرة اللبنانية لأن هذا ما يهمه الآن وذهب لأحد الخانات ليعرف ما هي الأسعار وعاد بسرعة .

في الساعة التاسعة ذهب الشيخ صفوك إلى البرلمان ودارت جلسة عاصفة حول

الإتفاقيات هل تبرم أو لا تبرم ؟ وقد وضع الضغط على البرلمان وعلى رئيس الدولة من أجل توقيع الحلف بين دمشق و بغداد . وأنها تجري بوصاية من المستر هانس لصالح شركة النفط في العراق (الأي .بي .سي)! ورفعت الجلسلة !

تجمعوا في ملهى الكروان . وجاء الشيخ صفوك بعد العاشرة وجلس مع المخاتير والحجي . وذهب المختار داوود إلى الكولونيل لمشاهدته ومعرفة الأخبار !

قال له الكولونيل :

ـ لِمَ جئت الآن . عليك بالصبر يا مختار قد يأتي وقتك وتكون مختار المخاتير . ولكن يجب أن تكون أكثر قسوة مع الناس . وسمعت أنك تريد أن تتزوج وهذا ليس وقته .

وأجاب المختار داوود :

ـ وماذا يمنع إذا كانت لدي زوجة ثالثة . سيكون عندي اولاد كثيرون يحملون السلاح معك يا سيدي . فهز الكولونيل رأسه مبتسماً وعلق :

ـ قلت لك ليس وقت الزواج .

كان الوقت ضيقاً بالنسبة للكولونيل وأعصابه متوترة . وكان المستر وليامس قد استدعى الكولونيل سيمون وميلر ومستر جبارة وعقدوا جلسة في القنصلية الأمريكية في بيروت.

وقال المستر وليامس : موجهاً حديثه لهم بصوت عال وقسوة وشبه توبيخ :

هل نصبح نحن من الدرجة الثانية في سورية ويبقى المستر هانس يتحكم بمشاريعنا وسلوكنا وبالمشروع الذي يفكر فيه سامي . يجب عليكم أن تنهوا هذا الجنرال سامي الغبي وبأسرع ما يمكن . عليما ألا يمضي هذا الشهر حتى تتبدل سياسة سورية وعليكم أن توجهوا السياسة باتجاه القاهرة والرياض . فالتابلاين هي عصب الحياة .

ونظر في وجه المستر جبارة قائلاً :

ـ هل انت نائم يا رجل !

ـ نتأمل فيك أكثر نشاطاً لأن لديك الخبرات الكبيرة وأنت عصب الإقتصاد والمالية وما بك الآن كأنك تدير ظهرك للناس لماذا . هل كبرت بالسن لا زلت شاباً قوياً !

كان المستر جبارة يقول لنفسه إذا دفعوا لي أكثر فأنا سأعمل معهم ولا أريد أن أصرف هذه النقود فسأبدأ على طريقة الحجي كل ما يدخل في جيبي لا يخرج .

فتح الطريق وعادوا إلى دمشق وبدأوا بنشاط مكثف لمنع الإتفاق . بينما كان الحجي فد أنهى حساباته مع الياس وتأكد أن أمواله وأموال سعادته في بنك روتشيلد . وأخبره الياس أن اسم البنك في باريس أصبح « بنك الشرق الأوسط » بدلاً من بنك روتشيلد .

عندما عاد الحجي اجتمع مع الشيخ صفوك ورفاقه ثانية وسهروا سهرة حمراء في ملهى الكروان وعادوا في منتصف الليل إلى فندق الأهرام ، وفي منتصف الليل عندما كانوا نياماً والمطر يقرع الشبابيك . والرياح القوية تهزها . وكان الحارس الليلي يجلس عند الباب يشرب الشاي .

إستيقظا على قرقعة بعض الدواليب وأفاق الشيخ عبد الرحمن والشيخ صفوك مع إحدى فنانات الملهى . ونهضت شهناز وأسرعت إلى أبو العز قائلة :

ـ ماذا هناك في الشارع ؟!

استيقظ نزلاء الفندق جميعاً . كانت هناك دورية توقفت عند الباب ونزل أفرادها من السيارة . وبعد لحظات أدار أبو العز الراديو وقال : انتظروا .

بدأ الراديو يذيع مارشات عسكرية ، وبعد قليل أذيع بلاغ رقم واحد قائلاً :

ـ « أيها الشعب الكريم ثبت لدى الجيش أن الجنرال سامي وعديله أسعد وبعض السياسيين في البلاد يتآمرون على سلامة الجيش وكيان البلاد ونظامها الجمهوري مع بعض الجهات الأجنبية وأن الجيش يعلم هذا الأمر منذ البداية وحاول ضبطه بشتى الطرق بإقناع تارة وبالتهديد المضني تارة أخرى أن يحولوا دون إتمام المؤامرة . وأن يقنعوا المتآمرين بالرجوع عن رغبتهم فلم يرجعوا فاضطر الجيش حرصاً على سلامة البلاد وسلامته أن يقصي المتآمرين ، وليس للجيش أية غاية أخرى ، وإنه سيترك البلاد بأيدي رجالها الشرعيين ولا يتدخل في القضايا السياسية . اللهم إلا كانت سلامة البلاد وكيانها يستدعيان ذلك .

وعلق الحجي قائلاً :

ـ إذا كانت البلاد وكيانها يستدعيان ذلك . معنى هذا هناك إنقلاب وهذا نص البلاغ .

وأذيع البلاغ الثاني :

« يمنع التجول منعاً باتاً » .

قال الحجي :

ـ يا لله .. يا لله ... يا جماعة هيا لنسرع إلى محطة القطار ونأخذ الحافلة ونعود اليوم إلى مدينتنا .

كان صوت المجنون يصيح بالشارع خارقاً قرار منع التجول « باعوها ... هذه المرة باعوها ... » بينما كان المطر يقرع الشبابيك .

هرعوا المخاتير والمشايخ والحجي على عجل إلى محطة القطار التي ستوصلهم إلى قراهم وهم يتعسرون بأفكارهم ماذا سيحدث بعد قليل . هذا هو السؤال الذي يسأله كل مواطن في سورية .

بينما جلست شهناز وباقي المومسات المتحلقات حول المذياع وهن يعلقن :

ـ عملها الكولونيل .

وقد سمع صوت قادم من الشارع يصرخ :

« باعوها أيها الناس » تذكروا قوله تعالى :

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾

الدنيا مقلوبة والغد أفضل .

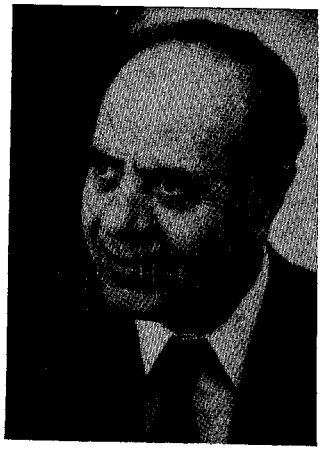

نبذة عن حياة الكاتب
محمد إبراهيم العلي

ولد الكاتب محمد إبراهيم العلي عام ١٩٣٤ في إحدى قرى منطقة السلمية التي تقع شرق مدينة حماة . وعاش فيها طفولة اتسمت بعدم الإستقرار وقسوة العيش . وهكذا لاحقه قدر عائلته الذي لم يستقر بها مكان منذ قرن من الزمن مدفوعة بروح التمرد ضد الظلم والإضطهاد ... فعائلة العلي كانت أصلاً متوطنة في الساحل السوري حتى منتصف القرن التاسع عشر . ولكن نزاعاً مسلحاً بين جده الأكبر وقائد الحامية العثمانية في تلك المنطقة قتل على أثره الضابط العثماني، اضطر العائلة إلى الهرب باتجاه الشرق على أطراف البادية السورية حيث وجدت لها مستقراً في منطقة السلمية ، ولو إلى حين .. ودخلت العائلة في صراع مع إقطاعي المنطقة الشرقية ، ولم يكن والده في يوم من الأيام يقبل الضيم أو الخنوع بل كان يتمرد على ظلم الإقطاعي حتى ولو كلفه ذلك مطاردة عائلته والبطش بها وتهجيرها إلى منطقة أخرى.

وفي بداية العشرينات من هذا القرن وأثناء فترة الإحتلال الإفرنسي لسورية كانت عائلته سباقة في التصدي إلى الإحتلال الإفرنسي ، كما تصدت دائماً لظلم الإقطاعيين وتمردت عليهم حتى ولو كلفها ذلك عدم استقرارها وتهجيرها .

لقد كانت أفكار التمرد والعصيان ترهب وتقض مضاجع الإقطاعيين وأسياد القرى وكان هؤلاء غالباً ما يتوصلون إلى ضرب هذه الأفكار وإفراغها من كل أثر إما بالعنف أو بشراء الذمم أو بالإستعانة بجنود الإحتلال أو التهجير وكانت هذه الوسيلة الأخيرة من نصيب أسرته .

وبعد الحرب العالمية الثانية استقرت عائلته في منطقة الغاب التي كان الإقطاع فيها ضعيفاً .... لقد هيأت له هذه الحياة على الرغم من قساوتها تنوعاً مدهشاً في المشاهد والإكتشافات والمعارف . وأغنت ذاكرته بالصور والوقائع والأحداث التي دفعته بقوة فيما بعد وفي فترة فتوته إلى اختيار الكفاح طريقاً له في الحياة . وأن يضع معنى واحداً لحياته كلها يتمثل في مجابهة الإقطاع والحد من سيطرة الأغنياء المستغلين والدفاع عن حقوق الفلاحين البسطاء في الحرية والعيش بكرامة . وارتسمت إلى الأبد في مخيلته ألوان الإضطهاد التي كان يسومها الإقطاعيون لفلاحيهم ، وضروب التنكيل والإستغلال البشع التي كانوا يوقعونها بهم ، وبشكل يتساوى مع حملات وأشكال القمع والإضطهاد التي كان يقوم بها جنود الإحتلال من طرف ثان ، لتكتمل الصورة بأفظع وأقسى صنوف الظلم والقهر التي لا تنعكس مظاهرها وآثارها على انحطاط الحياة وجفافها فحسب ، إنما تبقى آثارها على أجساد الفلاحين وأرواحهم المهزومة .

وبدت الحياة كما لو أن القدر يأبى أن يترك لهؤلاء المقهورين أي فرصة للعيش أو أي أمل فيه عندما وصل ضجيج الحرب إلى تلك القرى ، وهزت انفجاراتها بيوتها الطينية وأقلقت صمتها الأبدي الحافل بالذل والحرمان . كان من الصعب تخيل المفارقات التي انطوت عليها تلك الفترة . ففي الوقت الذي كان ينحبس فيه المطر وتتيبس الأرض ، وتختنق البذور في تربتها ، ويعز على الناس الغذاء حتى لا

يجدون ما يقتاتون به إلا عشب البراري ، كانت طائرات المتقاتلين تزرع سماءهم باللهيب وتقصف قراهم بالقنابل فتمنحهم جحيماً ضارياً لا راد له يبدو فيه الإقطاعي المكتنز بالصحة والملذات الشيطان بعينه الذي لا يتورع عن اختلاس قوين الفلاحين الضئيل من سكر ودقيق الذي توزعه السلطات المحلية للفلاحين بالحد الذي يمكن أن يدفع عنهم الموت فقط .

تلك هي الصور التي تلبست روحه منذ وعى على الحياة . وانطبعت في أحاسيسه كأثلام لا تفارقها حتى بعد زمن طويل تغيرت فيه الحياة إلى هذا الحد أو ذاك . والتصقت به كجلده تحمله إليها أجنحة من الذكرى كلما تحسس عالمه الأفضل الذي وصل إليه . والمتتبع لأعماله الروائية ، وهو الذي اتجه إلى الكتابة في سن متأخرة ، سيكتشف دون جهد أثر تلك المرحلة في أعمال نفسه ، وأثرها بالتالي على تكوينه الأدبي والفكري . والحق أنه ما استطاع أن يخرج من أسارها . ظلت تشده إليها وكأنما تحدث الآن . وفي أعمال عديدة لشدة ما تشربت بها روحه ، ما استطاع أن يعطي عنواناً واحداً لموضوعات مختلفة سوى كلمة « الطغيان » ... وهو عنوان الثلاثية التي استوحى موضوعاتها من تلك الفترة من حياة الفلاحين . لأنه لم يكن قادراً طالما أنه أمسك بالقلم على أن ينس أباه أو أحد أقاربه أو أحد معارفه وهو ما يزال على قيد الحياة ويحمل فوق ظهره أو وجهه ندبة عريضة من سياط السادة أو بنادقهم في تلك المرحلة .

لقد رافقته تلك الأحاسيس والصور في مراحل حياته المتنوعة والحافلة بالتجارب ، (والتي أصاب فيها بعض النجاح)، فكانت هادياً له في علاقته مع العالم والناس وميزاناً ذا سطوة في تفسير الاكتشافات والحقائق التي تمر به . فما أولى ظهره لبسطاء الناس الذين خرج من بينهم ، وما انسلخ عن عبق الحياة القديمة

برجالاتها ومآسيها ، وما نسي أنفاسهم وروائح عرقهم ودفء أجسادهم . لقد كانوا بالنسبة له دائماً المحيط الطبيعي الذي يمده بالحياة والسعادة .

وما كانت المراحل اللاحقة في حياته إلا فسحات صغيرة جهد فيها نفسه ليثبت تلك الصور في الذاكرة والوعي والمشاعر ويغتني بتجارب اضافية ، لا لكي تعينه على الكتابة في المستقبل ، وهو الذ لم يفكر بالكتابة إلا في وقت متأخر ، إنما كي يتسلح بعدة الحياة المناسبة للكفاح الذي اختاره من اجل التغيير والنضال ضد الظلم والأوضاع الجائرة التي يرسيها. لا سيما أن رياح التغيير كانت قد بدأت تهب في جنبات المجتمع السوري آنذاك .

ففي نهاية الحرب العالمية الثانية وحصول البلاد على استقلالها وجلاء القوات الأجنبية عن أرضها كان قد أنهى تعليم الكتّاب (الملا) وحفظ القرآن الكريم وأتقن علوم اللغة والتجويد . ولأن تغيراً أراد والده أن يرسله إلى مدارس المنطقة الساحلة لمتابعة تعليمه هناك نظراً لعدم وجود مدارس في منطقته .

لقد أدرك والده بحسّه الواقعي أن العلم هو العدو الحقيقي والرئيسي للاقطاع طالما انهم يحاربونه كما يحاربون الوباء ويقاومون قيام أي مدرسة كما يقاومون أي تمرد . وهو لهذا الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من القضاء عليهم . وهكذا قرر ارساله إلى مدرسة في جبال الساحل . لكن سوء الأحوال المادية والظروف الصعبة التي عاناها في ذلك العام اضطرته للعودة إلى أهله . وفي العام الذي تلاه ذهب إلى حماة ودخل في مدرسة دينية تدعى « المحمدية الشرعية » وانتسب فيها إلى الصف الخامس مباشرة .

وتابع دراسته في حماة من عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥١ حيث حصل على الشهادة الاعدادية من ثانوية « ابن رشد » الداخلية التي كانت تعطي بعض المقاعد للفقراء .

في تلك الأثناء كانت مدينة حماة مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها المئة ألف نسمة . وكانت تعيش فيها خمس أسر أو ست من أسر الاقطاع التي تملك ريف وأراضي المحافظة . منها أسرة العظم والبرازي والكيلاني والبارودي . في حين كانت عدة اسر ثرية أخرى تهيمن على البازار والسوق التجاري الذي تتجمع فيه الأموال ومحاصيل الفلاحين . بينما كانت بقية الناس تعيش في فاقة تفصلهم عن الأغنياء والموسرين هوة عميقة تتنامى باستمرار .

في سنوات الدراسة تلك اندفع إلى قلب حياة المدينة ، التي تعيش تناقضات طبقية عنيفة . جوهرها واحد لا يختلف عن جوهر التناقضات الطبقية في الريف وإن بدا أنها أقل وطأة منها . وإلى هذا العهد تعود معرفته بالعلاقات الاقتصادية التي تربط القرية بالمدينة . ودور الخانات والتجار في أستغلال الفلاحين القبيح وآلية وأساليب دورات الاستغلال هذه التي تعتمد أساساً على جهل الفلاحين وحاجتهم إلى المال والدين لفك عثراتهم المتلاحقة . ولم يكن من باب المصادفة أن تكون رواية « المرابي » التي تناولت موضوعها من هذه البيئة ومن هذه العناصر أول رواية له . ذلك أن تلك الخانات الاستغلالية مع مخافر الدرك في زمن الفرنسيين مع قصر البك كانت تمثل مجتمعة رموز الطغيان الكريهة التي تسلب خيرات الأرض وتسوم الناس بعقوبات تبدأ بالتحويع ولا تنتهي بالجلد حتى لا يفكروا بالاحتجاج والعصيان يوماً ما .

كانت السياسة تعني عنده الكفاح ضد ظلم الاقطاع . ولذلك كان اول عمل قام به وهو على مقعد الدراسة الانتساب إلى حزب الشباب الذي كان يطرح بعض قضايا هذا الصراع . وفي عام ١٩٤٨ أصبح عضواً عاملاً فيه ، وسمي الحزب فيما بعد بالحزب العربي الاشتراكي . الذي اندمج في مطلع الخمسينات بحزب

البعث ليؤلفا سوية حزب البعث العربي الاشتراكي . وجاءت الأحداث متلاحقة لتغني الأفكار السياسية في ذلك الوقت . لقد نشبت حرب عام ١٩٤٨ وتلتها الهزيمة والنكبة التي هزت مشاعر الناس وانتفضت البلاد من أقصاها إلى أقصاها وخرجت الجماهير إلى الشوارع والساحات في كل مكان تتساءل عن أسباب الهزيمة ومصير فلسطين وعما يخبىء لها المستقبل . ونشطت في تلك الفترة الأحزاب السياسية كافة واحتدم الصراع بينها وبين الاقطاع والبرجوازيات الكبيرة . وفي مدينة حماة لعب المعلمون دوراً رئيسياً في هذا الصراع الذي اتخذ أشكالاً عديدة من المواجهة والعراك إلى المظاهرات والاضرابات ، إلى كتابة المناشير والتحريض والتوعية ، وتوزيع المناشير على الفلاحين في القرى لأنهم يشكلون الكتلة الكبيرة التي يمكن أن يعتمد عليها في أي انتفاضة أو ثورة . ولعبت الأحداث السياسية اللاحقة دوراً جديداً في تعميق الصراع وتطوره وصارت النضالات المطلبية والقضايا الوطنية والقومية متلازمة. فخرجت المظاهرات الغاضبة ضد اتفاقية رودس . وحدث على أثرها أول انقلاب عسكري قاده المشير حسني الزعيم ، لكنه لم يدم أكثر من أشهر حتى انكشف على حقيقته وأسفر عن وجه مما لي للاقطاع والاستعمار و لم يأت بجديد للطبقات المسحوقة .

عاش هذه الأحداث بكل كيانه وتتبع انعكاساتها على الفلاحين وأهل المدينة في حماة ، وشارك بفعالية قصوى في أعمال حزب العربي الاشتراكي الذي اندمج فيما بعد بحزب البعث العربي ليشكلا حزباً وحداً ـــ اسمه حزب البعث العربي الآشتراكي .

وأخذت الأفكار الاشتراكية منحى آخر أكثر واقعية وأشد وضوحاً . وكان لا بد من تقويتها وتصليبها بمزيد من المشاركة الفعالة في الأحداث الوطنية . و لم

تحدث مظاهرة أو اضراب في تلك الفترة لم يشارك فيها . وقد أمدته حياته بين البدو وسنوات الرعي بأسلحة ما كانت تخطر على بال . وهي حسن استخدام « المقلاع » . كان يستطيع أن يصيب أي هدف وكأنه يستخدم بندقية . وكان مع بعض الرفاق والزملاء الطلبة يستطيعون اغلاق أسواق المدينة الرئيسية باستخدامه فقط . أو أن يهزموا فصيلاً من الدرك المدجج بالسلاح الناري .

لقد خاضوا معارك كثيرة في المدارس والساحات وأمام دار الحكومة وقصور الاقطاع . ومنذ ذلك الوقت بدا له واضحاً جلياً أنه بوحدة الصفوف وبالوعي الطبقي يمكن أن تهتز الأرض تحت عروش هؤلاء السادة التاريخيين .

كان من الصعب عليه وهو في المدينة أن ينس الاقطاعي الذي عاد إلى القرية بعد رحلة صيد غير موفقة ، فأخذ يطلق العيارات النارية بفوضى وهستيرية حتى أصاب أحد الفلاحين وأرداه قتيلاً . وكان من الصعب عليه ولو انه يعيش حياة المدينة الرحبة أن ينس الحصادين المشرشرين عرقاً ودموعاً يتعرضون لضربات شمس كانت تودى بحياة الكثيرين منهم . وقد ارتبط كل ذلك بشكل لا تنفصم عراه مع قبان «حجي» الخان الذي يغش في الوزن ويقرض بالفائدة . لم يتوقف عند استعادة الذكريات المؤلمة والانفعال النفسي بها ، إنما أخذ يترسم معالم الطريق المؤدية إلى تغيير هذا الواقع الكريه . وكان هذا يمده بمزيد من الاندفاع والزخم . ومع أنه شارك بحماسة واخلاص في معارك الأحزاب التقدمية والمظاهرات الجماهرية الرافضة للأوضاع الطبقية والنكسات العسكرية والمؤامرات السياسية في تلك الفترة ، إلا أن ذلك لم يسفر عن نتائج ثابتة وراسخة و لم تكن أكثر من آلام المخاض قبل الولادة .

لكن ذلك لم يؤثر على تفاؤله بالمستقبل ، و لم يشوه أحلامه العريضة في

التغيير. الأمر الذي وضعه أمام قناعة ثابتة هي أنه يجب أن لا يتوقف عند حد ، وأن يمضي في الحياة بسهولة لا يلين أمام صعابها ولا يلوي عنق المراحل لخدمة أغراض عابرة . إنما أن يهيء نفسه لثورة قادمة بدأت ارهاصاتها تتوضع في أرض الواقع .

في عام ١٩٥٣ غادر قريته إلى حوض الفرات وعمل في القرى هناك وكيلاً لمعلم ثم معلماً مثبتاً . في البداية علّم البدو . ورغم معرفته بهؤلاء الناس سابقاً ومعايشته الحقيقية لهم في مراحل طفولته ، إلا أن هذه التجربة كمعلم بينهم أغنت معلوماته وانطباعاته عنهم أكثر فأكثر ، واستطاع في تلك الفترة أن ينفذ إلى أعماق هذا المجتمع الذي يبدو ظاهرياً غريباً ، وأن يطلع عن كثب على أساليب تفكيرهم ومعالجاتهم للقضايا الحياتية التي تمر بهم . وطرائق معيشتهم ذات العناصر البسيطة ومدى تأثيرها على وعيهم . وربما لهذه التجربة الغنية بالذات يعود الفضل الأول لكتابته رواية «التحول الكبير» التي اتخذت من سد الفرات العظيم الذي بني بمساعدة الاتحاد السوفييتي الصديق مادة وموضوعاً لها .

وفي سنوات تعليمه تلك لم يكن يعتبر نفسه معلماً موظفاً يلقن التلاميذ أصول القراءة والكتابة فقط . كان يشعر بمسؤولية تجاه كل مجتمع يعيش فيه . هي أن يشارك في تفصيلات حياته اليومية ومشكلاته وشؤونه . ولذلك حمل معه إلى هذه البيئة البكر أفكار حزب البعث العربي الاشتراكي الذي ينتمي إليه ، وخاض معهم جولات وجولات من النقاشات والتحاور ، يقرب من خلالها أفكار الحزب إلى أذهانهم وعقولهم . وعندما اكتشف أمره من قبل السلطات المحلية ، وكان الحزب وقتئذٍ يعيش عهداً سرياً ، اعتقل وأودع السجن عام ١٩٥٤ لكنه لم يبق فيه سوى يوم واحد . لأنه في اليوم الثاني من اعتقاله حدث الانقلاب على الرئيس الشيشكلي وأفرج عنه .

وربما ستلعب أمثال هذه المصادفة دوراً مدهشاً في حياتـه اللاحقـة . وستلعب دوراً عجيباً في انقاذه من الموت المحتم . وذلك عندما قامت ثـورة الثـامن مـن آذار عام ١٩٦٣ قبل يوم واحد فقط من تنفيذ حكم الاعدام بـه . الأمـر الـذي سيأتي تفصيله بعد قليل .

بدأ حياته العسكرية عام ١٩٥٤ . التحق بمدرسة الرتباء في مدينة قطنـا القريبـة من دمشق . وقضى فيها مدة الـدورة وهـي ستة أشـهر تخـرج بعدهـا منهـا برتبـة عريف . وفي هذا العام أغتيل العقيد الوطني عدنان المالكي الذي كان مشـرفاً علـى مدارس الرتباء التي تنتمي إليها مدرسته . كان يرعى مبـاراة في كـرة القـدم وكـان حاضراً بين الجمهور . وفي اليوم الثاني اشترك في مراسم الدفـن وكـان مـن الجنـود الذين ساروا في حراسة النعـش . كـان المـالكي مـن الوطنيـين المتحمسـين للقوميـة العربية وكان حليفاً لحزب البعث العربي الاشتراكي ، وقد هز اغتياله النفوس وملأ القلوب بالاستنكار والغضب .

بعد تخرجه من مدرسة الرتباء عين في الجولان في مخفر قريب من بحيرة طبريا . كان رئيساً لمخفر عسكري حين وقعت أثناءها معركة حامية مع القوات الصهيونية المتمركزة في مواجهة مخفره . واستشهد قائد سريته . وعلى أثر المعركة نقل الفـوج بكامله إلى القطاع الشمالي من جهة الجولان . وأصبح رئيساً لمخفر عسكري مقابل مستعمرة «كفر شامير» بقي هناك حتـى عـام ١٩٥٦ حيـث انتهـت مـدة خدمتـه الإلزامية. وسرح بعدها من الجيش . لكن بعـد أن درس الشـهادة الثانويـة وحصـل عليها وهو في الجندية .

بعد تسريحه بيوم واحد جرت حرب السويس والعدوان الثلاثـي علـى مصـر . فأعيد ثانية إلى الخدمة برتبة رقيب . وتقدم بعدها بطلب إلى الكلية الحربية والتحقق

فيها عام ١٩٥٧ متأخراً عن الدورة ثلاثة أشهر وقبل فيها لأنه أدى الخدمة العسكرية الأمر الذي ساعده في اللحاق بزملائه في الكلية . وفي الكلية كان طالب نشيطاً معروف الإنتماء إلى حزب البعث العربي الإشتراكي . وكان هذا أمراً غير مرغوب فيه ورغم التنبيهات الكثيرة فقد واصل نشاطه الحزبي ، وكانت قضية الوحدة هي القضية التي يتمركز حولها فكره ونشاطه الحزبي كبعثي . وبطبيعة الحال لم يكن هذا يروق الكثيرين من الضباط . مما حال بينه وبين التخرج من الكلية إلا في دورة لاحقة . وبعد قيام الوحدة . التحق بالكلية الحربية في القاهرة وتخرج منها عام ١٩٥٩ برتبة ملازم وعين في كتيبة المظلات المتمركزة في القاهرة.

ـ اتبع دورات عسكرية مختلفة كقائد سرية في سلاح المشاة ، وكمدرب في الصاعقة ومدرب في المظلات ، ورفع إلى رتبة ملازم أول .

في الفترة التي قضاها في مصر ربطته علاقات طيبة بالجنود والضباط السوريين وأحب مصر والمصريين وجاءت الوحدة لتنعش الآمال وتحقق ما ناضل من أجله طويلاً ، لكن لم يمنع أن يعارض فكرة حل حزب البعث العربي في سورية كما طلب القادة السوريين . وعندما خضع قادة الحزب لهذا القرار وحلوا الحزب . أبدى استنكاره أمام أحد قادته البارزين يومذاك وهو صلاح البيطار وكان موجوداً في القاهرة . وأعلن أن هذا الأمر يعد خطيئة تاريخية كبرى . ولكن ذلك لم يؤثر على علاقاته مع الأخوة المصريين ولا على موقفه المبدئي من مسألة الوحدة بين مصر وسورية . وتابع نشاطه العسكري هناك بكل إخلاص .

ـ عمل دورة مدرب صاعقة في انشاص الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية للقاهرة .

قفز من الحوامة دون مظلة عن ارتفاع ٨٠ متراً على سطح مياه النيل ، مع أنه لا يجيد السباحة ! وكان الرئيس جمال عبد الناصر يرعى حفل التخرج فتقدم منه بعد نهاية العرض وأثنى عليه .

وعندما حدث الإنفصال كان موجوداً في القاهرة . ورغم معارضته لسياسة الرئيس جمال عبد الناصر في حل الحزب . كان من أشد المعارضين للإنفصال واعتبره جريمة كبرى ضد التاريخ العربي الحديث يجب أن يحاسب عليها مرتكبوها.

عاد بعدها من القاهرة حاملاً الكثير من الإنطباعات عن الجنود والضباط المصريين الذين يملكون حساً وطنياً كبيراً وقدرة هائلة على التحمل والصبر . وعندما وصل إلى دمشق حاول التلفزيون السوري إجراء مقابلات مع الضباط العائدين لاستدراجهم للإساءة لمصر ولعبد الناصر . لكنه رفض هذه المقابلة .

وفي هذه الفترة سرح العديد من الضباط البعثيين ومنهم الرئيس حافظ الأسد . ونقلت وحدته إلى معسكر رسم العبود الواقع في شرق حلب .

هناك مقولة لعبت دوراً أساسياً في حياته وهي أن الجيوش إذا امتلكت الوعي الطبقي إلى جانب الإحساس الوطني يمكن أن تكون قوة مؤثرة في مجرى التحولات الثورية . وخصوصاً في بلدان العالم النامي التي تلعب فيها الجيوش عملياً . دوراً رئيسياً في السياسة .

لقد لعب الجيش السوري في فترة ما بعد الإستقلال حتى بداية الستينات دوراً أساسياً ووحيداً في تغيير الحكومات من خلال الإنقلابات المتعاقبة . لكن قادته في ذلك الوقت لم يكونوا يحملون أية صيغة من صيغ الحكم الوطني أو الشعبي . واندفعوا بغلو باتجاه الإنقلابات ضمن نطاق الصراعات التناحرية للوصول إلى السلطة . ونسوا إلى حد كبير مسؤولياتهم الوطنية في الدفاع عن الأرض ، وتطوير

البلاد . كانوا يمثلون الطبقات والشرائح العليا في المجتمع وكانوا يعملون على خدمتها في السياسة والإقتصاد . وآل الأمر ببعضهم إلى التآمر على مستقبل البلاد وعقد الصفقات السياسية والإقتصادية السرية التي تربط البلاد بعجلة الإستعمار الحديث وترتهنها لمشيئتها ومخططاتها .

لكن الذين عايشوا الجنود السوريين على الجبهات ومواقع القتال مع العدو الصهيوني ، وتلمسوا الجذور الطبقية لهؤلاء الجنود في القرى والمدن ، يدرك تماماً أنهم سيكونون يوماً ما ساعد الثورة الأيمن التي ستعمل من أجل قضايا وطنية وقومية ملحة كالوحدة العربية الإشتراكية نصيرة الفقراء والعمال والفلاحين والكادحين .

من هذه الفكرة انطلق إلى تحديد علاقته بعمله العسكري. وما عنى له الجيش يوماً إلا إدارة ثورية للتغيير نحو واقع أفضل. نظراً لإمكاناته الهائلة في هذا المجال ولكون قاعدته الأساسية مؤلفة من أبناء الفلاحين والعمال . كان يشعر أن الجندي الذي يقف صامداً على الحدود للدفاع عن أرض الوطن ضد أخطار العدو الصهيوني ، سيعي يوماً ما أن عمله هذا سيكون ناقصاً على الرغم من عظمته ما لم يكتمل في الدفاع عن المستغلين من أبناء وطنه الذين يعمرون هذه الأرض وتخليصهم من قهرهم وفقرهم التاريخيين .

لقد لاقت أفكار حزب البعث العربي الإشتراكي التي تتمحور حول هذين الهدفين ، والتي تربط بقوة بين التحرر الوطني والتحرر الإجتماعي ، انتشاراً واسعاً بين صفوف المواطنين ، وفي صفوف الجنود والضباط في الجيش . وكان لاغتيال عدنان المالكي القائد العسكري الوطني أكبر الأثر على نفوس الناس الذي لفت أنظارهم إلى هذه المؤسسة الوطنية التي يمكن أن يكون الخلاص على يديها .

وبالنسبة له فقط اتخذ قراراً شخصياً ينسجم مع مشاريع حزبه الذي كان يعيش عهداً سرياً ، خلاصته أن يكون الجيش دائماً في بؤرة أو في طليعة أي عمل أو تحرك وطني أوثوري . لقد راعه عهد الإنفصال بانقضاضه على المكاسب الوطنية والقومية التي تحققت سابقاً ، فبعد قضائه على أول وحدة عربية بين قطرين في تاريخ العرب الحديث ، اتجه نحو المكاسب والقرارات التقدمية التي أنجزت في عهد الوحدة ليقضي عليها ومنها مثلاً قانون الإصلاح الزراعي الذي أعطى الفلاحين بعضاً من حقوقهم . وكان الغلو في مناهضة المد الجماهيري ومحاربة التقدم إيذاناً لحزب البعث العربي الإشتراكي الذي يجمع بين قادته العديد من الضباط المسرحين للقيام بعمل ثوري يوقف عهد الإنفصال عند حد إن لم يكن ليلغيه .

هكذا تلقى التعليمات من حزبه . بأن يقوم تنظيمه الحزبي العسكري باحتلال مدينة حلب . وكان قائداً لسرية في كتيبة المظلات المتمركزة حول حلب . وقد اختلف معه بعض الضباط في الكتيبة فسيطر على الكتيبة كلها ، وفي الساعة الثانية ليلاً من الأول من نيسان عام ١٩٦٢ احتل بالكتيبة حلب وسيطر على المدينة بكاملها قبل شروق الشمس . وكانت جماهير المدينة معهم و لم يحدث أي احتكاك مع المواطنين لأن حلم الوحدة كان شغلها الشاغل . في تلك الأثناء كان من المفروض أن تتواقت مع عملهم هذا في حلب عمليات أخرى في بقية المحافظات كحمص ودمشق . لكن الإختلافات الشديدة في مؤتمر حمص، وتراجع بعض القادة العسكريين عن تنفيذ عهودهم أدى إلى إخفاق عملية حلب .

حيث عادت حمص التي تتواجد فيها قوات عسكرية وتعاونت مع القيادة في دمشق ضد الحركة في حلب .

عندها عقد مؤتمر لقادة القطعات العسكرية حضره الملازم الأول محمد إبراهيم

العلي رغم أن المؤتمرين لم يعترفوا به كون رتبته صغيرة . بينما كان أقل ضابط في المؤتمر برتبة مقدم . وكان للملازم الأول دور فعال في المؤتمر حيث أصر إصراراً كبيراً على ضرورة إبعاد عبد الكريم النحلاوي وجماعته الذين تمردوا على الإنفصال مع أنهم كانوا قبل حينه قادة الإنفصال. ولا بد من الإشارة أن لموقف الملازم الأول محمد إبراهيم العلي في وجوب إقصاء النحلاوي وجماعته عن سورية اللبنة الأولى في ثورة الثامن من آذار لأنها أزاحت إحدى المعوقات العسكرية الأساسية من طريقها والمتمثلة في النحلاوي وجماعته.

لكن عملية حلب أخفقت وألقي القبض عليه وأدخل السجن مع عدد كبير من رفاقه العسكريين منهم (حافظ الأسد) ، حيث بقي فيه أحد عشر شهراً وحكم عليه بالإعدام بتهمة التمرد العسكري .

كانت المحاكمات طويلة جداً استغرقت ثمانية شهور وقد شارك فيها مئات الشهود وصدق تنفيذ مرسوم الحكم في التاسع من آذار عام ١٩٦٣ . وطلب منه أن يقدم استرحام لرئيس الجمهورية ولكنه رفض كما رفض الهرب من السجن . في تلك الفترة كان مادة للأعلام العربي وخصوصاً المصري منه . وكانت إذاعة صوت العرب من القاهرة تصرح يومياً على قضيته . بينما خرجت جماهير سورية من أقصاها إلى أقصاها في مظاهرات ومسيرات احتجاجية تطالب السلطات بالإفراج عنه . كان يمثل في نظرها قضية هي قضية الوحدة أولاً . لقد أثر في نفسه عميقاً ذلك التعاطف الشعبي الرائع في قضيته . وقاده إلى قناعة ثابتة هي أن أي تضحية مهما عظمت تظل صغيرة وضئيلة أمام حب الجماهير الجارف .

لقد كانت هذه الحركة تمهيداً أولياً لثورة الثامن من آذار التي قامت عام ١٩٦٣ . ووضع لها اللبنة الشعبية الأولى ، واقتلع من أمامها كل المعوقات . وفعل

الرفاق في الحزب حسناً عندما قدموا موعد قيامها عدة أيام لتصادف الثامن من آذار ، أي قبل يوم واحد من موعد تنفيذ حكم الإعدام به .

بعدما أنقذ من الموت وخرج من السجن والتحق بكتيبة حراسة الأركان التقى بفصيل الإعدام الذي كان سينفذ الحكم به . وكانت هذه من المفارقات المدهشة القليلة التي مرت به في حياته .

بعد ثورة الثامن من آذار تسلم قيادة الحرس القومي بقرار من قيادة الثورة في سورية . ليصبح فيما بعد عام ١٩٦٧ باسم الجيش الشعبي ، وما يزال في قيادته حتى الآن .

اشترك في جميع الأحداث التي مرت على سورية . واشترك بالرأي والفعل في القضاء على كل المؤامرات التي تعرضت لها الثورة .

ومن الأحداث الهامة التي تركت بصماتها على تاريخ سورية الحديث كانت حركة ٢٣ شباط عام ١٩٦٦ التي أقصت رموز التيار اليميني المناور في الحزب عن سدة الحكم وكان لمحمد إبراهيم العلي دوراً أساسياً في تلك الحركة والتي أرست أسس التفكير العلمي والمنهجي في حزب البعث العربي الإشتراكي . وكان أن تعرض للإغتيال والموت أكثر من مرة على أيدي الرجعيين والمتآمرين ...

ففي الثامن من أيلول عام ١٩٦٦ تعرض لمحاولة إغتيال قام بها المتمردون من الجيش . حيث ألقوا القبض عليه خدعة ووضعوه في زنزانة عليها حراسة مشددة ، وحاولوا إطلاق الرصاص عليه ، لولا فشل العصيان الذي قامت به هذه الحركة وهروب قادتها .

لقد كانت معرفته بالرئيس حافظ الأسد الأمين العام للحزب قديمة تعود جذورها إلى الفترة التي قضياها في مصر أثناء الوحدة . حيث تولدت علاقاتهما

وتعاونا طيلة تلك الفترات التي نشط فيها الحزب سراً وعلناً ، قبل وصول الحزب إلى السلطة عام ١٩٦٣ وما بعده . وكان أن عمل بإخلاص للحركة التصحيحية التي قادها الأمين العام للحزب الرئيس حافظ الأسد عام ١٩٧٠ وبقي مخلصاً وأميناً لأفكاره وقيادته. حتى الآن .

اتبع دورة قائد كتيبة ــ ثم التحق بالأكاديمية العسكرية واتبع دورة أركان حرب .

وكان له الشرف الكبير الذي يعتز به كثيراً ، أن يكون أحد المؤسسين لمنظمات الثورة الفلسطينية منذ بداية تشكيلها السري وحتى بعد إعلانها عام ١٩٦٥ . وله الكثير من الأصدقاء في صفوف القادة الفلسطينيين . على الرغم من أنه يعترف بأنه خدع ببعضهم ، إما لأنه لم يكتشف حقيقتهم ، وإما أنهم هم الذين تغيروا وانقلبوا على أنفسهم .

بدأ علاقته بالأدب عام ١٩٧٧ . ونشرت أولى رواياته في أواخر هذا العام بعنوان « المرابي » عام ١٩٧٨ نشر رواية « الطغيان » ــ الجزء الأول . ثم « الطغيان » ــ الجزء الثاني والطغيان الجزء الثالث و « المرابي » ــ الجزء الثاني والقناديل الجزء الأول والقناديل الجزء الثاني بعنوان المطاردون . وعن حرب تشرين عام ١٩٧٣ كتب رواية « نجمة الصبح » التي ترجمت إلى اللغة الروسية .

و« التحول الكبير » عن سد الفرات الذي ترجم إلى اللغة الروسية .

ثم روايته الذئاب عن الصراع العربي الإسرائيلي . وروايته المرابي الجزء الثالث بعنوان « الخان » وهذه روايته المرابي الجزء الرابع بعنوان « المحطة » ومجموعة قصصية وكتاب عن حياة كيم إيل سونغ والشعب الكوري .

وهكذا كانت حصيلته الأدبية حتى الآن إثنى عشر رواية ومجموعة قصصية واحدة .

وهو عضو في اتحاد الكتاب العرب ولـه مساهمات فعالة في نشاطاته وعلى الأخص ما يتعلق منها بتطوير علاقات التعاون والصداقة بين اتحاد الكتاب العرب واتحادات الكتاب في بقية البلدان الصديقة . والدول العربية والعالم .

منح عدد كبير من الأوسمة في سورية لإخلاصه الوطني ـ ومنح الوسام الحربي من الدرجة الأولى بحرب تشرين عام ١٩٧٣ .

منح عدة أوسمة من دول أجنبية ، ومنح وسام الصداقة مع الشعوب بمرسوم من قبل مجلس السوفييت الأعلى في الأتحاد السوفييتي في ١٨ آب ١٩٨٧ .

ـ تزوج من عزيزة عبد الهادي العلي من مواليد ١٩٤٥ من قريته وله ستة أولاد .

صدر للمؤلف

ـ المرابي	الجزء الأول	١٩٧٧
ـ الطغيان	الجزء الأول	١٩٧٨
ـ التحول الكبير	رواية	١٩٧٨
ـ الطغيان	الجزء الثاني	١٩٧٩
ـ القناديل	الجزء الأول	١٩٨٠
ـ نجمة الصبح	رواية	١٩٨١
ـ المطاردون	« القناديل الجزء الثاني »	١٩٨٢
ـ الطغيان	الجزء الثالث	١٩٨٣
ـ المخاتير	« المرابي الجزء الثاني »	١٩٨٤
ـ شوك الدردار	مجموعة قصصية	١٩٨٧
ـ الذئاب	رواية	١٩٨٨
ـ الخان	« المرابي الجزء الثالث »	١٩٩١
ـ كتاب عن حياة كيم إيل سونغ والشعب الكوري		١٩٩٢
ـ المحطة	« المرابي الجزء الرابع »	١٩٩٤

تحت الطبع للمؤلف

- المتمردون
- الثائرون
- الغجرية
- مجموعة قصصية

« القناديل الجزء الثالث »

« القناديل الجزء الرابع »

« المرابي الجزء الخامس »

« الدولاب »

.... كان النقاش حاميا في بهو فندق الأهرام حول اتفاقية رودس ، بين المجتمعين من البكاوات . والنواب وشيوخ العشائر والمخاتير والمفتي والمطران والخوري والشيخ عبد الرحمن والشيخ سعدو والخادم والبويجي . وشهناز وسارة وعدد من فنانات ملهى الكروان . وأبو صياح مدير الفندق .

قطع النقاش الشيخ سعدو بشكل مفاجيء صائحا :

ـ أنا قلت للفلاحين في ساحة القرية يوم الجمعة ، أن من يصالح اليهود جاسوس .

رد المفتي عليه بغضب قائلا :

ـ اترك السياسة لأهلها يا رجل والتفت الى أمور دينك وقوت عيالك .

رماه الشيخ سعدو بنظرة متفرسة ورفع صوته عاليا :

ـ أنا قلت للفلاحين ذلك . وها أنذا أكرره مرة أخرى : ان من يصالح اليهود جاسوس ابن جاسوس ، وفلسطين أرض مقدسة هكذا في ديني أيها المفتي ، ولا قيمة لقوت عيالي اذا احتل جزء من وطني ...

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة
وهي تمر مرّ السحاب ﴾

صدق الله العظيم

الدنيا مقلوبة والغد أفضل

السعر ١٩٠ ل.س